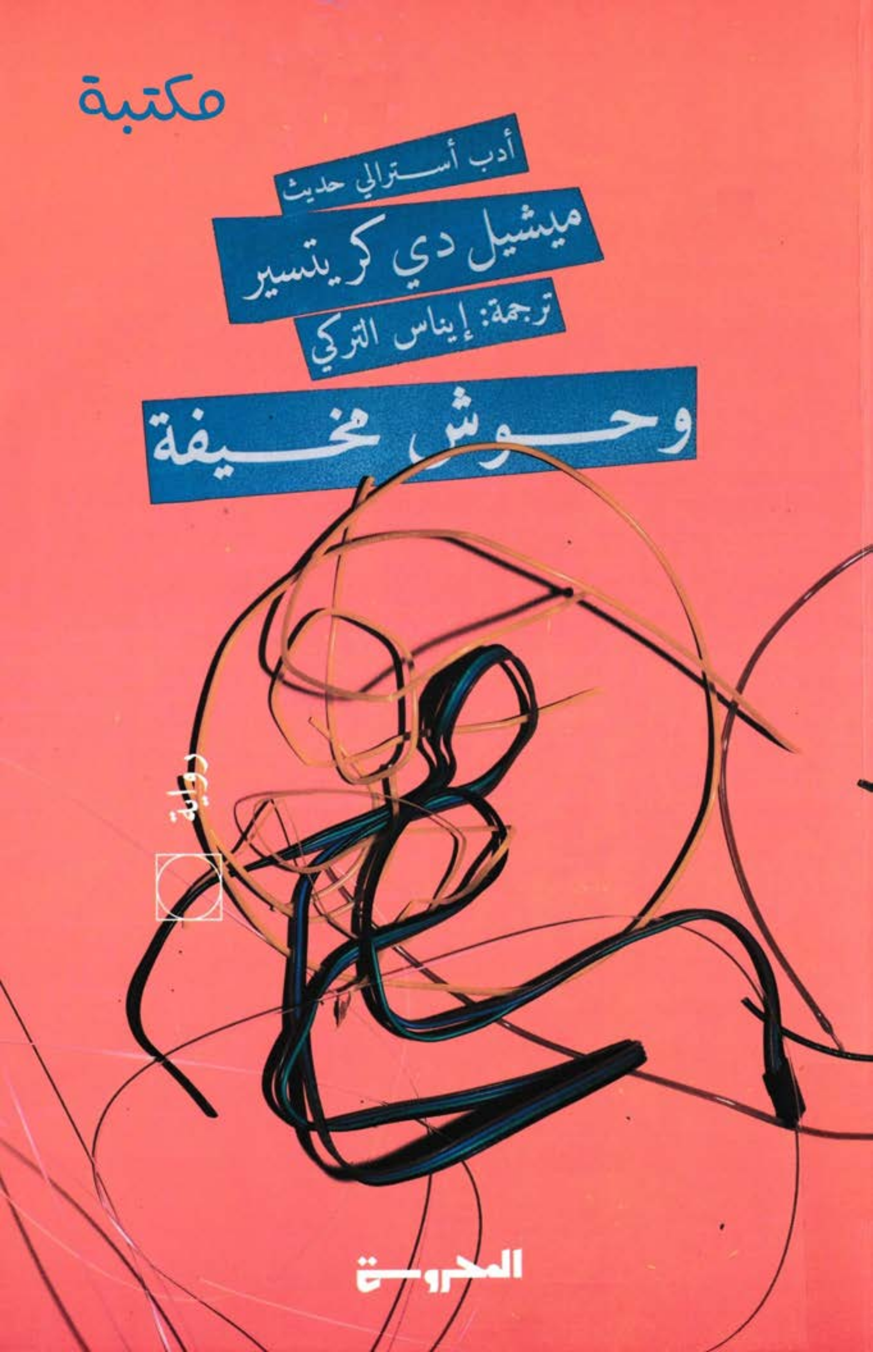

مكتبة
أدب أسترالي حديث
ميشيل دي كريتسير
ترجمة: إيناس التركي
وحوش مخيفة
رواية
المحروسة



وحوش مخيفة

ميشيل دي كريتسير

ترجمة

إيناس التركي

الطبعة الأولى 2023

عنوان الكتاب: وحوش مخيفة Scary Monsters
المؤلف: ميشيل دي كريتسير Michelle de Kretser
ترجمة: إيناس التركي
مراجعة لغوية: شيرين يونس
إخراج داخلي: رشا عبدالله



قطعة رقم 7399 ش 28 من ش 9 - المقطم - القاهرة
ت، ف:- 28432157 02 002



رئيس مجلس الإدارة: فريد زهران
مدير النشر: عبدالله صقر

رقم الإيداع: ١٦٢٥٣/ ٢٠٢٣
الترقيم الدولي: 978-977-313-983-4

2023

"This project has been assisted by the Australian Government through the Australia Council for the Arts, its arts funding and advisory body."

First published in Great Britain in 2022 by Allen & Unwin



2 10 2024



بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

دي كريتسير، ميشيل

وحوش مخيفة: رواية/ ميشيل دي كريتسير؛ ترجمة: إيناس التركي.-ط1

القاهرة: مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات، 2023

280 ص؛ 21.5×14.5 سم

تدمك 978-977-313-983-4

1 - القصص الإسترالية

أ-التركي، إيناس (مترجم)

ب- العنوان

899.153

رقم الإيداع 2023/16253

إن الحكومة هي الأكثر برودًا من بين كل الوحوش الباردة.

نيتشه

كيف يكون شعورك، حينما تمثِّل مشكلة؟

و. إ. ب. دو بويز

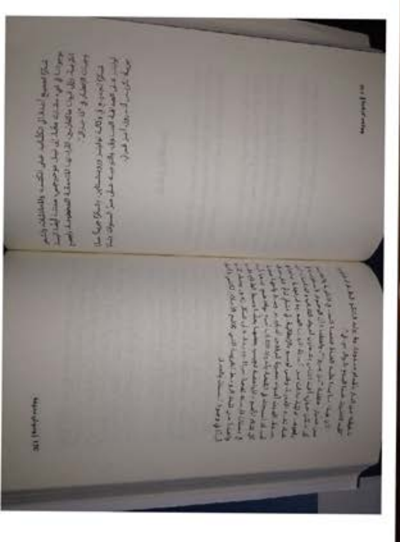
وحوش مخيفة بقلم ميشيل دي كريتسير   تستكشف الرواية ثلاثة من الوحوش التي ابتُلي بها عالمنا: العنصرية، وكراهية النساء، والتحيُّز ضد المسنين. وتتألَّف الرواية من حكايتين منفصلتين، يروي كلًّا منهما مهاجرٌ من أصول آسيوية إلى أستراليا. وتمامًا كما انقلبت حياة شخوص الرواية وانقلب عالمهم رأسًا على عقب بسبب الهجرة، قلبت ميشيل دي كريتسير شكل روايتها، بحيث التصقت الحكايتان ببعضهما على نحوٍ مقلوبٍ، ويمكن للقارئ البدء بأي جهة يشاؤها.

" توضيح من مكتبة "حين تمسك بيديك هذا الكتاب ستجد شيئا غريبا .. أن وجهي الغلاف لهما الشكل نفسه .. صورة واحدة متطابقة لصورة غلاف أمامي عادي لأي كتاب (انظر الصورة ١ في الصفحة التالية)..

كما جاء في نبذة الكتاب يتكون من حكايتين .. وإن فتحت الكتاب من أي جهة سيبدأ بصفحة رقم 1 والجهة الأخرى كذلك رقم ١ في الحكاية الأخرى .. والصفحتين الأخيرتين من الحكايتين تلتقيان في منتصف الكتاب (انظر الصورة 2 في الصفحة التالية)

في النسخة الرقمية التى بين يديك ستجد :

وكما جاء أعلاه يمكنك البداية بأى حكاية قبل الأخرى ..





في حكاية ليلي، هاجرت أسرتها من آسيا إلى أستراليا وهي في سن المراهقة، حتى صارت تعمل بالتدريس في فرنسا في الثمانينيات، حيث كوَّنت صداقات، ولاحظت المعاملة التي يتعرَّض لها المهاجرون من شمال إفريقيا، بينما يثير جارها الخوف في نفسها بسبب غرابة طباعه. وطوال الوقت، تسعى ليلي جاهدة لتكون امرأة جريئة وذكية مثل سيمون دي بوفوار.

أما لايل، فيعمل لصالح إدارة حكومية خبيثة في أستراليا في المستقبل القريب. وبوصفه مهاجرًا آسيويًّا، فهو يخشى العودة القسرية لوطنه الأم التي تهدد كل معارض للحكومة، ويحاول لايل الاندماج وتبني «القيم الأسترالية»، بينما تشغله زوجته الطموحة وولداه صعبا المراس ووالدته المسنَّة العنيدة.

تدور كل هذه الأحداث على خلفية من التغيُّر المناخي والأوبئة المنتشرة والحرائق المستمرة، في ظل حكومة شمولية جرَّمت الإسلام في البلاد وفرضت سيطرتها بالقوة، حتى صارت أستراليا منبوذة على الصعيد الدولي وخاضعة للعقوبات الاقتصادية.

ليلي



كان ذلك هو العام الذي ذهبنا فيه إلى سردينيا لمقابلة عشيقة جون بيرجر، وكان القطار الليلي الذي يسافر عبر كوت دازور مكتظًّا، والتدفئة عالية في مقصورتنا، لذا تناوبنا أنا ومينا على الوقوف في الممر؛ حيث تنفتح النوافذ، وتدخل كتل من الهواء الربيعي البارد. تمدَّد الناس هناك، ومعظمهم من الجنود المراهقين ذوي الرؤوس الحليقة حديثًا. اضطررنا إلى السير فوق حقائبهم، وعلا تذمُّرهم بشأن ذلك. تحدَّث الجنود بصوتٍ أعلى مما هو مطلوب، وتدافعوا فيما بينهم. أذكر نفاد الصبر البادي على وجوههم، وكان أحدهم كورسيكيًّا ممتلئ الجسم، أطلق عليه الآخرون اسم بونابارت بسخرية لطيفة.

كان القطار متأخرًا عن موعده، وظلَّ يتوقف فترات طويلة وغامضة بين المحطات. عندما عدنا إلى مقاعدنا، تشاركنا أنا ومينا عبوة من البسكويت الهش المغطَّى بالشوكولاتة، ومِلنا إلى الأمام كي نمرِّرها بيننا جيئة وذهابًا. لاحقًا، عندما كان النعاس يغمرني، تعثَّرت في ساقيْ أحدهم وخرجت إلى الممر، حيث وجدت الجنود يلعبون النرد مثل الجنود من الكتاب المقدس، والمرحاض ينضح بالقذارة.

سألني الكورسيكي عمَّا إذا كنت أعرف بيرة الكستناء الحمراء المخمرة في قريته، وعرض عليَّ سيجارة، عندما تباطأ القطار حتى توقف. ظهرت من النافذة مدينة بدت كما لو أنها مبنية من الميكانو،

وأبراجها ومكعباتها مضاءة بنجومٍ ذهبية كبيرة، فأوضح جندي آخر أنها مصفاة لتكرير النفط. قال نابليون إنه حتى تتمكَّن من فهم رجلٍ، عليك معرفة كيف كان شكل العالم عندما كان في العشرين من عمره. كنتُ في الثانية والعشرين من عمري، وكانت مينا في العشرين، وكان العام هو 1981.

***

في وقت تلك الرحلة، كنتُ قد أمضيت سبعة أشهر وأنا أعمل بالتدريس في مدرسة ثانوية في مونبلييه. كان هناك ثلاثة مساعدين في مدرسة جان مولان الثانوية: أنا وفيليبي وديتر. ومثل مئات الأجانب الآخرين، وظَّفتنا الحكومة الفرنسية للمساعدة في تدريس لغاتنا الأم. كان لديَّ أنا وديتر عقود سارية من سبتمبر 1980 حتى نهاية مايو التالي، لكن فيليبي أمضى في العمل كمساعدٍ فترة أطول من عمري بأكمله. في الأسابيع الأخيرة من الحرب الأهلية الإسبانية، عندما كان يبلغ من العمر سبعة عشر عامًا، هرب عبر جبال البرانس إلى فرنسا، وعندما اكتشف الفاشيون هربه، ألقوا بشقيقته داخل بئرٍ. كان يمكن ملاحظة فيليبي في غرفة الموظفين وهو يشرب القهوة المُرَّة من ماكينة صنع القهوة مع الرجال الآخرين الكبار في السن. قيل لي إن لديه سبعة أطفال، بينما قال شخص آخر خمسة، وكان يمكن أن تكون الحقيقة وجود طفل واحد، أو عدم وجود أطفال على الإطلاق. كان التكاثر بإسرافٍ متوقعًا من الإسبان، الذين ترسخ في الرأي الفرنسي كونهم عرقًا متخلفًا يسيطر عليه الكهنة.

أنزلتني المدرسة الثانوية في النُّزُل التابع لها خلال الأسابيع القليلة الأولى التي بدأت فيها التدريس، بينما كنت أبحث عن مكان لأعيش فيه. وفقًا للتعليمات التي تلقيتها في سيدني، وصلت إلى مونبلييه بعد

مـرور أسـبوع مـن شـهر سـبتمبر، وكان الطـلاب الفرنسـيون قـد اقتنصـوا جميـع الأماكـن المفروشـة الرخيصـة بحلـول ذلـك الوقـت. في مكتـب السـياحة، لم يصـدق الموظـف المسـؤول عـن الإيجـارات الأمـر: الحضـور بعـد اسـتئناف الدراسـة، وتوقُّـع العثـور عـلى سـكن! وضـع راحتيـه عـلى المنضـدة وانحنـى إلى الأمـام ليقيِّمنـي، وهـو يحـاول أن يقـرر مـا إذا كان سـيحتقر أجنبيـة، أم يشـفق عـلى حمقـاء.

أقـام ديـتر حفلـة بعـد وقـتٍ قصيرٍ مـن لقائنـا. كان يعيـش في مبنـى هـادئ عـلى طـراز هوسـمان بسـقفٍ مـن الأردواز، وبـه مصعـد في قفـصٍ حديـدي، وسـلَّم رخامـي لـه درجـات سـفلية واسـعة. صعـدت الـدرج إلى الطابـق الثـاني، حيـث كان أحـد الأبـواب المزدوجـة للشـقة مفتوحًـا. كانـت والـدة ديـتر فرنسـية، والشـقة مملوكـة لإحـدى القريبـات البعيـدات، وقـد تزوجـت هـذه القريبـة مـن دبلومـاسي يعمـل حاليًـا في عـمان. كان المدخـل مؤثثًـا بخزانـات مقفلـة ذات واجهـات زجاجيـة تحتـوي عـلى آثـار شرق أوسـطية: ألـواح طينيـة وتماثيـل غـير مزججـة وأوعيـة صغـيرة. وقفـت فتـاة ذات شـعر نحـاسي مصفَّـف عـلى شـكل غديرتـين وترتـدي بدلـة مـن قـماش الترتـان وهـي تتأمَّلهـم. كان أول شيء قالتـه لي مينـا هـو: "مـن الواضـح أنهـا منهوبـة، أراهـن أنهـم أخرجوهـا في حقيبـة دبلوماسـية". بـدت نـبرة صوتهـا الإنجليزيـة منخفضـة وعنيفـة. قالـت: "هـل رأيـت اللوحـات؟ مـن هنـا". في غرفـة المعيشـة كانـت هنـاك كـراسٍ مذهبـة باليـة، وأعضـاء فريـق "سـيكس بيسـتلس". أدارت مينـا ظهرهـا لثـلاث لوحـات، وقالـت: "تخيَّـلي امتـلاك المـال الـلازم لـشراء أعـمال أرسـيمبولدو، وشراءهـا بالفعـل". أشـعلت سـيجارة، ولاحظـت أنهـا تقضـم أظافرهـا.

صـاح جـوني روتـين قائـلًا إنـه لا يعـرف مـا يريـد، ولكنـه يعـرف كيـف يحصـل عليـه. أرسـل إليَّ ديـتر قبلـة، واسـتمر في التحـدث إلى صبـي لـه رأس صغـير أملـس الشـعر كراقـصٍ. أخبرتنـي مينـا بأنهـا فنانـة، وقالـت إن هنـاك العديـد مـن مـدرسي اللغـة المسـاعدين في الحفلـة، وقادتنـي إلى

أحدهـم، صديقهـا نيـك. كان يتحـدث إلى ديـب، مسـاعدة أخـرى، تـدرِّس في مدرسـة مختلفـة. كانـت ديـب تبحـث مثلي عـن مـكان للسـكن، لكـن مينـا ونيـك كان لديهـما شـقة في البلـدة القديمـة، في القلـب التاريخـي. وقَّعـا عقـد الإيجـار في يونيـو، وقضيـا الصيـف في العمـل في تولـون. بـدا نيـك مسـمر البـشرة، ولديـه عينـان زرقـاوان فاتحتـان للغايـة، وهـو مزيـجٌ وجدْتُـه مخيفًـا ومثـيراً في نفـس الوقـت. تحـدث بلطـفٍ معـي أنـا وديـب وقـال: "انظـرا، لا يمكنكـما تأجيـل البحـث عـن سـكن حتـى شـهر سـبتمبر، يجـب أن تعرفـا كيفيـة إدارة مثـل هـذه الأمـور".

كان لـدى مـدام بيسـيه، رئيسـة قسـم اللغـة الإنجليزيـة في مدرسـتي، غرفـة للإيجـار في منزلهـا، عرضتهـا عـليَّ في أحـد الأيـام. بـدت دافئـة ومشرقـة، وبهـا رأس غـزال يطـلُّ مـن أحـد الجـدران،كان ابـن آل بيسـيه قـد اصطادهـا احتفـالًا بطلاقـه. لفتـت مـدام بيسـيه انتباهـي إلى الموقـد الكهربـائي، وقالـت: "كـما تريـن، هـذا مثـالي لإعـداد العجـة". كان منزلهـا عـلى مسـافة قصـيرة مـن المدرسـة، مـما يعنـي أنـه بعيـدٌ عـن وسـط المدينـة، وكانـت الحافـلات تتوقـف عـن العمـل في السـاعة الثامنـة.

في السـاعات التـي قضيتهـا في باريـس وأنـا أعـاني إرهـاق السـفر قبـل أن أسـتقل القطـار المتجـه نحـو الجنـوب، ابتعـتُ بطاقـة بريديـة تصـور إحـدى الصـور الفوتوغرافيـة التـي التقطهـا ويـلي رونيـس. أظهـرت البطاقـة امـرأة عاريـة تغتسـل عنـد طسـت، وبجانبهـا أبريـق فـوق الأرض الحجريـة. كانـت هنـاك نافـذة عميقـة مفتوحـة في الجـدار، مـن دون أي لـوح زجاجـي، بـل مصراع فقـط مصنـوع مـن ألـواح خشـبية رأسـية. كنـت أعـاني مـن النسـخة المملَّـة مـن مشـكلة جـوني روتـين: كنـت أعـرف مـا أريـده، ولكنـي لا أعـرف كيـف أحصـل عليـه. أردت السـكن في القلـب التاريخـي للمدينـة. فـما معنـى مغـادرة أسـتراليا إلى فرنسـا، إن لم تكـن تتمنـى العيـش في قلـب المدينـة التاريخـي؟ في حفلـة ديـتر، عـبَّرت عـن مخـاوفي: "قـد أضطـر إلى قبـول الغرفـة لـدى آل بيسـيه".

أخذنا نأكل البسكويت المملح ونشرب النبيذ، وكان الآخرون، نظرًا إلى كونهم إنجليزًا، قد أتوا إلى فرنسا من قبل لقضاء العطلات وللتبادل المدرسي. سمعت أنه من المستحيل العثور على رقائق بطاطس جيدة إلا في ماركس اند سبنسر في باريس. أشارت ديب إلى أن كلمة "رقائق" كلمة رائعة حقًّا، لأن الفرنسيين يواجهون صعوبة في نطقها. "تدورين بينهم في الفصل، فتنعقد ألسنتهم، الأمر رائع حقًّا، يمكنك قضاء خمس عشرة دقيقة على هذا النحو".

قال نيك: "كما أن الجيلي أيضًا مفيد. تسألينهم من ذهب إلى إنجلترا، وكيف أعجبهم الطعام، حينها يتحدثون لفترة طويلة عن مدى بشاعة الجيلي، وكيف شعروا حياله، وإذا أسعدك الحظ، قد يقف أحدهم ويبدأ في هز جسده".

ارتدت مينا مسبحة طوَّلتها عند مؤخرة رقبتها بحلقات إضافية، وأخذت تمصُّ الصليب، وعندما أخرجته من فمها، بات ملطخًا ببقعة من أحمر شفاه. تعالى صوت موسيقى مختلفة، "وحوش مخيفة"... لم أكن أعرف الأغنية، لكنني تعرَّفت على صوت بوي. قلت إنه وحش مخيف بكل تأكيدٍ، مشيرة إلى إعجاب الدوق الأبيض النحيف بهتلر. قالت ديب إن بوي لم يقصد الأمر على هذا النحو. كان جميع معجبي بوي الذين أعرفهم من البيض قد قالوا لي نفس الشيء. بدت بشرة ديب كما لو أنها بلون أزرق باهت، مثل الحليب المقشود، وكان لديها وجه كالدمية، جميل وقاسٍ.

تقدم ديتر نحونا وهو يلوي طرف سيجارة ماريجوانا، قائلًا: "هل يشعر الجميع بالسعادة؟ سوف نبدأ الرقص قريبًا. سيشارك الألمان في الرقص، لا تقلقوا". سأل عمَّا إذا كنَّا قد قابلنا أدالبرت: "ها هو هناك، بالقرب من الموسيقى الدائرة، كنزي الثمين". كان عشيقه رجلًا طويل القامة فائق الجمال، نُحِت من الثلج، وكان كبيرًا في السن، ربما

في الثلاثين! قال ديتر: "أعرف، فأنتم تفكرون أنه يبدو كما لو أنه نازي". أخبرنا أن أدالبرت لعب ذات مرة دور ضابط من قوات الأمن الخاصة النازية في أحد الأفلام. كان المخرج نجمًا صاعدًا، وعُرض الفيلم في كان. شعر أدالبرت أن مسيرته المهنية مضمونة، فلن يسأم العالم أبدًا من الأفلام التي تدور حول الرايخ الثالث. ذهب إلى باريس واستأجر جناحًا في فندق جورج الخامس، "كان يتدرب على أن يكون نجمًا، حتى يعرف تمامًا كيف يتصرف عندما يتحقق ذلك". بعد نهاية أسبوعين، أنفق أدالبرت كل أمواله، وبعد أربع سنوات، كان أفضل دور جديد له هو إعلان لماكينة حلاقة كهربائية.

وحينما لم يكن منشغلًا بلعب دور النازي، كان أدالبرت يحتفظ بصورة لنباتٍ منزلي في محفظته. أخرجها ليريني إياها، وكانت لغته الإنجليزية، مثل لغتي الألمانية، توضح حسن النوايا بدلًا من نقل المعنى، لذا تولَّى ديتر الترجمة: "يُدعى هذا النبات قدم الفيل، وهو نبات أدالبرت المفضل، وقد أسماه رامون". قلت إن هناك نباتًا له أوراق بحجم الصحون ينمو في سيدني، يُعرَف باسم أذن الفيل، لكن أدالبرت لم يكن يكترث بالفيلة، ومرَّر إبهامه بحبٍّ فوق البلاستيك الذي يحمي كنزه الثمين.

اتخذ جو الحفل عدة مناحٍ مختلفة، وقالت مينا: "في اللحظة التي يتحوَّلون فيها إلى موسيقى الديسكو، سوف أرحل"، ثم تحوَّلوا إلى موسيقى الديسكو. أخذ نيك يدندن أغنية بوي على نحوٍ خفيضٍ بينما كنَّا نغادر. أصدر باب المصعد قعقعة وهو يستقر في مكانه، وقالت مينا: "أدالبرت، يا له من اسمٍ! لديه على الأرجح شقيقة تُدعى والتراوت. هناك سؤال واحد فقط يجب طرحه بشأن مثل ذلك النوع من الناس: ماذا فعلوا خلال الحرب؟".

قال نيك: "إنه ليس كبيرًا في السن إلى ذلك الحد".

"إن والـده نمساوي، وهـم الأسـوأ عـلى الإطـلاق، إنهـم يخفـون الصلبان المعقوفـة أسـفل ياقاتهـم. أمـا بالنسـبة إلى الفرنسـيين، فقـد رأيـت مـا تسـتطيع القيـام بـه تلـك اللصـة، مالكـة شـقة ديـتر. أنـت تعلـم أن ديـتر لم يعلـن عـن مثليتـه الجنسـية لأسرتـه، أليـس كذلـك؟ لا يُسـمَح لأدالـبرت بالـرد عـلى الهاتـف، فهـم لا يعرفـون بوجـوده".

في الشـارع، أغلقـت مينـا سـحاب سـترتها، التـي كانـت مصنوعـة مـن الفـراء الصناعـي بدرجـة مبهجـة مـن اللـون الأخـضر. اضطـررتُ إلى ركـوب سـيارة أجـرة للعـودة إلى المدرسـة، وأنفقـتُ مـن مدخـراتي التـي أخـذت تتـلاشى. أوصلتنـي مينـا ونيـك إلى صـف السـيارات الأجـرة المنتظـرة. وعندمـا قامـا بوداعـي، قبّـلا وجنتـي مـرة، مرتـين، ثـلاث مـرات، كـما هـي العـادة في الجنـوب. قالـت مينـا: "هـذه غايـة الحماقـة، إذ يسـتغرق الأمـر وقتًـا طويـلًا لمغـادرة أي مـكان". فركـتْ أحمـر الشـفاه الـذي خلّفتـه عـلى وجهـي قائلـة: "لا تأخـذي تلـك الغرفـة".

***

عُرضـت شـقة مفروشـة للإيجـار في القلـب التاريخـي للمدينـة، في شـارعٍ قريـبٍ مـن الكاتدرائيـة تفـوح منـه رائحـة الأحجـار البـاردة. زيّنـت المصاريـع الخشـبية الزرقـاء نوافـذ المبنـى، الـذي كان الأصغـر في الشـارع ويبـدو أنـه الأقـدم أيضًـا، ونُقـش تاريـخ فـوق المدخـل: 1703. التقيـت بمالـك العقـار السـيد لافـال هنـاك، وتبعتـه صاعديْـن عـلى درج ملتـوٍ. التـفّ الـدرج حـول عمـودٍ ضخـمٍ مكسـو بالحجـارة الخشـنة، يرتفـع مـن الردهـة. مـا الغـرض منـه؟ عندمـا سـألت، قـال السـيد لافـال إنـه مبنـى قديـم جـدًا، لا يشـبه أي مبنـى آخـر، وقـد خضـع للتغيـيرات بمـرور الزمـن.

كانـت الشـقة في الطابـق العلـوي، وبـدت الحجرتـان بجدرانهـما السـميكة أشـبه بالغـرف التـي زرتهـا في الأحـلام. احتـوت عـلى بعـض

الأشياء الأساسية: كراسٍ وطاولة وفراشٍ كبيرٍ مرتفع برز من تجويفٍ في الغرفة الرئيسية. علَّمني بحثي عن مكان للسكن أن كلمة "مفروش" في فرنسا هي مجرد مسمى يُستخدَم لطرد المستأجرين من دون إثارة ضجة. زيَّنت أرضية المطبخ بلاطات لها شكل سداسي، باتت غير مستوية من أثر الاستخدام، ولها لون أحمر باهت. كما كانت هناك كابينة للاستحمام في أحد الأركان، وثلاجة مستديرة الحواف. أما دورة المياه، فكانت عبارة عن حجرة عند قمة الدرج الذي ارتفع ملتويًا من الردهة بالأسفل، وبها نافذة صغيرة فوق مستوى ارتفاع الرأس، ومقعد خشبي، ولافتة مطلية بالمينا على الباب توضح أنه مرحاض. لا بد أنه كان يخدم المبنى بأكمله منذ زمن ليس بالبعيد، لكن السيد لافال قال إنه سيكون لاستخدامي الخاص، وإن الشقق الأخرى بها مراحيض خاصة في الداخل.

كما أخبرني أيضًا أنه ورث المبنى، ويعمل على تجديده بالتدريج. ضم المبنى أربع شققٍ فقط، واحدة في كل طابق، وكان "هادئًا جدًّا، هادئًا للغاية". أجرى السيد لافال جميع التجديدات بنفسه، ولا يزال لديه شقة واحدة ليعمل عليها، في الطابق السفلي. كان قد انتهى من هذه للتوِّ، ووصلت رائحة الطلاء الحديث إلى أسفل الدرج.

بدا السيد لافال مبتهجًا مغضن البشرة، مثل مزارع في كتاب للأطفال، وعيناه شقَّان زرقاوان لامعان. أخبرني أنه يعيش على بضعة أفدنة لا تبعد كثيرًا عن مونبلييه، وسألني من أين أتيت. يصيبني ذلك السؤال بالتوتر. قبل سبع سنوات، هاجرت عائلتي من آسيا إلى أستراليا. من أين أتيت؟ اتسعت عينا السيد لافال الصغيرتان عندما قلت أستراليا. صاح قائلًا: "هذا بعيد للغاية!". هذا ما قاله كل فرنسي عند ذكر أستراليا. وافقته القول إنها بعيدة جدًّا بالفعل. لم أخبره أن بُعد المسافة سهَّل عليَّ القول بأنني أتيت من أستراليا، أما بالنسبة

إلى القول "بأنني أسترالية"، فلم يكن امتداد الكوكب شاسعًا بما يكفي لأدعي ذلك.

كلَّفتني الشقة سبعمائة فرنك شهريًّا، وهو أكثر مما كنت أتمنى أن أدفعه، لكن السيد لافال أوضح أن تكلفة المرافق مشمولة في الإيجار. قال بالفرنسية: "C'est intéressant"، أي هذا مثير للاهتمام، وكررها على فترات بلكنته الجنوبية المنغمة، "مو-ثير للاهتي-مام"، بينما هو يريني المكان. كانت ""intéressant كلمة لم أفهمها تمامًا في البداية. إذ إنها قد تعني "مثير للاهتمام" كما تعلمت، لكنها كانت تحمل أيضًا المعنى الفرنسي الذكي "في صالح المرء". كان السيد لافال يخبرني أن هذه صفقة رابحة، بينما ظننت أنه يشير إلى الطابع الرومانسي للمكان. بعد يومين، وضعت بطاقة رونيس البريدية بجانب الحوض الخزفي العميق في المطبخ. صرَّت الثلاجة أسنانها على سبيل الترحيب، وبدا مفتاح الباب الأمامي ثقيلًا وباردًا في يدي.

***

كانت البائعة المفضَّلة لديَّ في السوق المفتوح المتخصص في بيع الطعام ترتدي دائمًا سترة جلدية متشققة وحذاء لركوب الدراجة النارية. صبغت ساندرين شعرها بلون أسود صريح داكن، وصفَّفته في شكل ذيل حصان طويل إلى جانب واحد. أبدت ميلها إليَّ من خلال لفت انتباهي إلى هذا الصنف من الخضراوات أو ذاك: هذا "مو-ثير للاهتي-مام". ما هو الشيء المثير للاهتمام في البطاطس والكرنب؟ لفتت هذه النقطة البسيطة الغامضة انتباهي مثل هيئة داكنة وسط حقل ثلجي. كان هناك شيء وحشي في الأمر حينما يُلقى بالمرء وسط لغة أجنبية، وشيء مثير أيضًا. في تلك الأسابيع الأولى، كنتُ أحيانًا أضع مسافة بيني وبين نفسي، وأراقب تقدُّمي كما لو أنني أتابع شخصية

في روايـة. عنـد السـؤال عـن كيفيـة فتـح حسـاب مـصرفي، كنـت أسـتمع إلى نفـسي وأنـا أعيـد تكـرار الجمـل الـواردة في كتـب القواعـد. اسـتمتعت بغرابـة ذلـك، مثلـما اسـتمتعت بالدفـتر ذي المربعـات الـذي اشـتريته، والحلقـة الجيريـة التـي خلَّفهـا الماء العـسر في القـدور، وكان كل شيء دليـلًا عـلى أننـي أعيـش حيـاة مختلفـة.

كان للسـاحة الرئيسـية التـي تتوسَّـط المـكان اسمٌ رسـمي، لكـن أطلـق عليها الجميـع اسـم البيضـة نظـرًا إلى أنهـا تتخـذ هـذا الشـكل. امتـدَّ مـن أحــد أطـراف السـاحة ممـشى تصطـف عـلى جانبيـه أشـجار الكسـتناء الهنـدي. كانـت الأشـجار قـد أينعـت وتغـيَّر لونهـا، وبـدت الحـدة المذهلـة لفصـل الخريـف في الشـمال أمـرًا جديـدًا أيضًـا. في عطلات نهايـة الأسـبوع، جلـس كبـار السـن عـلى مقاعـد تحـت الأشـجار المدهشـة، وركـب الأطفـال الصغـار دراجاتهـم ثلاثيـة العجـلات بحـرصٍ واصطـدم بعضهـم ببعـض. ذات يـوم أحـد، كانـت هنـاك عـروض جانبيـة، وشـاهدتُ رجـلًا يصـوب حلقـات الحبـال المعقـودة نحـو أعنـاق الإوز الذاهـل المربـوط. بـدا لي المشـهد كـما لـو أنـه مـن قـرن آخـر، شيء يشـبه مـا كان يـراه فلوبـير.

***

تقـع نيـم عـلى بُعـد نصـف سـاعة فقـط بالقطـار. ذهبـت إلى هنـاك في يـوم أحـدٍ غائـم، بينـما تهـب ريـحٌ شـديدة. كانـت هنـاك فسيفسـاء رومانيـة يمكـن مشـاهدتها، ومـدرج رومـاني حيـث تقـام الآن مصارعـة الثـيران. ارتفـع الجـدار في المـدرج بمـا يكفـي لمنـع أي شـخص مـن القفـز فوقـه للفـرار، لكننـي لم ألاحـظ ذلـك حينهـا. انشـغل عقـلي بالحسـابات، بينـما كنـت أتجـوَّل في المدينـة تحـت سـحبٍ مـن أوراق الشـجر الصفـراء. لم يكـن راتبـي سـخيًّا، ولم أعتـد إعـداد الميزانيـة كل شـهر. كانـت تذاكـر القطـارات أرخـص إذا تـم شراؤهـا مقدمًـا، لـذا عـلاوة عـلى تذكـرتي إلى

نيـم، اشـتريتُ تذكرتـين للعـودة إلى باريـس. كان لـديَّ أصدقـاء أسـتراليون هنـاك، وخططنـا لقضـاء عيـد الميـلاد معًـا، بالإضافـة إلى العطلـة القادمـة التـي تبلـغ ثلاثـة أيـام بمناسـبة عيـد جميـع القديسـين. كانـت هنـاك عبـارة صادفتهـا في الروايـات، "un fin de mois difficile"، تشـير إلى نقـص المـال في نهايـة الشـهر. كنـت أعـرف ذلـك، لكننـي شـعرت بقـوة التعبـير للمـرة الأولى عندمـا جمعـت حسـاب تذاكـر القطـار، ورسـوم دخـول المـزارات في نيـم، وتكلفـة شـطيرة الجبن الطويلـة التـي اشـتريتها عـلى الغـداء.

تناثـرت فتـاتٌ مقرمشـة مـن الشـطيرة عـلى معطفـي، بينـما كنـتُ أسـير في الممـرات الكالحـة المفروشـة بالحـصى في إحـدى الحدائـق. إذا جلسـت عـلى مقعـدٍ، سـيجلس رجـل بجانبـي في غضـون دقائـق ويسـأل عن اسـمي. وإذا لم أجِـب، فسيسـأل سـؤالًا مختلفًـا أو يدعـوني إلى تناول شراب. سـيرحل بعـد فـترة، وسـيحل محلـه رجـل آخـر في الحـال. كان الرجـال مـن ذلـك النـوع مألوفـين بالنسـبة إليَّ، إذ كانـوا يتجوَّلـون في أرجـاء مونبلييـه أيضًـا، تحـت بقايـا الأشـجار ذات الألـوان المشـتعلة في الطرقـات العامـة. كانـوا مـن شـمال إفريقيـا، يرتـدون ملابـس رسـمية مـن سراويـل وسـترات مكويـة لا تتـماشى مـع بعضهـا، وتظهـر عـلى أحذيتهـم ثنيـات عنـد مشـط القـدم، لكنهـم عملـوا عـلى تلميعهـا حتـى صـارت تـبرق. في أيـام الأحـد، اعتـاد الفرنسـيون الانسـحاب إلى فيلاتهـم وعائلاتهـم، تاركـين الشـوارع للأجانـب الذيـن لم يكـن لديهـم مـكان يذهبـون إليـه. وإذا أجبـت بـأدبٍ عـلى أحـد هـؤلاء الرجـال، فسـوف يقـترب في جلسـته حتـى يلامـس فخـذه فخـذي.

في مونبلييـه، كان يُقـام سـوقٌ للسـلع المسـتعمَلة كل يـوم أحـد، تحـت قنطـرة الميـاه التـي تعـود إلى القـرن الثامـن عـشر، والتـي لا تـزال تـزوِّد نوافـير المدينـة بالميـاه. تفحَّصـت هنـاك بعـض الملابـس المبقعـة بالصـدأ، واللوحــات الزيتيــة المعتمــة مــن أثــر الورنيــش، والأطبــاق الخزفيــة المشروخـة. سُـعِّرَت معظـم هـذه النفايـات كـما لـو أنهـا كنـوز، لكننـي ظللـت أعـود إلى المـكان. كانـت مـدام بيسـيه قـد أعارتنـي مـلاءات سريـر

ورثتها عن جدتها، لتوفر عليَّ تكلفة شراء ملاءات جديدة. وكانت الملاءات ثقيلة مطرزة بأحرف الاسم الأولى، وتصلح أن تكون كفنًا. استغرق الأمر ساعتين حتى تجف. كنت أضع العملة المعدنية تلو الأخرى في الآلة في المغسلة، ثم أتوجه إلى السوق على الجهة المقابلة من الطريق.

في بعض الأحيان كان موكب من الشاحنات ذات اللون الأزرق الداكن يعبر مسرعًا نحو قنطرة المياه. كان رجال الشرطة يحتشدون، ويتمركزون حول السوق ويشرعون في فحص أوراق الناس. ودائمًا ما كانوا يطلبون رؤية بطاقة هويتي، لكن بمجرد إظهار جواز سفري، كانوا يلوحون لي بالانصراف. لم يكن الأستراليون "مو-ثيرين للاهتي-مام". دائمًا كان الأمر ينتهي بنفس الطريقة، وهم يقتادون في الشاحنات مجموعة من الرجال من شمال إفريقيا. بدأت أفهم السبب في كونهم يبذلون هذا الجهد للظهور بمظهرٍ محترم، إذ يمكن أن يتغاضى الفرنسيون عن الكثير من الأشياء إذا كنت قد أوليت حذاءك ما يكفي من الاهتمام.

في مقهى بالقرب من شقتي، هناك صورة لميناء ملونة باليد معلقة على الحائط، كُتِب عليها "الجزائر، 1938". لاحظني المالك وأنا أتأمَّلها، وقال: "كان الخليج فائق الزرقة"، ثم أضاف: "أولئك العرب الملاعين!"، وواصل تلميع الزجاج. فكرت فيه في الحديقة في نيم، وفكرت في الشاحنات. ثم سَبَبْتُ الرجل الذي أصدر صفيرًا عندما توقفت لألقي نظرة على تمثال. كان لنا نفس لون البشرة، أنا وأولئك القادمين من شمال إفريقيا، وكان لهذا أهمية كبيرة، لكنها لم تكن كبيرة بما يكفي.

قالت لي ديب: "أحتفظ بدبوس قبعة كبير في متناول يدي، وإذا حاول أحدهم الإقدام على أي شيء، أوخزه به". عرضت ديب شراء دبوس لي، إذ كانت مدينة لي، لأنها استأجرت غرفة مدام بيسيه. عندما سألتها كيف تنتوي التحرك بعد توقف الحافلات عن العمل، قالت

ديب إنها استأجرت دراجة بخارية. فاجأتني كفاءتها وحسن تقديرها. تخيلتها وهي تسير بها مسرعة عبر الطرقات، والهواء يلفح وجهها الجميل المائل إلى الزرقة. لم أكن أجيد التعامل مع هذه الأشياء. عندما هاجرت أسرتي بدا الأمر كما لو أننا انقلبنا رأسًا على عقب، وبات للأحداث ومعانيها منظورٌ جديدٌ بالنسبة إلينا. مرّت سبع سنوات، لكن ثلاثتنا كنا لا نزال نحاول التعامل مع ذلك.

***

ظلّت الدراسة بمنزلة الدعامة التي استندت إليها لأطول فترة من الوقت يمكنني أن أتذكرها، والآن بعد تخرجي، كان لا بد من إزالة تلك الدعامة، وبدا كل شيء كما لو أنه ترتيب مؤقت. شعرت بطنين في أذني. نظرًا إلى كوني شابة وذكية ومفعمة بالطموح الذي يفتقر إلى التركيز، كنت أميل إلى الشعور بالهلع. كانت حياتي عبارة عن جسرٍ معلّق فوق وادٍ، وأنا أتحرك فوقه بسرعة، بينما ينهار من خلفي مثل مشهدٍ في فيلمٍ قديمٍ. يكمن الأمان في إبقاء عيني مثبتة على وجهتي، ولكن أين تكون هذه الوجهة؟ حاولت الإيمان بأنني أطالع منظورًا غير منقطعٍ من الاحتمالات. أردت الشعور بالاسترخاء، وأن أثِب وأتلوّى، رغبتُ في خوض المغامرة، وأن أزهر، لكن دائمًا ما كان يعود لي صوتٌ هامسٌ يسأل: ماذا سيحل بك؟ تعطّلتُ عند إشارة المرور، أنتظر علامة ما، أو أنتظر رسالة. قد تزودني الرسالة بتوجيهاتٍ، أو قد لا تفعل. بدت أيامي معلقة فحسب، مجرد وقتٍ خارج حدود الزمن، من دون ماضٍ ولا مستقبل، بل حاضر متواصل فقط.

وقد زاد كل هذا تعقيدًا لسببين، أولهما الشعور بالوحدة. كنت أمسك بيدي في الفراش ليلًا، لأبعث في نفسي الارتياح عند الخلود إلى النوم. إن العيش بمفردي يعني بلوغ سن الرشد، لكنني افتقدت

الأصوات التي تتعالى في المنزل الذي نتشارك فيه مع آخرين: الأصوات والموسيقى، والعطسات الهائلة، والأقدام التي تطرق درجات السلم خلال نزولها. كانت الوحدة أمرًا مخزيًا، وما يجب القيام به هو تحويلها إلى عزلة، لكن كيف؟ بدت العزلة شيئًا ساميًا له طابعٌ أدبي، مملكة الرجال والنساء الاستثنائيات. كتبت رسالتي الجامعية عن إحدى هؤلاء النساء. كانت سيمون دي بوفوار تمثِّل الفلسفة، وباريس، والسياسة، والتقدُّم. أردت أن أكون هي، وأردت حياتها. كانت امرأة جريئة وذكية، وعندما كانت في سنٍّ لا يكبرني بكثيرٍ، قبلت دي بوفوار وظيفة للتدريس في مارسيليا. لم يكن لديها أصدقاء هناك، وقضت عطلات نهاية الأسبوع تتجوَّل في التلال الصخرية وراء المدينة. عندما قال زملاؤها إنها تعرِّض نفسها لخطر الاغتصاب، رفضت تحذيراتهم ووصفَتْها بأنها "مجرد هواجس عوانس". كتبت: "هناك أشياء معينة، مثل الحوادث أو الأمراض الخطيرة أو الاغتصاب، لا يمكن ببساطة أن تحدث لي".

كان ممشى دو بيرو يمتد من أحد أطراف القلب التاريخي للمدينة. كثيرًا ما عدت إلى تلك الساحة، حيث ذكَّرتني بسماء أستراليا الشاسعة، وكانت هناك مناظر مطلَّة على المدينة والتلال المنحدرة في الأفق. حملني السير لمسافاتٍ طويلة، خطوة بخطوة، إلى ضواحي مونبلييه، لكن التلال ظلَّت بعيدة. مررتُ بفيلات يلفُّها الصمت، وقاومت الرغبة في التحدث إلى شخص ما. عاد أدالبرت إلى متجر التسجيلات في برلين الغربية حيث كان يعمل، مما ترك ديتر أيضًا بمفرده، لكن ديتر كان يدرس اللغويات في الجامعة، وكان لديه أصدقاء من زملائه الطلاب، كما ذكر ناديًا للمثليين أيضًا. لم يكن في حاجة إلى أي رفقة، ومنعني الخجل الزائد من طلب رفقته. كانت مينا قد أعطتني عنوانها، لكن ساورني القلق بشأن التطفل على حياة الأزواج. فكرت في تلك العلاقة بوصفها شيئًا رسميًا وثابتًا وجليلًا. لم تكن التجربة التي خضتها تشبه

أي شيء من ذلك القبيل، لكنني اعتقدت أن الآخرين يتمتعون بموهبة أكثر، أو شكوك أقل.

أما الشيء الآخر الذي شغل بالي فهو اكتشاف طرأ عليَّ: كانت شقتي باردة، إذ إن الشارع الذي أسكن به ضيقٌ مرصوفٌ بالأحجار، والمبنى المقابل لي أعلى من بنايتي، بحيث تصير نوافذي مظلمة ما بين الساعة الرابعة بعد الظهر حتى الساعة السابعة والنصف من الصباح التالي. تصرَّفت الشمس كزائرٍ خجولٍ، يدخل غرفتي بترددٍ ويهرب بسرعة. كانت هناك مدفأة، تعمل بواسطة أسطوانة غاز زرقاء ضخمة وَعَدَ السيد لافال باستبدالها عندما تنفد. نصب المدفأة في المدخل بين الغرفتين، قائلًا إنها ستدفئ الشقة كلها. بعد عشرة أيام من تدفئة الشقة بأكملها، فرغت الأسطوانة، وحاولت الاتصال بالسيد لافال. عاودتُ الذهاب مرارًا وتكرارًا إلى كابينة الهاتف، حتى أجاب أخيرًا قائلًا إنه سيستبدل الأسطوانة في نهاية الشهر.

"قلتَ إنك سوف تستبدلها عندما تنفد".

"من المفترض أن تدوم لمدة شهر".

"لم يحدث ذلك".

"فلتشتري واحدة أخرى".

"من أين؟ وكيف سأوصلها إلى شقتي؟ وعلى أي حال، اتفقنا على أنك...".

أصدر أحد تلك الأصوات الفرنسية المعبِّرة كما لو أنه يهز كتفيه لفظيًّا، ثم أنهى المكالمة.

***



عندما كان التعب يصيبني من كثرة التجوال، كنت أذهب إلى أحد المقاهي المتواضعة كي أنعم بالدفء. كان من ذلك النوع من الأماكن الذي ينحني فيه شيوخ عجائز فوق مشروباتهم عند طاولة يغطيها سطحٌ من الزنك. انسابت المآسي الصغيرة المزمنة من الزبائن: لم تكن مآسٍ ملحمية، بل ذلك التآكل اليومي الذي يتسبَّب فيه التقدُّم في السن، وعدم امتلاك ما يكفي من المال أبدًا. كانت هناك امرأة ذات نظرٍ ضعيفٍ موجودة هناك على الدوام، تجلس في ركنٍ وهي تحتضن إلى صدرها كلبَها الذي التفَّ كقطعة من الكرواسون تكسوها الفراء. تعلَّمتُ في ذلك المقهى شرب الشاي من دون حليب، إذ كان الحليب يُقدَّم في أبريق من الفولاذ المقاوم للصدأ يكفي كوبًا واحدًا فحسب، في حين كان الماء الساخن مجانيًّا وغير محدودٍ. كان المرحاض الذي يتطلَّب من المرء جلوس القرفصاء بشعًا، لكن مقابل ثمن كوب من الشاي، كنت أجلس وحدي عدة ساعات لوضع خطط الدروس وكتابة الرسائل المفعمة بالحنين إلى الوطن والقراءة. لم أتعرض هناك أبدًا لتلك النظرة الخاطفة: النظرة العاجلة من قمة الرأس إلى أخمص القدمين التي يستوعب بها الفرنسيون كل تفصيلة في هيئة الشخص من حذائه حتى شعره. في المقاهي الراقية في ساحة البيضة، كانت تلك النظرة الخاطفة تقيِّمني وتصنفني وترفضني في الوقت الذي تستغرقه طرفة عين.

مع امتداد شهر أكتوبر، احتلَّ البرد شقتي كقوة خبيثة. كانت الجدران باردة كالثلج، وقرون بأكملها من الشتاء حبيسة داخل الحجر. لتمضية الأمسيات الطويلة، كنت أخلد إلى الفراش بكامل ملابسي، وأقرأ. ضغط البرد على محجري عيني وأصابهما بالألم، وبدت ملاءاتي الرائعة رطبة على الدوام. كنت أخلد إلى النوم داخل كيس النوم خاصتي، وأستيقظ لأجد أنفاسي متكثفة في الهواء كالضباب. وعندما فكرت في الطقس القادم، أدركت أنه سيتعيَّن عليَّ الانتقال

إلى سكن آخر، لكن إلى أين سأذهب؟ فلن يخلي أحدٌ شقة مع قدوم الشتاء. علقت في ذهني صورة غرفة مدام بيسيه ذات التدفئة المركزية. سيكون الأمر أشبه بالعيش داخل قفاز. في كل مرة كنت أنظف فيها أسناني في الحوض حيث أغسل أطباقي -وهي وظيفة مزدوجة أثارت اشمئزازي- كنتُ أواجه امرأة رونيس العارية ونافذتها المفتوحة. كانت الصورة لفصل الصيف، لماذا لم ألحظ ذلك؟

كان هناك زوجان يحملان لقب بيرتي يعيشان في الطابق الأرضي من بنايتي. كلما مررت ببابهما، سمعت صوت ضحكاتهما، وإذا حدث وأن صادفتهما في الردهة، كانا يرحبان بي بابتهاجٍ، صائحين "بونجور!" بابتساماتٍ رائعة، وهما يهرعان إلى الخارج أو يغلقان بابهما في وجهي. أما الشقة الواقعة أسفل مني فلم تكن مأهولة، في انتظار أن يوليها السيد لافال العناية، وكان المستأجر في الطابق الكائن أسفلها يعيش بمفرده، وقد عرفت اسمه أيضًا من صندوق البريد: رينالدي.

ذات مساء بينما كنت أصعد الدرج، كان بابه مفتوحًا، ورينالدي يقف في الداخل. علّقنا على الطقس العاصف، وسألني من أين أتيت. قال: "أستراليا! هذا بعيدٌ للغاية!"، فأخبرته أن رحلتي من سيدني إلى باريس استغرقت ثماني وعشرين ساعة. لوَّح رينالدي بيده التي بلون لحم العجل، وبدت عليه الصدمة على نحو مُرضٍ. لا بد أنني أردت إبلاغه بأنني معتادة مثل هذا السفر البطولي، لأنني وجدت نفسي أخبره أين وُلدت، وسمعت صوتي الجاد يضيف قائلًا بنبرة المعلمة: "هناك أشخاص من جميع أنحاء العالم في أستراليا".

قال رينالدي: "بلد القمامة"، وبدت نبرته لطيفة، إذ كان يسجل في ذهنه فحسب حقيقة أن أستراليا بمنزلة سلة قمامة للبشر. ابتسم وهو يتحدث، وقال إن علينا تناول شراب معًا في وقتٍ ما، ثم صعدت أنا الدرج.

بعد ذلك، بدا أنني أجد باب رينالدي مفتوحًا كلما مررت به في نهاية اليوم، والهواء الدافئ يتدفق خارجًا منه كدعوة إلى الدخول. تسلل ضوء من أسفل باب غرفة جلوسه، لكن الردهة بدت مظلمة دائمًا. وكان هناك معطفٌ طويلٌ معلقٌ وسط الظلال، كنت أنساه وبعد ذلك، عندما أراه من طرف عيني، أعتقد أن شخصًا ما يقف هناك.

***

بعد أيامٍ، أفسح المطر المجال لسماء حادة الزرقة. كانت الريح تصفر عند نوافذي عندما استيقظت، لكن السماء والشمس صاحتا معلنتين أن هذا يوم من تلك الأيام الرائعة التي يفوز فيها المرء بكل شيء. نزلت الدرج مبتهجة وخطوت إلى الشارع، فصفعتني ريح الميسترال. انسالت الدموع من عيني على وجهي وأنا أسرع عبر الساحات، وخلال الشوارع الضيقة التي تعصف بها الريح. خطر ببالي تمثالٌ صغيرٌ في مشهدٍ للميلاد من القرن الثامن عشر في المتحف المحلي: راعي غنم يترنَّح في عباءة طيَّرتها الرياح، ويده تقبض على قبعته.

في السوق، تخلَّت ساندرين عن مظهر فتاة الروك أند رول، وارتدت معطفًا مبطنًا ووشاحًا غطَّت به فمها، وقبعة صغيرة من الصوف. أخبرتني أن رياح الميسترال سوف تستمر ثلاثة أيام، أو ربما ستة أو تسعة، إذ كان العدد دائمًا من مضاعفات الرقم ثلاثة. كما كانت هناك توقعات بتساقط الثلوج في الأسبوع التالي، خلال عيد جميع القديسين. قلت إنني سأقضي عطلة نهاية الأسبوع في باريس، فكان رأي ساندرين أن باريس مكان قذر. أشارت بإصبعها المكسوَّة بالصوف إلى ذيل حصانها، وقالت: "علقت هناك ذات مرة لمدة شهر

كامل، وكان التلوث سيئًا للغاية، حتى إنني اضطررت إلى غسل شعري كل أسبوع".

اكتفى رينالدي بارتداء معطفٍ واقٍ من المطر فحسب، ووقف متربصًا بالقرب من صناديق البريد عند عودتي. قدمت له التحية، وكنت سأواصل طريقي وأصعد الدرج، لكنه وقف أمامي. تعالت ضحكات مرحة صاخبة خلف باب آل بيرتي، كما لو أن في وسعهما رؤيتي هناك، مثقلة بما اشتريته من السوق، ورينالدي يعترض طريقي.

كانت هناك خزانة في قاعدة العمود الذي يعلو مرتفعًا من الردهة، وكان ذلك هو المكان الذي تُحفَظ فيه صناديق القمامة، ويخرجها آل بيرتي لتُجمَع ليلًا. وضع رينالدي كيسًا بلاستيكيًا منتفخًا في أحد الصناديق، وأشار إلى الصخور المرتفعة التي تكسو العمود في الأعلى: "يمكن للمرء أن يتخيَّل امرأة دُفنت في العمود هناك وهي لا تزال على قيد الحياة، على سبيل العقاب، أو أُلقي بها من فوق الدرج، وبُني هذا العمود لإخفاء الجثة. كانت الأشياء التي من هذا القبيل تحدث بالفعل، ولا تزال القلة المختارة يستشعرون أصداء ذلك".

ابتسمَ حينها، مظهرًا أسنانًا صغيرة بلون الأوراق القديمة، وقال: "أنت تفهمين علم التنجيم، بالطبع". بتنا الآن على أرضٍ مألوفة، إذ كان علم التنجيم من الموضوعات التي ثارت حولي في أستراليا، ضمن موضوعات أخرى مثل الكريكيت والبوذية واليوجا والعدس. أعلن رينالدي: "أنا من برج الحمل، أما أنت، يا آنسة، فمن برج العذراء بكل تأكيدٍ، النار والأرض: قد يبدو أن هناك القليل من القواسم المشتركة بيننا، لكن هناك الكثير مما يمكن استكشافه".

تقدَّمتُ نحو الدرج، وتنحَّى جانبًا ليسمح لي بالمرور، لكنه تبعني وهو يهذر بالهراء عن القدر: "ذلك الذي يكتنفه الغموض، لكنه مؤكد، قد تعتقدين أنكِ أفلتِ من قدرك، لكنه سيكون في انتظارك". على

بسطة الدرج أمام شقته، قال إنه لم ينسَ أننا اتفقنا على تناول شراب معًا، وأضاف: "مساء الثلاثاء، إذن". كان هذا أسلوب حديثه، بعبارات التوكيد. أجبته قائلة إنه ليس لديَّ وقت فراغ خلال أي أمسية ذلك الأسبوع، ولإحباط أي اقتراح للقاء خلال عطلة نهاية الأسبوع الطويلة، أضفت أنني سوف أسافر خلال عيد جميع القديسين.

قال رينالدي: "جميعنا في رحلة، لكن ما هي الوجهة؟ كما يقول هاملت..."، ثم تحوَّل إلى اللغة الإنجليزية وهو يكمل قائلًا: "تلك هي المسألة".

***

عند عودتي من باريس، وعندما دخل القطار مونبلييه، فكرت في الرحلة التي قطعتها في الاتجاه المعاكس، عندما أنزلني القطار في مدينة من الضوء الفضي، والضباب، والسماء البيضاء المتجمدة: بدا الأمر كما لو أنني وصلت داخل لؤلؤة، في حين بدت مونبلييه أشبه بحجر زفير أزرق لامع وبارد. ما إن فتحت المتاجر أبوابها حتى اشتريت مدفأة كهربائية ذات قضيبين. ستتكلف الكثير لتشغيلها، لكن ماذا يهمني في الأمر؟ ستذهب الفاتورة إلى السيد لافال، وقد بدا ذلك منصفًا بما فيه الكفاية. تلك الليلة، ضبطتُ المدفأة على حرارة منخفضة، ووصلتها بالكهرباء، ونمتُ في هناء ودفء، حتى أيقظتني رائحة بلاستيكية خفيفة قرب الفجر. كان قابس سلك المدفأة ينصهر في المقبس الكهربائي في الحائط. تذكرت بعد أن فات الأوان أن السيد لافال أخبرني بكل فخرٍ أنه تولَّى بنفسه عمل جميع التوصيلات الكهربائية في المبنى.

في صباح أحد الأيام بعد ذلك بقليلٍ، لمست الجدار المكسو بالبلاط في أثناء الاستحمام، وسرت صدمة كهربائية في ذراعي. ذهبت

هـذه المـرة إلى مقهـى للاتصـال بـه، كي أنعـم بالـدفء في أثنـاء انتظـاري. أجـاب السـيد لافـال الهاتـف أخـيراً، وكان صـوتي مشـوبًا بنـبرة الانتصـار، إذ إن الشـقة غـير آمنـة، وسـيضطر إلى التـصرف! كـررت قائلـة: "الـدش غـير آمـن".

تحـدَّث بصـبرٍ وتـأني رجـلٍ فرنـسي طُلِـب منـه توضيـح أمـر منطقـي لشـخصٍ أجنبـي: "في هـذه الحالـة، يـا آنسـة، لا تسـتحمي".

في طريـق عـودتي إلى المنـزل، مـررتُ بصالـة للشـاي، فنقـر شـخصٌ مـا عـلى النافـذة، ولاحظـت أن إحـدى غدائـر مينـا مربوطـة بجـورب. جلسـتُ إلى طاولتهـا، وبدأنـا نخـبر بعضنـا عـلى الفـور عـن حياتنـا، كـما لـو كنَّـا قـد خططنـا لذلـك. كان والـد مينـا يهوديًّـا مـن هامبـورج، رفـض والـده مغـادرة ألمانيـا، حتـى بعـد ليلـة البلـور، وصمَّـم عـلى أن هتلـر يبـدو تمامًـا مثـل عامـل إسـطبل متبلـد العقـل وظَّفـه والـداه، ولا يمكـن أن يشـكِّل أي تهديـدٍ حقيقـي. لـذا تولَّـت جـدة مينـا ترتيـب أمـر تأشـيرات دخـول بريطانيـا لنفسـها ولأطفالهـا، بينـما اختنـق جـد مينـا في عربـة للمـواشي في طريقـه إلى إحـدى معسـكرات الاعتقـال.

عندمـا علمـت مينـا أن والـدة والـدتي كانـت أرمنيـة، قالـت: "لقـد عانينـا نحـن الاثنـان إذن الإبـادة الجماعيـة في تاريخنـا". لم أقـل إن أجـدادي الأرمـن غـادروا تركيـا قبـل عـام 1915، لأن مـا أدهشـني لم يكـن كلمـة "إبـادة جماعيـة" بـل كلمـة "تاريـخ". لـو أن مينـا سـألت عـن سـبب مغـادرة أسـلاف والـدتي لموطنهـم حتـى انتهـى بهـم المطـاف في آسـيا، لأجبتهـا قائلـة "الأمنيـات والحـظ". عـلى نفـس المنـوال، لم أفكـر في القـوى التـي أخـذت عائلتـي إلى أسـتراليا بوصفهـا متعلقـة بالتاريـخ ولا حتـى السياسـة، بـل كان هـذا مسـار حياتنـا فحسـب. ربمـا كان السـبب وراء ذلـك هـو أن أيًّـا منَّـا لم يمـت في تلـك الاضطرابـات، لكـن السـبب الأرجـح هـو أننـي لم أقـرأ عنهـا في الروايـات، عـلى عكـس الهولوكوسـت

والحرب الأهلية الإسبانية. مثّلت هذه النقطة البداية التي دفعتني إلى التفكير في السبب الذي يجعل بعض الناس لديهم تاريخ، والبعض الآخر لديهم حياة.

علمت شيئًا آخر في ذلك اليوم، وهو أن مينا أصيبت بكسرٍ في ذراعها في لندن، قبل ذلك بأشهرٍ. كانت تفكر في أخذ إجازة من مدرسة الفنون لمدة عام للعيش مع نيك في فرنسا، وساعدها الحادث على حسم القرار. أتيا بالسيارة في بداية شهر يونيو، وعرجا نحو الجنوب. قالت مينا بالفرنسية: "كان ذلك موسم الفواكه الحمراء". لم تكن تتحدث الفرنسية كثيرًا، لكنها كانت فجأة تتفوّه بمثل تلك العبارة، "les fruits rouges". "اِقْتَتْنَا على الفراولة والتوت والكرز. كانت ثمار الفراولة ضخمة، إلى درجة أننا تناوبنا قضمها". حياة الأزواج... تسرَّب الشعور بالوحدة داخل كل الشقوق، كما لو أنني ابتلعت حليبًا أسود. كانت عينا مينا صغيرتين مثل اللوز، وبلون اللوز أيضًا. تفحّصتني بنظرتها، وسألتني بصوتها الناعم المخيف: "لماذا أنت حزينة؟"، لم أكن سأعترف بأنني أشعر بالوحدة، لذا أخبرتها عن شقتي بدلًا من ذلك.

قالت مينا: "مالك شقتك فلاح، والفلاحون جشعون، هذه حقيقة عالمية، لم يكن ماركس يكنُّ لهم الاحترام". قالت إن القانون الفرنسي يتطلَّب توفير التدفئة في العقارات المؤجرة، مما شكَّل اكتشافًا جديدًا بالنسبة إليَّ، بعد أن اعتدت ترتيبات الإيجار الرديئة في بلد القمامة. وعندما سمعت أنني دفعت الإيجار نقدًا، قالت مينا: "ليلي، سوف تتصلين بذلك الوغد قبل نهاية اليوم، وستخبرينه أنه مدانٌ بالتهرب من الضرائب، كمجرد بداية. أخبريه أنه يخالف قوانين متعددة، وأنك تنوين إبلاغ السلطات عنه. قولي "السلطات"، فلا شيء يثير إعجاب الفرنسيين مثل السلطة، تذكري كم كانوا متعاونين رائعين مع النازيين".

أبـدى السـيد لافـال مقاومـة في بـادئ الأمـر، لذلك اسـتعرت صـوت مينا الهـادئ والمخيـف، وقلـت: "لقـد دُعيـت إلى هـذا البلـد، وأعـرف أشـخاصًا في مناصـب سـلطة". اتفقنـا بعـد فـترة أن السـيد لافـال سـيزوِّدني بثـلاث أسـطوانات مـن الغـاز في الشـهر. أوصلهـا في اليـوم التـالي، وحملهـا لاهثًا إلى أعـلى الـدرج، الواحـدة تلـو الأخـرى. بعـد الأسـطوانة الثالثـة، كان في حاجـة إلى الجلـوس. صـوَّب نظـره إلى زجاجـة النبيـذ عـلى مائـدتي، لكنـه قبِـل كأسًـا مـن المـاء. قـال: "هـذا ليـس أمـرًا طبيعيًّـا"، وكرَّرهـا عـدة مـرات. لم يكـن مـن الواضـح مـا إذا كان يشـير إلى الميـاه أو الصفقـة التـي عقدناهـا. عـلى أي حـالٍ، لم يعُـد مرحًـا، وأسـفت لذلـك. كانـت مينـا مخطئـة: لم يكـن السـيد لافـال وغـدًا، بـل مجـرد محتـالٍ قديـمٍ تـمَّ التغلُّـب عليـه بـذكاء. كان المسـؤولون في السـلطة سيدهسـوننا بسـعادة، وعـلى الرغـم مـن أن تلـك النقطـة كانـت ذات أهميـة إلى حـدٍّ مـا، لكنهـا لم تكـن كافيـة.

أحـضر لي السـيد لافـال شـيئًا آخـر في ذلـك اليـوم: بسـاطًا مطاطيًّـا. أكـد لي أنـه لـن تكـون هنـاك مشـكلة إذا وقفـت عليـه في أثنـاء الاسـتحمام، لـذا فعلـت ذلـك، كـما حرصـتُ جيـدًا عـلى عـدم لمـس البـلاط، وبهـذا تجنَّبـت التعـرُّض للصعـق بالكهربـاء في فرنسـا.

***

خــلال الليــل، كانــت المصابيــح الكهربائيــة المعلقــة عــلى سلاســل تــضيء شــارع مينــا ونيــك. في ذلــك الجــزء مــن القلــب التاريخــي، أنشــأ مهندســو عــصر التنويــر، الذيــن يحملــون في أذهانهــم صــورًا رســمية جميلــة، قصــورًا مــن الأحجــار الشــبيهة بالبســكويت، كانــت في الســابق منــازل للأرســتقراطيين، وأصبحــت الآن بمنزلــة مكاتــب للمحامــين والأطبــاء المتخصصــين، أو شــققًا فخمــة للأثريــاء، لكــن أبوابهــا المطلــة عــلى الشــارع، والتــي يســمح ارتفاعهــا وعرضهــا بدخــول العربــات، بقيــت مغلقــة. أبلغنــي

كتيبٌ من مكتب السياحة أنه يمكن العثور خلف تلك الأبواب المهيبة على سلالم وساحات مصنَّفة بوصفها كنوزًا وطنية. وفي بعض الأحيان، كان أحدها ينفتح، مما يسمح بإلقاء نظرة خاطفة على درابزين مزخرف أو شجرة مزروعة في أصيص. أخبرت نفسي باكتئاب أنني لن أصل أبدًا في فرنسا إلى ما هو أكثر من مجرد واجهتها الرائعة.

لم يكن منزل مينا ونيك قصرًا، ولكنه كان مرتفعًا ومتين البنيان، وله سلَّمٌ مرتفعٌ ذو درجات ضيقة. لا بد أن شقتهما، التي تحتل مساحة على السلم بين طابقين، كانت مستغلة في السابق للتخزين أو إيواء الخدم. بدا الباب الأمامي، المثبت على نفس مستوى سطح جدار السلم، كما لو أنه ينفتح على خزانة، لكنه كان ينفتح كاشفًا عن سلسلة من أربع غرف. ساعدت أصداء عالم نارنيا هذه على رفع الشقة في الحال إلى مستوى أعلى من مستوى الحياة اليومية وما هو مألوف، لكنها لم تكلفهم أكثر مما كلَّفتني شقتي. وعندما ناولتني مينا كأسًا من النبيذ في زيارتي الأولى، وجدت نفسي أتجرعُ الحسد أيضًا مع النبيذ. أمعنت النظر إلى كل شيء: البطاقات البريدية ذات الطابع الفني المسنودة فوق رفٍّ، وماكينة الخياطة المحمولة، ومنفضة سجائر جيتان من القصدير الأزرق. بدت منفضة السجائر نظيفة تمامًا، وبينما كنَّا نتحدث، نفضت مينا سيجارتها على حافة مزهرية مليئة بالورود.

عند حلول الظلام وإغلاق المصاريع، ملأت المصابيح الغرف بالرقة والغموض. اصطفت الغرف بحيث يمرُّ الناس من خلالها في خطٍّ مستقيمٍ، مما جعل أي حركة عارضة تبدو كما لو أنها رسمية. وكانت الأسقف منخفضة، مما اضطرَّ نيك إلى أن يحني رأسه عند مروره من أحد الأبواب، أو تحت العارضة التي تمرُّ عبر غرفة المعيشة. كان لديه شعرٌ بني كثيف، من ذلك النوع الذي يوصف بأنه مشعث. تكدَّست كتبه بجوار المقاعد، ومعظمها ذات أغلفة ورقية من القطع الكبير، وأخبرني أنه لا يقرأ إلَّا لكتَّاب فرنسيين في أثناء وجوده في

فرنسا. كنت قد استعرت رواية "غرفة النساء" من المكتبة الأمريكية، وشعرت بالخجل.

كانت هناك مطرقة باب حديدية تزين الباب المطل على الشارع، على شكل يد امرأة ترتدي خاتم زواج. وكان الباب يُبقى مغلقًا، ولم يكن هناك جرسٌ للشقة السرية، لذا كان يتعيَّن على الزوار الوقوف في الشارع والصياح. طلبت مني مينا أن أصفر لحنَ نشيد الأممية في زيارتي القادمة حتى تعرف أنه أنا. لم أكن أعرف اللحن، لذا وقفت هي وأدَّته، وكذلك فعل نيك. ارتدت مينا تنورة قصيرة من الفينيل الأزرق، وقميصًا ضيقًا بنقشة جلد الفهد، بينما لم يبدِّل نيك البدلة المستعملة التي يرتديها للذهاب إلى العمل. وقفا جنبًا إلى جنبٍ، وفردا أكتافهما، وعلا صوتهما بالغناء:

هذا هو النضال الأخير

دعونا نجتمع معًا، وغدًا

ستصير الأممية

هي الجنس البشري!

***

كان عقل مينا يعمل من خلال الاستعارات، ويكتشف الروابط الخفية بين الأشياء. في سوق السلع المستعملة، أشارت إلى سلة مهملات ذات حافة، وقالت: "هذه قبعة صيفية مثالية". انقضَّت على فستان بناتي طويل، أزرق اللون وبه أغصان صفراء، مع كشكشة من الأمام. في المرة التالية التي رأيت فيها الفستان، كانت مينا قد شقَّت الكشكشة، وزادت من حجم فتحة العنق كاشفة عن القميص الأخضر الليموني الذي ترتديه أسفل الفستان. أعلنت قائلة: "هدفي هو تقبيح

الملابـس". إذا حـدث وأن أخطـأتُ وظهـرتُ مرتديـة المخمـل أو شـيئًا بنقشـة البيـزلي، كانـت مينـا تتظاهـر بالتقيـؤ. "لقـد ولَّـت الستينيات! لا يمكـن إلَّا لمـن يتمتـع بجمالـك فحسـب، ارتـداء مثـل هـذه الملابـس الرثـة والإفـلات بالأمـر". أبـدت إعجابهـا بسـترة ضخمـة تتـدلى أكمامهـا فـوق يـدي، لكنهـا قالـت إنـه سـيكون مـن الأفضـل لـو كان بهـا ثقـوب.

كان أصحـاب النظـرات الخاطفـة يصابـون بالجنـون حـول مينـا، إذ كانـت تثـير مزيجًـا خاصًّـا مـن الرعـب والشـفقة في صـدور الفرنسـيين. أرادوا إنقاذهـا، لكـن كيـف؟ بـدا الأمـر كـما لـو أنهـم يشـاهدون متسـلقَ جبـالٍ وهـو يخطـو عـن عمـدٍ مـن فـوق قمـة أحـد جبـال الألـب: كان الأمـر مأسـاويًّا، لكـن لم يكـن هنـاك مـا يمكـن القيـام بـه. كلـما تسـبَّب مـرأى مينـا في إثـارة تلـك النظـرة المشـوبة بالحـيرة والرعـب، كنَّـا نصيـح: "جـول!"، ونلعـق إصبعًـا ثـم نرسـم علامـة في الهـواء.

كنَّـا في سـوق السـلع المسـتعملة ذات يـومٍ، عندمـا انقـضَّ رجـال الشرطـة. في البدايـة، اعتقلـوا امـرأة مـن الغجـر وطفلتيهـا، وجميعهـن يرتديـن تنانـير طويلـة. بعـد ذلـك، انتقلـوا إلى أولئـك الذيـن مـن شـمال إفريقيـا، وكـما هـو معتـاد، طلبـوا منـي أوراقـي بينـما كنـت أغـادر المـكان، في حـين لم يطلبـوا ذلـك مـن مينـا، التـي حدقـت بغضـبٍ إلى الشرطـي الـذي أوقفنـي ودفعـت جـواز سـفرها في وجهـه.

قالـت مينـا إن مونبلييـه ليـس بهـا أي صناعـات، لذلـك انتهـى الأمـر بالرجـال القادمـين مـن شـمال إفريقيـا إلى العمـل في البنـاء أو الطـرق. كان الكثـير منهـم مـن الحركيـين، الجزائريـين الذيـن خدمـوا كمسـاعدين في الجيـش الفرنـسي في أثنـاء الكفـاح مـن أجـل الاسـتقلال، وفـرُّوا بعـد ذلـك مـن الجزائـر لتجنُّـب الأعـمال الانتقاميـة، لكـن فرنسـا لم يعُـد لهـا حاجـة بهـم الآن. وكان برنامـج لم الشـمل، الـذي أُنشـئ بعـد تأخـيرات طويلـة، قـد أتـاح لعائلاتهـم الانضـمام إليهـم أخـيرًا، لكـن تنفيـذه كان بطيئًـا.

لقد حصلتُ على ليسانس في اللغة الفرنسية مع مرتبة الشرف، لكن تلك المعلومة كانت من ذلك النوع من الأشياء الذي تعرفه مينا. ذات مرة، عندما كنت أطلُّ على المدينة من ممشى دو بيرو، لفتت انتباهي إلى مجموعة من المباني المنيعة لها نوافذ صغيرة ذات قضبان، وكان ذلك هو السجن حيث يُحتجز السجناء في الحبس الاحتياطي، وكان معروفًا لدى السكان المحليين باسم "القلعة".

أخبرت مينا أن شهادتي تضمنت مقررًا إلزاميًّا في التاريخ الفرنسي. "كان اسم المادة هو الحضارة، بدأت الحضارة مع ملك الشمس، وانتهت في مايو عام 1968. لم يرد ذكر حرب الجزائر في المقرر، إذ كان يمكن العثور على كل ما نحتاج إلى معرفته عن الجزائر في أعمال كامو".

توقفنا أمام محل حلويات لتفحص معروضاته. مدَّت مينا يدها، ورفعت غرَّتي إلى الأعلى. عبستْ وهي تنظر إلى انعكاسي في النافذة الزجاجية، وقالت: " لماذا تخافين من إظهار وجهك؟". أضفى الانعكاس المشوَّش في الزجاج على سترتها الخضراء المشعثة مظهرًا من الترف والفخامة.

***

أحيانًا كان نيك ومينا يتظاهران أنهما زوجان فرنسيان، جاستون وكلوتيلد. كان جاستون يعمل مديرًا للبنك الذي تمتلكه عائلته، ويجد أنه من المزعج الاختلاط بأي شخصٍ لا تتضمن ممتلكات عائلته بنكًا. ولم يكن يحول بين جاستون وامتلاك قصر ملحق به مزرعة كروم وقبو للتعذيب سوى موت ثلاثة أشخاص فحسب. أما كلوتيلد، فكانت هواياتها حضور القداس في الكنيسة، والمظاهرات المعارضة لحق الإجهاض. وبعد أن طُردت ابنتهما ماري فرانس من المدرسة الخاصة

التي كانت ملتحقة بها، انضمَّت إلى مجموعة منشقَّة من الانفصاليين في الباسك، بمهاراتها التي صقلتها من خلال تشويه الحيوانات الصغيرة. أوضحت كلوتيلد قائلة: "من المعتاد أن تمرَّ الفتيات الصغيرات بمرحلة إرهابية. أذكر أنني أنا نفسي كنت أخرج في الأماكن العامة من دون ارتداء اللآلئ في ذلك العمر. كما ترين، كنت قد التقيت بجاستون، الذي بدا وسيمًا بشكلٍ لا يُصدَّق في زيه العسكري. وصل حديثًا من المستعمرات، يلفُّه عبق من الدماء الهندوصينية، حتى إنني فقدت عقلي تمامًا".

"لن أنسى أبدًا أول مرة رأيتك فيها، يا عزيزتي، بدوتِ رائعة، تمامًا مثل حصاني".

كنَّا ثلاثتنا نتناول العشاء مرة أسبوعيًّا في مطعم للكريب، أو ندلِّل أنفسنا بتناول الكسكس في مطعم مغربي اسمه "المغرب". عادة ما كانت ديب تنضم إلينا، وديتر أيضًا. كانت عينا ديتر واسعتين، وشعره الكستنائي المجعد اللامع يعلو جبينه المرتفع الصافي، حتى بدا كملاكٍ مندهشٍ. قالت له مينا: "يجب أن يكون مكانك في الركن السفلي الأيسر من إحدى اللوحات، وأنت تعزف العود". أمالت إبريق النبيذ فوق كأسه وصبَّت أكثر من اللازم، محدثة فيضانًا. مسح نيك ما انسكب، قائلًا: "الأمر هكذا على الدوام. عليك رؤية ما يحدث عندما تملأ البانيو للاستحمام".

كثيرًا ما كان يأتي الصبي الأنيق كالراقص الذي كان في حفلة ديتر لحضور العشاء. كان اسمه باسكال، يدرس القانون، ووالداه صديقان لمالكة شقة ديتر. على ما يبدو، يمتلك كلُّ رجل فرنسي سترة بدرجة محافظة من اللون الأصفر أو الأزرق، ودومًا ما كان يرتدي باسكال سترة صفراء شاحبة وجوارب تتماشى معها بنقشة الأرجيل. لم يكن يتحدث تقريبًا، وتساءلت لماذا يكترث بنا على الإطلاق. اعتقدت مينا

أن الإجابة واضحة: "إنه يتجسس، ويبلِّغ قريبة ديتر المثيرة للاشمئزاز عن أصدقائه".

كان ديتر يعيش في برلين الغربية نظرًا إلى إعفاء سكان برلين من الخدمة العسكرية، لكنه نشأ في بامبرج. قالت مينا إنها قضت أسبوعين في بامبرج في أثناء تبادل مدرسي. "كان أقسى شتاء منذ سنوات، ودرجة الحرارة ثلاثون تحت الصفر. اضطررنا إلى تناول الخضراوات المجمَّدة، إذ كانت الخضراوات الطازجة تتحوَّل إلى اللون الأسود بفعل البرد بمجرد إخراجها من السوبر ماركت. أرادت عائلتي المضيفة أن تريني المنطقة، لذلك طلبت زيارة نورمبرج، فابتسموا وقالوا إن القلعة والبلدة القديمة التي تعود إلى القرون الوسطى جميلة. أخبرتهم أنني أريد رؤية المحكمة التي جرت فيها المحاكمات، فبدت عليهم الحيرة: "أي محاكمات؟"".

ضحك ديتر على غضب مينا. وصل ذات مرة حاملًا هدية لها: كانت صورة له ولإخوته. "أعلم أنك ستعتزين بها، يا مينا. انظري، نحن الأربعة نرتدي السراويل البافارية الجلدية القصيرة، في الشارع". كانت مشاكساته لطيفة، إذ كان من هؤلاء الأشخاص النادرين الذين يتمتعون بقدرة كبيرة على التسلية من دون السخرية من الغير. في غرفة طعام الموظفين في المدرسة الثانوية، كان يلكزني مبتهجًا كلما تصرف الفرنسيون بطريقة نمطية فرنسية: يقلِّبون السكر في الزبادي، أو يتذمرون من أن شريحة اللحم التي ينزُّ منها اللون الوردي قد طُهيت أكثر من اللازم.

***

كانت هناك صحيفة موضوعة على طاولة في غرفة الموظفين. قرأتُ إن لويس ألتوسير قتل زوجته، وهي عالمة اجتماع تُدعى هيلين ريتمان.

كما كان هناك مقالٌ عن سفاح يوركشاير، الذي قتل امرأة ثالثة عشرة، طالبة جامعية تُدعى جاكلين هيل. في البداية كان يُطلق عليه قاتل البغايا، واستمرَّت هذه التسمية، على الرغم من أنه قتل جميع أنواع النساء. ذكرت الصحيفة أن الناس يعيشون في رعبٍ الآن في شمال إنجلترا، حيث لا أحد ينعم بالأمان. فهمت أن كلمة "الناس" تعني "النساء"، و"الآن" تعني "منذ مقتل أنثى أخرى لا يمكن الاستغناء عنها"، و"لا أحد" تعني "حتى الطبقة الوسطى".

لم يكن جنوب فرنسا هو شمال إنجلترا، لكن أمسيات نوفمبر كانت مظلمة مثلها تمامًا. في الشوارع الخانقة والمضاءة على نحو سيئ بالقرب من الكاتدرائية، كان من السهل تصديق أن شخصًا ما ينتظر مختفيًا في أحد المداخل. وفي بعض الأحيان يكون هناك أشخاص بالفعل: عشاق من المراهقين، منغمسين في ذواتهم كالتماثيل، أو شخص يشعل سيجارة بعيدًا عن مهب الريح. لم يكن في المبنى الذي أسكن فيه نظامًا أمنيًا، لذلك كان الباب المطل على الشارع يُغلَق، لكن من دون مفتاحٍ. قلت لنفسي إنه في حال ما إذا أقدم رينالدي على قتلي، فسوف يُلقى اللوم على أحد المتسللين، وسيضج آل بيرتي ضحكًا لما آلت إليه الأحداث.

لمحت رينالدي في المتجر المحلي الصغير، حاملًا حقيبة تحت ذراعه، وهو يشتري عبوة من البازلاء المجمدة. كان يبلغ الأربعين من عمره على الأقل، لكن شعره المجعد كان لا يزال كثيفًا وداكنًا: حتى شعره كان يحسن الظن بنفسه. برزت نصف ياقة قميصه خارج سترته، بينما اندسَّ النصف الآخر بالداخل. بدا الأمر من ذلك النوع التفاصيل التي ستظهر في صفحات الصحف عندما يُلقى القبض عليه أخيرًا. ولن يحتوي الفريزر الخاص به إلا على البازلاء، ومجموعة متنوعة من الأعضاء البشرية. كنت أثير الخوف في نفسي أحيانًا على نحوٍ مشوبٍ بالمتعة، وفي أحيان أخرى كنت أشعر بالخوف فحسب.

كان الخوف ينتابني عند الذهاب إلى المرحاض بعد حلول الظلام. ومع وجود الأحجار على كلا الجانبين، بدا الدرج في بنايتي السكنية باردًا على الدوام، كما كان معتمًا أيضًا، حتى في وقت الظهيرة في أكثر الأيام سطوعًا، لكنه كان مضاءً في الليل بوهجٍ أبيض قاسٍ. وكلما انطفأ أحد الأنوار، بدا الظلام الذي يعقب ذلك حالكًا أكثر من السواد. كان هناك مفتاح بمؤقت عند بسطة السلم أمام شقتي، لكن ليس عند قمة الدرج المؤدي إلى دورة المياه بالأعلى. وعندما أنتهي من المرحاض، دومًا ما أجد الضوء قد انطفأ على البسطة أمام شقتي. لم أكن أخشى السقوط وأنا أشق طريقي نزولًا في الظلام، لكن قد يكون أي شخص في الانتظار على السلم بالأسفل، مختبئًا عند منحنى الدرج. اعتدت الوقوف خارج المرحاض، أستمع إلى الصمت، إذ إن الصمت مليء بالاحتمالات، ويمكن أن يحتوي أي شيء. خرج سفاح يوركشاير من وسط الظلام ليطعن جاكلين هيل مرارًا وتكرارًا باستخدام مفك. لا بد أن جسدها صار يشبه لب فاكهة حمراء عقب انتهائه.

أثقلتني مشكلة المرحاض، إلى درجة أنني فكرت في سؤال ديتر عما إذا كان يمكنه أن يؤجر لي غرفة من الباطن، لكن أي غرفة؟ كانت شقته تحوي ثلاث غرف نوم، لكن واحدة منها كانت غرفة مكتب، بينما الأخرى مغلقة. كان كلٌّ من نيك ومينا يحاول التفوق على الآخر في التكهن بما تحويه الغرفة: كمان جيبسون ستراديفاريوس المسروق؟ ذهب فرعوني من وادي الملوك؟ كنت سأقنع بالنوم على أريكة ديتر، لكنني لم أتذكر وجود أريكة، بل تلك الكراسي المذهبة المثيرة للتوتر فحسب. على أي حال، خلال ساعات النهار كنت أشعر بالخجل من إخبار الناس بأنني خائفة، وكنت أوبِّخ نفسي خلال ساعات النهار لهواجسي تلك الشبيهة بهواجس العوانس. لا بد أن دي بوفوار، من خلال استخدامها تعبير " هواجس عوانس" بازدراء على ذلك النحو، كانت تقصد في الواقع شيئًا من قبيل "هواجس عذرية". كانت تستمع

بالجنس، لكنها هي نفسها كانت عانسًا، بعد أن رفضت سارتر حينما تقدَّم إليها طالبًا الزواج. كانت جاكلين هيل أيضًا عانسًا، وكنت آمل، على الرغم من كل شيء، أن تكون قد استمتعت بالكثير من الجنس الجيد خلال حياتها القصيرة.

كثيرًا ما كان فكي يؤلمني في ذلك الشتاء، حتى أدركت بعد فترة أنني أكزُّ على أسناني من الخوف. لماذا لم أشترِ كشافًا لإضاءة الطريق في أثناء نزولي من المرحاض؟ كان في إمكاني أن أسلط ضوءه في عيني أي دخيل. لكنني أقنعت نفسي أن مخاوفي ليس لها أساس، لذا لم يكن هناك ضرورة لتلك التكلفة، ما أجده مثيرًا للتعجب الآن هو أنني قدرت قيمة حياتي بأقل من بضعة فرنكات.

***

تفحَّصت مينا معطفي الواقي من المطر بينما كنت أخلعه في أحد المطاعم. قالت: "لا توجد بطانة، هذا المعطف عديم الجدوى".

اشتراه لي رجلٌ في سيدني خلال الشتاء الماضي. في معطفي الأسود الواقي من المطر، وكنزتي السوداء ذات الرقبة المرتفعة، وسروالي الجينز الأسود الضيق، صرت امرأة جريئة وذكية، ووصلني الدليل على ذلك في صورة الإدراك بأنني أضيع وقتي مع ذلك الرجل.

في المرة التالية التي رأيت فيها مينا، قادتني إلى متجرٍ لبيع الملابس المستعملة في شارع كريه الرائحة. كان هناك رفٌّ يحمل سترات من النوع الذي يرتديه القادمون من شمال إفريقيا. توجَّهت مينا إلى المعاطف الشتوية مباشرة، وقالت: "هذا".

كان معطفًا رجاليًّا ثقيل الوزن، من التويد الأخضر الداكن، بنقشة متعرجة، وله بطانة مصنوعة من الحرير الرمادي الباهت، ممزَّقة عند فتحة إحدى الذراعين، فانزلقت يدي داخل البطانة بدلًا من

الكم. قالت مينا: "الكثير من أصدقائي في لندن لديهم معاطف قديمة ضخمة كهذا، إنها تنتشر حقًّا". تجولتْ في المتجر وهي تقضم ظفرها، وتنتزع الملابس من فوق الأرفف. رفعت أمام جسدها سترة أرجوانية من الموهير، ولوت قسمات وجهها. اشتريت المعطف.

انغمسنا في الصداقة، أنا ومينا، مثل مدمنين ينغمسان في المخدرات. حاوطتنا هذه الصداقة وساندتنا، وسبحنا فيها، وجذبنا بعضنا أكثر نحو الأعماق. كنَّا نلجأ إلى الترجمات السخيفة، ونقول: "شارع البريد القديم" بدلًا من"Rue de l'Ancien Courrier" ، و"مطهو مرتين" بدلًا من"biscuit" . وكنَّا نعقد ذراعينا ببعضنا في الشارع، ونحدق بشغفٍ إلى وجوه المارة. كما كنَّا نتهامس ونحن نغطي فمَّينا بيدنا بتكلفٍ، ونشم شعر بعضنا. كان يمكن لأي شيء -رجل يلقي بوشاحه فوق إحدى كتفيه، أو تمثال لعرض الأزياء يرتدي ملابس داخلية من الدانتيل الأزرق- أن يدفعنا إلى الضحك بشدة، إلى درجة أننا كنَّا نضطر إلى التشبث ببعضنا كي لا ننهار ونسقط أرضًا. كنَّا ننحشر على المقعد الدوار داخل كابينة التصوير، ونتجهم أو نتجمَّل أمام الكاميرا. تُرى ما الذي حدث لتلك الأشرطة من الصور؟ كما عثرنا على أجمل امرأة في فرنسا، وكنَّا نتأملها بتقديرٍ من خلال نافذة مكتب السياحة الذي تعمل به. كانت بضة القوام، ويبدو عليها الترف. صفَّفت شعرها على شكل صفوف من الجدائل ثبَّتتها في عقدة، وكانت ترتدي بدلات بألوان الباستيل التي تتوهج على بشرتها. قالت مينا بحسن تقدير: "ألوان رائعة، وملابس فظيعة".

لا بد أن ضحكنا وهراءنا ذاك كان يثير جنون نيك، أرى ذلك الآن، لكن حينها كنت أشعر بالاستياء فحسب عندما كانت تتركني لتعود إليه في المنزل. كان هناك تيارٌ غامضٌ يسري بيني وبين نيك. على سبيل المثال، كنَّا نتنافس بعض الشيء فيما يتعلق بالتحدث باللغة الفرنسية. كانت لكنتي وإلمامي بالقواعد أفضل من نيك، وحصيلتي

مـن المفـردات أوسـع مـن حصيلتـه. لكـن إجازاتـه في فرنسـا منحتـه سـهولة في التعامـل مـع اللغـة، فبـات ينزلـق فيهـا مثـل قميـص ازداد نعومـة مـن فـرط مـا ارتـداه. زودَتنـي الروايـات التـي تـدور أحداثهـا في الريـف بالكلـمات المتعلقـة بعـالم الطبيعـة، للتعبـير عـن شـجرة الـزان، وفـأر الحقـل، وأخـدود في الطريـق، لكننـي وصلـت إلى مونبلييـه مـن دون أن أعـرف كيـف أطلـب دفـترًا للشـيكات. لكـن نيـك كان يعـرف اسـم زعيـم الحـزب الشـيوعي، وأن كلمـة une clope"" هـي كلمـة عاميـة تعنـي سـيجارة.

كان ماهـرًا بشـكلٍ يُحسَـد عليـه في نـزع فتيـل التوتـر وتهدئـة النـاس، ولسـلوكه اللطيـف تأثـير فعـلي. كان ثلاثتنـا متجهـين إلى مـكان مـا في إحدى الأمسيات، عندمـا تقـدَّم نحونـا رجـلٌ يرتـدي بدلـة عمـل زرقـاء، وهـو يمـد ذراعيـه ليسـد علينـا الطريـق، وبـدا مـن الواضـح أنـه كان يتنـاول الـشراب. قـال نيـك بلطـفٍ: "كيـف الحـال؟".

"أوه لا، لا بـأس عـلى الإطـلاق". تحـدث الرجـل بتركيـز مخمور، وشـفتاه الحمـراوان تتحـركان بعنايـة وسـط غابـة لحيتـه. قـال إن والدتـه تُوفيـت، وكان في طريقـه إلى المحطـة للحـاق بالقطـار للعـودة إلى المنـزل.

وضـع نيــك يــده لبرهــة عــلى ذراع الرجــل. "هــذا محــزن للغايــة، سـيكون الأمـر صعبًـا مـن دونهـا".

قال: "شكرًا لك، يا رفيق"، ثم رحل.

ظـلَّ تفكـيري يعـود إلى ذلـك الرجـل، الـذي منحـه وجهـه المتوتـر ولحيتـه الكثيفـة طابـع أحـد أبطـال دوستويفسـكي: جليـل ومجنـون. ذكـرت ذلـك لنيـك، فقـال: "أي رجـل تقصديـن؟".

"الرجل الذي ماتت والدته".

فكر نيك للحظة: "أوه، صحيح".

عـرف عـلى نحـوٍ رائـعٍ مـا يتعـيَّن قولـه تمامًـا، معترفًـا بحـزن شـخصٍ غريـبٍ مـن دون تقديـم عـزاء سـهل، ثـم نـسي أمـره. يجـب عـلى المـرء معرفـة كيفيـة تدبُّـر أمـر مثـل هـذه الأشـياء.

***

لم أكـن مضطـرة إلى التدريـس بعـد ظهـر أيـام الجمعـة، لكـن نيـك كان يتعـين عليـه ذلـك. حينهـا كنـا نسـترخي أنـا ومينـا في شـقتها، ونسـتمع إلى الموسـيقى ونتصفـح مجـلات الموضـة. كانـت صفحاتهـا المعطـرة تتاجـر بالتحـولات: نسـختك المسـتقبلية تبـدو في أحسـن حـال! حاولـت تفـادي مثـل ذلـك النـوع مـن المجـلات خـلال نشـأتي، إذ كانـت باهظـة الثمـن، وتمثِّـل الهزيمـة. كانـت تلتهمهـا الفتيـات الـلاتي تركـن المدرسـة في سـن الخامسـة عـشرة. قلـت لمينـا أجـل، إن الملابـس فاتنـة وغـير معقولـة ومبتكـرة، "لكـن مـن يسـتطيع شراءهـا؟ أسـعارها فلكيـة".

قالـت مينـا: "انظـري إلى الألـوان، وانظـري إلى الأشـكال. لسـت مضطـرة إلى شراء الملابـس، بـل هـي دعـوة إلى التفكـير. تأمـلي نقشـة هـذا القميـص: اللـون البنفسـجي بجـوار الأخـضر. يمكنـك رؤيـة مثـل هـذه الألـوان في لوحـات تينتوريتـو. لقـد أحـبَّ أهـل فينيسـيا وضـع اللـون الأخـضر بجـوار اللـون الـوردي".

بينـما كنـت ممـددة عـلى الأرض بجانبهـا، أتنـاول الشـوكولاتة البلجيكية مـن علبـة، فكـرت، هـذه اللحظـة، الآن، هـذه هـي السـعادة. مهـما طـال عمـري، لـن أسـعد بمثـل هـذا القـدر مـرة أخـرى. ألمَّ بي وجـعٌ خافـتٌ لذيـذٌ: حنـين إلى الحـاضر. أشـعلت مينـا سـيجارة أخـرى وتنهـدت. "تتزايـد قناعتـي أكـثر وأكـثر، إن الموضـة هـي حقًّـا المجـال الـذي أرغـب في العمـل بـه، لكـن كيـف أخـبر نيـك؟ لقـد رأيـت الجينـز الـذي يرتديـه، إنـه يعتقـد أن الموضـة مجـرد... موضـة".

عندما أفكر في مينا، أتذكر الموسيقى التي استمعنا إليها معًا: لو ريد، وفريق بي52-، ونينا هاجن، وفريق ذا سليتس. شغلنا أغنية "خطوط متوازية" كثيراً، إلى درجة أن الشريط تمطط. كانت ديبي هاري تمثِّل كل ما هو حديث، وكانت امرأة عصرية مثيرة. أردت أن أكونها، وأردتُ حياتها. أردتُ أن أكون امرأة جريئة وذكية أيضًا، لكن هل يمكن تحقيق ذلك؟

أمضينا وقتنا خلال فترات ما بعد الظهيرة تلك ونحن نتناول الوجبات الخفيفة: شوكولاتة، وكعكات صغيرة، وعبوات من "المطهو مرتين" بالزبدة. شعرت بنفسي أعود إلى الطفولة، إلى السكر والخيال. وعندما كانت تفور طاقتنا من أثر السكر، كنَّا نتقافز على أنغام أغنية "القنابل الإسبانية". كما كانت هناك نسخة غير قانونية من تسجيل لكلاوس نومي وهو يغني في نادٍ ألماني. أعدنا تشغيله مرارًا وتكرارًا، ونحن نتخذ أوضاعًا درامية صارختين: "كسوف كلي!"، بينما يسري صوت نومي الكاونترتينور.

كان قميص مينا المفضَّل ذا لون وردي زاهٍ، تزيِّنه أوراق شجر برتقالية. قالت لي: "أحب هذه الدرجة من اللون الوردي، فهو يتماشى مع كل شيء. ألوان النيون هي البهجة الحديثة". ثم التقطت مقصًّا، قائلة: "عليَّ أن أفعل هذا، يا ليلي، فأنت تدفعينني إلى الجنون". في الحمام، كان الحوض مغبَّرًا بذرات من الماكياج، انضمَّ إليها خطوط متقاطعة من الشعر عندما قصت مينا غرتي. ظهر وجه شخص غريب ينتظر في المرآة. بدت مينا كما لو أن شخصًا ما أشعل ضوءًا داخلها، وقالت: "إياكِ أن تجرئي على إطالتها مرة أخرى أبدًا، هلا وعدتني بذلك؟". ألصقت وجنتها بوجنتي، وخاطبت انعكاسي في المرآة قائلة: "ما أجمل لون بشرتك".

انفتح داخلي صدع من خيبة الأمل. بدا الأمر كما لو أن مينا قالت: "أرأيت؟ ها أنا أجد البشرة الداكنة جذابة، فلتهنئيني!". قلت لها: "هذا ليس مو-ثيرًا للاهتي-مام". كان ذلك هو أشد نقد لاذع لدينا. واصلنا تأمُّل بعضنا في المرآة، حتى أصدر مفتاح نيك صريرًا في الباب.

***

تناولنا أنا وديتر مشروبًا بعد العمل، ثم عدت إلى المنزل لأجد اللمبة التي على بسطة السلم أمام شقتي قد احترقت. لكن الأمر الأشد إلحاحًا هو أنني أردت دخول المرحاض. صعدت مباشرة إلى هناك، وعندما خرجت تركت الباب مفتوحًا والنور مضاء. شرعت أدخل مفتاحي في الباب الأمامي، بمساعدة الإضاءة الخافتة من الأعلى، عندما تحدَّث صوت في ظهري: "مساء الخير، يا جارتي العزيزة، لقد احترقت لمبتك".

كان رينالدي قد تسلَّل خلفي بصمتٍ. نظرت إلى قدميه، وهو يقف هناك وسط الظلال على قمة الدرج، فوجدته يرتدي حذاء رياضيًّا. قال بنبرة لا تنم عن الاعتذار: "أوه، لقد أخفتك، من المعتاد أن يجفل المنتمون إلى برجك بسهولة، كما يُذكَر أيضًا أنهم يعانون نقصًا في المغنيسيوم". مدَّ إليَّ يده بشيء شاحب اللون: مظروف. "رسالة لك، كانت في صندوق بريدي". أخبرني أنه جمعها مع بقية رسائله، ولم يكتشف الخطأ إلا للتوِّ.

ناولني المظروف، فتلامست أصابعنا. تابع قائلًا: "هل تلقيتِ رسالة موجهة إليَّ، بالمناسبة؟ فأنا أنتظر رسالة مهمة، يبدو أنها تأخرت". استند إلى الحائط، وهو يعد نفسه لتبادل الحديث.

قلت إنني لم أرَ رسالته: "لكن من المؤكد أنني سأضعها في صندوق بريدك إذا رأيتها".

لم يعجبه ذلك، قال: "حذار كي لا ينكسر عنقك عند نزول هذه السلالم. إنه من ذلك النوع من الأشياء التي يمكن أن تقع بكل سهولة. سأضطر إلى التزام الحرص في طريقي للنزول. سيكون الأمر مؤسفًا للغاية لو تعرضتُ لحادث، لأنني صعدت إلى هنا لخدمة أحد الجيران. إذا فتحت بابك وأضأت النور، فسيكون ذلك عونًا".

فكرت أنه سيدفعني ويغتصبني بمجرد فتح الباب. رسمت على وجهي تعبيرًا خاويًا، وقلت بمرح: "إلى اللقاء، إذن". بدا من الواضح أنني لن أتزحزح، فانصرف أخيرًا.

بعد خمس دقائق، تبعته إلى الأسفل، وأنا أتحسس طريقي بجوار الجدار. كان باب رينالدي مغلقًا، لكن موسيقاه احتلت السلم، كما كانت تفعل غالبًا هذه الأيام. كان ذوقه يميل إلى ما هو كلاسيكي ومعقد. سيكون ذلك دليلًا آخر على الغرابة في ملفِّه الشخصي: لم يكن القاتل يستمع إلا إلى [أدخل اسم الملحن]. شعرت بالثقة أن حكايته هذه عن الخطأ بشأن رسالتي مجرد كذبة. سمح رينالدي لنفسه بالعبث في بريدي كي يوصلها شخصيًا، آملًا أن يتلقى دعوة بالدخول.

في المتجر الصغير، اشتريت قفلًا لصندوق بريدي، بالإضافة إلى لمبة. كانت موسيقى رينالدي لا تزال تصدح خارج شقته بعنفٍ عندما عدت. أعطت الموسيقى الانطباع أنه بأمان في الداخل، لكن كيف يمكنني التأكد؟ قد يكون بانتظاري عند نهاية الدرج المظلم. كل من شاهد فيلم رعب يعرف كيف تسير الأمور: يتضح أن المواجهة التي تبدو خطيرة ليست مؤذية، فتقلل الضحية من حذرها، ثم يضرب القاتل ضربته. صعدت السلم بصورة جانبية، وظهري في مواجهة

الحائــط، فاصطــدم كتفــي بمفتــاح المؤقــت عــلى بســطة الســلم أمــام شــقتي، واشــتعل الضــوء.

هــل ســقطت اللمبــة ضحيــة لأســلاك الســيد لافــال؟ مــن الممكــن أن تكــون قــد انطفــأت، ثــم عــادت مــرة أخــرى إلى الحيــاة. الاحتــمال الآخــر هــو أن رينالــدي قــد اســتبدل بهــا لمبــة محترقــة في وقــتٍ سابقٍ مــن المســاء لإخافتــي، ثــم أعادهــا مــرة أخــرى وأنــا خــارج المنــزل.

رأيتــه بعدهــا بعــدة أيــام في الشــارع المــؤدي إلى الكاتدرائيــة. كنَّــا نســير في اتجاهــين مختلفــين، عــلى جانبــين متقابلــين مــن الشــارع، لكنــه عــبر ليضع نفســه في طريقــي. أخــبرني أنــه اســتبدل اللمبــة المحترقة على بســطة الســلم: "في ذلــك المســاء نفســه، مــن يــدري كــم مــن الوقــت كان ســيســتغرقه مالــك البنايــة؟". بــدت ابتســامته لزجــة بحــب الــذات، "طرقــتُ بابــك لأخــبرك، لكنــك كنــت قــد خرجــت مــرة أخــرى".

لم تكــن لــدى رينالــدي لكنــة جنوبيــة، بــل كان يتحــدث الفرنســية مثــل قــراء الأخبــار، وكانــت تلــك اللكنــة تتوقــع الانصيــاع لهــا. اضطــررت إلى شــكره عــلى تفضُّلــه بتغيــير لمبتــي، تمامًــا كــما اضطــررت إلى شــكره عــلى إحضــار رســالتي، "أرجــو ألا تجشــم نفســك العنــاء إذا حــدث ذلــك ثانيــة"، وأضفــت قائلــة: "يمكننــي تغييرهــا بنفــسي في المــرة القادمــة".

تســبَّب ذلــك العــرض البســيط للاســتقلالية في إثــارة أعصابــه، فقــال: "لســت مضطــرًّا إلى توفــير الإضــاءة عــلى الــدرج. كنــت أنتــوي خصــم ثمــن اللمبــة مــن قيمــة إيجــاري، لكــن بمــا أنهــا بســطة الســلم التــي أمــام شــقتك، فســيكون مــن الأفضــل لــو ســددت لي ثمنهــا، وســويت الأمــر مــع الســيد لافــال بنفســك".

حاولــت أن أدفــع لــه عــلى الفــور، لكنــه ادَّعــى أنــه لا يتذكــر ثمــن اللمبــة. أكــد لي بلزاجــة مــرة أخــرى: "لا أريــد أن أسرقــك، عندمــا أتحقــق مــن الســعر، ســأخبرك بذلــك. نحــن جــيران، أليــس كذلــك؟ يمكننــي أن

أطرق بابك في أي وقت". ترك الفكرة معلقة، بينما هو يبتسم طوال الوقت، مظهرًا أسنانه الصغيرة، فتمنيت أن يسقط رأسه.

***

دعتني ديب إلى تناول الغداء، وأعدَّت عجة بالجبن، وقلبتها في المقلاة كخبيرة. كان جون لينون قد قُتِل، وشربنا الكثير من النبيذ لنسري عن أنفسنا. قالت لي ديب إن آل بيسيه لطفاء للغاية، إذ كان السيد بيسيه يوصل خطاباتها إلى مكتب البريد الرئيسي حتى تصل إلى إنجلترا في وقتٍ أسرع. كانت ديب تراسل خطيبها، أنجوس، ثلاث مرات أسبوعيًّا، ولا تطيق صبراً حتى تتمكَّن من رؤيته في عيد الميلاد. بدا وجود خطيب لها مثيراً للدهشة تمامًا مثل الدراجة البخارية. لم يكن أيٌّ من أصدقائي في سيدني مخطوبين، ونظرت إليهم بهواجس عنوسية اندثرت منذ عام 1962 تقريبًا. قالت ديب إنها عقب انتهائها من دراستها الجامعية، ستتزوج من أنجوس، الذي كان مسؤولًا بالفعل عن الإدارة المالية في عمله. خططا لإنجاب ثلاثة أطفال، واقتناء مهر. أحسست بالجمود وباتت عيناي خاويتين من التعبير، مثل الغزال المعلق فوق الحائط. أردت بشدة أن أصرخ محذرة: "هذا ليس طبيعيًّا"، لكن هذا كان خطأ، إذ إن ما تريده ديب كان طبيعيًّا للغاية. لو لم يكن النبيذ قد أثر فيَّ، لرأيت أن التحذير الصحيح هو: "هذا ليس مو-ثيراً للاهتي-مام".

في الفناء الأمامي لآل بيسيه، اصطفَّت ثلاث أشجار بحذاء جدار، كما لو أنها تنتظر إطلاق النار عليها. تعافت الأشجار بسرعة من صخب الخريف، ووقفت متيقظة بالفعل بفروعها العارية. مرَّ السيد بيسيه بجوارها بسيارته بينما أنا في طريقي للانصراف، فعرض أن يوصلني في طريقه. طرح عليَّ الأسئلة وهو يقود السيارة: هل من

المتصور أن تحصل المرأة الأسترالية على حق التصويت في يوم من الأيام؟ وكم تبلغ النسبة التي يفوق بها عدد سكان أستراليا الأصليين باقي السكان هناك؟ وبالنسبة إلى أشجار الأوكاليبتس التي تظهر كثيراً في الأفلام الوثائقية التي تدور حول السفر، فمتى تم استيرادها إلى أستراليا من جنوب فرنسا؟

ارتجلتُ إجابات تسمح للسيد بيسيه بالحفاظ على رؤيته المخبولة لأستراليا، إذ لم يبد لي أنه من ذلك النوع من الناس الذي سيتقبَّل أن يصحِّح له أحدٌ آراءه. أخبرني أنه يعمل في الإدارة في مقر الشرطة، وكان أيضًا خبيرًا في الخطوط، مما كان مفيدًا للغاية في مجال عمله. "إن منحنى الخط في حرف L يدل على أكثر مما يمكنك تخيله. أبحث عن الاقتصاد والحزم في الرسائل الواردة من الأشخاص المتقدمين للعمل. وهناك نوع من الميل نحو الأسفل في الخطوط يمثِّل تحذيرًا، سيكون تجاهله ضربًا من ضروب الجنون".

"وماذا عن الرسائل المكتوبة على الآلة الكاتبة؟".

قال السيد بيسيه إن الكتابة على الآلة الكاتبة كانت للمجانين والمجرمين، "لن يفكر أي مواطن محترم في مثل هذا الشيء".

تساءلت عمَّا كشفته مظاريف ديب عنها، وسألته "هل تعرف كيف تفسر خطوط اليد الأجنبية؟".

أجاب السيد بيسيه أنه من سوء حظ المرء الشديد أن يتلقَّى تعليمه خارج فرنسا، لكنه أضاف بنبرة أبوية أنه لا يزال هناك قدرٌ كبيرٌ من الأمل بالنسبة إلى البلدان الناشئة مثل أستراليا، إذ يمكن دراسة مصير الحضارات الأقدم، واتخاذ الاحتياطات اللازمة لتفادي النتائج غير المرغوب فيها. لكن هنا، انتهى كل شيء. إذا فاز الاشتراكيون في الانتخابات في مايو المقبل... لإبعاد ذهنه عن تلك الكارثة، طرحت

عليه المزيد من الأسئلة حول دراسة الخط. بدت عيناه كعيني كلب، ولهما لون بني ناعم.

***

عرضت عليَّ مينا صورًا للتركيب الفني الذي كانت تعمل عليه عندما كسرت ذراعها، والذي أطلقت عليه اسم "الأحمر الدائم" (استوحت الاسم من عنوان كتاب جون بيرجر). صنعت نسخًا طبق الأصل من اللوحات التي حلَّلها بيرجر، ثم خربشت فوقها باللون الأحمر. ظهر الحكام في لوحات هالز وأيديهم تقطر بالدماء، ولطَّخت الدماء ياقاتهم البيضاء كالثلج، وسالت من أعينهم وأفواههم. كما ظهرت كريستينا في لوحة وايث ببقعة حمراء داكنة على مؤخرة تنورتها، وأمسكت السيدة أندروز في لوحة جينزبرة بطفل أحمر مسلوخ على حجرها، وأحاط فمها اللون الأحمر الدموي، لأنها قضمت رأسه. بالنظر من كثب، ميَّزت وجود خطوط حمراء على هيئة أجساد على أرض آل أندروز، مثل تلك التي ترسمها الشرطة بالطباشير حول الجثث. قالت مينا وهي تدفع الصور جانبًا فوق الطاولة: "رسم جينزبرة مسرح جريمة، إذ انتزع القانون الأراضي المشاع وخصَّصها للأثرياء، واضطر الفقراء الذين كانوا يعملون على فلاحتها إلى البحث عن عملٍ في المصانع، أو التضور جوعًا". جمعت الصور ورتبتها كبطاقات لعب كبيرة الحجم، ثم نحتها جانبًا.

حينها، أخبرتني أن والدتها مؤرخة فنية، ألَّفت كتابًا رائدًا عن شارلوت بيرياند، فاعترفت بأنني لم أسمع من قبل عن بيرياند.

"إنها مهندسة معمارية ومصمِّمة، تقدمت للعمل في مكتب لو كوربوزييه، وقال لها: "نحن لا نطرز الوسائد هنا"".

ذكـرت مينـا أيضًـا أن والدتهـا خجولـة للغايـة. "يمكنهـا الاتصـال بي لتقـول "أنـا والدتـك"، ثـم تنهـي المكالمـة".

"أود قراءة كتابها".

قالت مينا: "أوه، لم أكلف نفسي عناء جلبه معي".

عندمـا كنَّـا أنـا وميـنا نتجـوَّل في المدينـة خـلال عطـلات نهايـة الأسـبوع، كان نيك يبقـى في المنـزل، وقالـت مينـا إنـه يعمـل. افترضـت أنـه يخطـط للـدروس، أو يقـرأ اسـتعدادًا لسـنته الدراسـية الأخـيرة، فأخبرتنـي مينـا أنـه يكتـب روايـة، ثـم أضافـت بنـبرة تحذيـر أنــه لا يريـد أن يطـرح عليـه النـاس الكثـير مـن الأسـئلة بخصـوص ذلـك الموضـوع.

ذكـرت ذات مـرة أن هنـاك أيامًـا لا تنهـض فيهـا مـن الفـراش، مـما بـدا لي كسـلًا صادمًـا. كـما ذكـرت أيضًـا مشروعًـا يتطلَّـب التقـاط صـور لتماثيـل عـرض الأزيـاء، عـلى الرغـم مـن أنهـا نـادرًا مـا كانـت تحمـل الكامـيرا عندمـا نخـرج. سـألتها الآن عـمَّا إذا كانـت تعمـل عـلى مشروعهـا حيـنـما يكـون نيـك منشـغلًا بالتدريـس.

"أفضِّـل العمـل خـلال الليـل، كـما أحـب الاسـتماع إلى الموسـيقى في أثنـاء بذلـك، لكـن نيـك يضطـر إلى الاسـتيقاظ مبكـرًا كي يتمكَّـن مـن الكتابـة. عـلى أي حـال، لقـد رأيـت شـقتنا؛ أيـن يمكننـي العمـل؟". مصَّـت مينـا صليبهـا، ثـم أخرجتـه مـن فمهـا، وقالـت: "تبديـن مثـل والـدتي، التـي دومًـا مـا تحثُّنـي عـلى العمـل بتلـك الطريقـة النسـوية. لا أريـد أن أصـير أمًّـا أبـدًا، أترغبـين أنـت في ذلـك؟ مـن السـهل جـدًّا التنبـؤ بتصرفـات والـدتي. أسرتهـا كاثوليـك، مـن ذلـك النـوع المتكـبر للغايـة، وجميعهـم مـن المؤيديـن للنازيـة، حتـى أولئـك الذيـن تعـود أصولهـم إلى بوميرانيـا، لـذا فقـد تزوجـت يهوديًـا بالطبـع".

طـوال هـذه المحادثـة، انشـغلتُ حقًّـا بالتفكـير في نيـك، نيـك الـذي يعكـف عـلى كتابـة روايـة. لقـد قـرأت مئـات الروايـات، ولم يخطـر ببـالي

مطلقًا أن أكتب واحدة. كان الكثير من الكتَّاب ميتين أو كبارًا في السن أو بعيدين جدًّا، إلى درجة أنهم بدوا أسطوريين مثل وجود خطيب لإحداهن. بدا الأمر كما لو أن مينا أحدثت ثقبًا في جدار، بينما جلس نيك على الجانب الآخر، وإحدى يديه في شعره، وهو يخربش في دفتر ملاحظات على ضوء مصباح. وكي يستمد الإلهام، كان يلقي نظرة على أكوام الكتب بجواره، حيث جميع الرجال المهمين من العصر الحديث: بروست، وكامو، وروب جرييه. لمعت تلك الصورة في ذهني مرارًا وتكرارًا. لم أشعر بالفضول بشأن ما يكتبه نيك، بل كان الفعل نفسه هو ما أذهلني، وهو يزرع رايته بلا مبالاة في قلب المدينة التاريخي.

عزمت هناك في التوِّ واللحظة على أن أكتب رواية يومًا ما. أنهت دي بوفوار روايتها الأولى، "المدعوة"، بجريمة قتل، وسأفعل الشيء نفسه. سأكتب روايتي بصيغة المتكلم، عن امرأة تعيش في مدينة بها قاتل متسلسل طليق. ستكون من ذلك النوع من النساء الذي يحب قتله -شابة، أجنبية- وستكون هناك تلميحات بأنها ستلفت انتباهه. سيتصاعد التشويق، لكن القراء سيشعرون بالثقة حيال نقطة أساسية واحدة: من غير المنطقي موت الراوي الذي يقص الحكاية بصيغة المتكلم؛ لا يمكن حدوث ذلك، بكل بساطة. لكن هؤلاء القراء نسوا أن الحقيقة في الروايات ما هي إلا محض خيال، وسأفضح ذلك من خلال قتل الراوي في الصفحة الأخيرة. قفز كل هذا إلى ذهني بوثبة واثقة وقوية، وشعرت بالانتشاء وأنا على يقين من أن هذا سيتحقق، لكن روايتي قنعت بالانتظار مؤقتًا، إذ يجب أن يمر الزمن أولًا، عدة سنوات.

***

اجتمعنا جميعًا لتناول العشاء في مطعم "المغرب" قبل عطلة عيد الميلاد. بعد ذلك، سرتُ عائدة إلى المنزل مع مينا ونيك. كان الهواء مثلجًا، وتعالى وقع خطواتنا في الشوارع المهجورة. كانت مونبلييه بلدة إقليمية صغيرة، تخلد إلى النوم مبكرًا. في الشتاء ليلًا، بعيدًا عن ضجيج دور السينما والمقاهي في ساحة البيضة، لم يكن هناك أحدٌ في الجوار.

قالت مينا بينما نحن نسير في طريقنا: "هل لاحظت أن ديتر لا يترك أكثر من فرنك كإكرامية أبدًا؟ بل أقل في بعض الأحيان. كيف يمكن لألماني أن يعامل المهاجرين الفقراء بهذه الطريقة؟".

لم نكن نذهب إلى مطعم "المغرب" كثيرًا، مما كان ملائمًا بالنسبة إليّ لأنه باهظ التكلفة. كما كانت تصرفات مينا هناك تدفعني إلى الشعور بالإحراج، إذ أخذت تتعامل بألفة متكلفة مع النُّدل المغاربة، وتمنحهم إكراميات باذخة، وتطرح عليهم أسئلة تشارف حد التطفل. كان في وسع أي شخص رؤية أن النُّدل يهرعون منشغلين خلال تلك الأمسيات المزدحمة أيام الجمعة، لكن مينا كانت تبقيهم عند طاولتنا وهي تسألهم عن حياتهم. كان هناك نادل شاب قلق في تلك الليلة، اسمه جمال، ظلَّ ينظر وراءه بينما مينا تحاول مجاملته بلغتها الفرنسية المتعثرة، حتى استأذن أخيرًا وابتعد.

أزعجتني ملاحظتها بشأن ديتر، لأننا كنَّا نعلم جميعًا أن عائلته متوسطة الحال فحسب. كان والداه يديران محل بقالة، وهو واحد من بين ستة أبناء. خلقت قريبته التي تزوجت رجلًا ثريًا انطباعًا زائفًا، فقلت بنبرة غاضبة: "ربما ليس لديه الكثير من المال ليترك إكرامية".

ضحك نيك، ورفع يد مينا مقبِّلًا رسغها، وقال: "ليس لديه الكثير من المال، الأمر يا ليلي هو أن مينا ليس لديها أي فكرة عما يعنيه ذلك".

هكـذا علمـت أنهـا ثريـة. كان قيـاس الأمـر أكـثر صعوبـة في تلـك الأيـام، عندمـا كانـت موضـة البانـك الرثـة والملابـس المسـتعملة هـي الرائجـة. كـما لم أكـن أعـرف مينـا حينهـا سـوى خـارج سـياقها، في مـكان أجنبـي مؤقـت. ومـع ذلـك، شـعرت بالحماقـة. كانـت هنـاك الشـوكولاتة البلجيكيـة، والزهـور الموضوعـة دائمًـا بجانـب النافـذة. عـادت إليَّ إحـدى أقـوال والـدتي التـي تنضـح بالمـرارة: "الزهـور النـضرة في المنـزل تعنـي وجـود مـال فائـض". لمـاذا افترضـت أن نيـك ومينـا يتدبـران أمرهـما براتبـه؟ كان يجـب أن تكشـف لي صراعـاتي الشـخصية مـع نهايـة الشـهر طبيعـة ذلـك الخطـأ الفـادح. النسـاء التابعـات والرجـال المعيلـون: المـرأة الجريئـة الذكيـة ارتكنـت في تفكيرهـا إلى سـيناريو تقليـدي.

في وقـتٍ سـابقٍ مـن ذلـك المسـاء، تبادلنـا هدايـا عيـد الميـلاد ونحـن نتنـاول المشروبـات في شـقة مينـا. أهديتهـا شريـط كاسـيت لفريـق "سـبليت أنـز"، وأهديـت نيـك نسـخة مـن روايـة دي بوفـوار، "المدعـوة"، بينـما كانـت هديتـي التـي تلقيتهـا فسـتانًا. قصَّـت مينـا صدر فسـتان أزرق وأخـضر رأيتهـا ترتديـه مـن قبـل، وثبَّـتـت مكانـه قميصًـا عـثرت عليـه في سـوق السـلع المسـتعملة، ذا لـون وردي وتزيِّنـه خيـوط معدنيـة لامعـة. قالـت: "أردت أن أعطيـك شـيئًا لي، وليـس لي في نفـس الوقـت، سـيكون عبـارة عـن كلينـا معًـا".

أردت الاعتـذار حينـما كنـت أقـدم لهـما هدايـاي: "هـذا ليـس مو-ثـيرًا للاهتي-مـام". كانـت مشـتريات بسـيطة مـن سلسـلة متاجـر فنـاك. لـن أمتلـك مـا يكفـي مـن الجـرأة أبـدًا لارتـداء ذلـك الفسـتان. كان مصمَّـمًا لإثـارة الدهشـة، لا للارتـداء، لكـن مينـا ابتكـرت شـيئًا فريـدًا ذا طابـع فنـي. أعـدت تقييـم مـا تبادلنـاه مـن هدايـا بعـد أن افترقنـا، واستسـلمت لحسـابات تافهـة: لقـد أنفقـت عـلى مينـا ونيـك أكـثر بكثـيرٍ مـما أنفقتـه هـي عـليَّ. مـا يهـم هـو كـون المـرء قـد فكـر فيـك، أو هـذا مـا تربيـت عـلى الإيمـان بـه عـلى أي حـال. لكـن شـغلت ذهنـي أكـثر مـن فكـرة:

كانـت هنـاك فكـرة الفـن في مقابـل السـلع التجاريـة، وفكـرة مينـا الثريـة مقابـل ليـلي الفقـيرة، إلى جانـب فكـرة مينـا البيضـاء مقابـل ليـلي السـمراء. كانـت الفكـرة هـي مـا يهـم، بينـما سرت عائـدة إلى المنـزل تحـت النجـوم اللامباليـة، لكـن أي فكـرة كانـت هـي الأهـم؟

***

اجتمعنـا مـرة أخـرى في شـقة ديـتر في السـادس مـن ينايـر مـن أجـل عيـد الغطـاس. كانـت ديـب هنـاك، وكذلـك باسـكال أيضًـا. كنَّـا لا نـزال مبتهجـين مـن إجـازة عيـد الميـلاد، فتجرعنـا الشـمبانيا وتحدثنـا في نفـس الوقـت بأصـواتٍ مرتفعـة، وتبادلنـا الأخبـار عـن عطلاتنـا، بينـما كنَّـا محاطـين بخشـب البلـوط المصقـول كالمـرآة. قبـع طبـق مـن ثمـار اليوسـفي عـلى الحافـة الرخاميـة فـوق المدفـأة، وعبقـت الغرفـة برائحتهـا.

كان نيـك ومينـا آخـر مـن وصـل. رأيـت بدهشـة أن شـعرها صـار الآن أحمـر داكنًـا كالكـرز: أجمـل لـون. جلسـتْ بجـواري، وسـألتني عـن عطلـة عيـد الميـلاد التـي قضيتهـا في باريـس. بعـد فـترة، قلـت لهـا بصـوتٍ منخفـضٍ: "في العـام المـاضي، ظننـت أن شـعرك كان حقًّـا بذلـك اللـون".

لوت قسمات وجهها.

"ما لونه الحقيقي، إذن؟".

"من عساه يتذكر؟".

كان باسـكال قـد جلـب كعكـة عيـد الغطـاس: تلـك المعجنـات الدائريـة الشـكل المحشـوة بعجينـة اللـوز، التـي تُخبـز في تلـك المناسـبة. فُتحـت سـدادة زجاجـة أخـرى، وقُطعـت الكعكـة. أصـدرت شـوكة ديـب صـوت رنـين: كانـت قطعـة الكعـك خاصتهـا تحـوي تمثـالَ ملـك خزفيًّـا صغـيراً. تعـيَّن عليهـا ارتـداء تـاج ذهبـي مـن الـورق، والتعهـد بـشراء كعكـة عيـد

الغطاس في العام القادم. جعلتني الشمبانيا أشعر بالدوار، والتمع شعر مينا الناعم كالمصباح، وبدت في شعرها درجات عميقة من اللون الأرجواني. لماذا ظننتها عملًا من أعمال الطبيعة؟ كان يجب أن يكون من الواضح أنها عمل فني.

انتهت الحفلة سريعًا بعد ذلك، وتجمعنا على الرصيف لنودع ديب. قالت وهي تركب دراجتها البخارية: "هل سمعتم؟ لقد ألقوا القبض على سفاح يوركشاير"، ثم شرعت في الضحك. كانت ضحكة ديب من ذلك النوع الشبيه بالقرقرة، وبدت كما لو أن أحدهم يرج مشروبًا بداخلها. "لذا يا أصدقائي، ها هو وغد قاتل آخر خلف القضبان".

***

مالت الأمور وتحوَّلت مع العام الجديد، واقتنت مينا معطفًا أكثر دفئًا: معطفًا سميكًا بلون اليوسفي له قلنسوة، بدا صارخًا بجانب شعرها. قال نيك: "وما زالت حملة التقبيح مستمرة". أصدر قماش النايلون الزلق المصنوع منه المعطف هسيسًا خافتًا عند لمسه، وكانت الأفعال البسيطة، مثل وضع نيك لذراعه حول كتفيها، أو وضع مينا ليدها في جيبها، مصحوبة بتلك الهمسات.

كان الأمر سخيفًا، لكنني ظللت أفكر في شعرها: لماذا لم تذكر مينا أبدًا أنها صبغته؟ بدا من المفهوم كونها لم تكشف أنها ثرية، لكن هذا كان شيئًا تافهًا. كانت تتباهى بمساحيق التجميل عندما تضعها، وجفونها مطلية باللون الأحمر أو الأسود، والكحل ملطخ حول عينيها، ومثلث مضحك من أحمر الخدود على وجنتيها، لكن شعرها اللامع بدا طبيعيًا. وبَّخت نفسي بسبب غروري الذي استشعر الإهانة. لقد

تبدّد ذلك الوهم بأنني أعرف كل شيء عن مينا مرتين الآن. مع ذلك، أحسست بأن شعور الثقة بيننا قد انتهى.

كما لو أنها شعرت بابتعادي، قدمت لي مينا سرًا، وأقرّت بأن نيك يواجه صعوبة في كتابة روايته. كان قد خطط لكل شيء، حتى صارت شخصياته على قيد الحياة بالنسبة إليه، كما فكر في كل تطور في مصائرهم المختلفة. والآن عندما يجلس للكتابة، بات الملل الشديد يغمره، إذ إنه يعرف كل ما سيحدث، ولا يستطيع أن يحمل نفسه على تدوين كل ذلك.

قررت مينا أنه سيكون من المفيد أن يدخلا بعض الإثارة في حياتهما، بالسفر بالسيارة خارج المدينة في أيام الأحد. "نحن في حاجة إلى رؤية الأفق المفتوح، وعليك أن تأتي معنا يا ليلي، ستكون مونبلييه مملّة بشكلٍ لا يُصدَّق من دوني".

لذا توجهنا بالسيارة إلى جسر غار ذات يوم أحد، وفي يوم أحد آخر ذهبنا إلى إيغ مورت. كانت سيارة نيك زرقاء قديمة من طراز سيتروين دي إس اشتراها بعد قراءة أعمال بارت، وأطلق عليها اسم "الإلهة"، مستعيرًا تورية بارت. لم تكن مينا تحمل معها رخصة قيادتها، كما لم يكن لديها رخصة قيادة دولية، لذا تولى نيك القيادة دائمًا. جلستُ في مقدمة السيارة، وعلى ركبتي خارطة للطريق، لأن مينا ادّعت أنها لا تمتلك أي حسٍّ بالاتجاهات، وقالت إنها كثيرًا ما تضل الطريق في لندن، حيث قضت حياتها بأكملها.

قاد نيك السيارة بسرعة، واندفعت الإلهة على طول الطرق النابليونية، متجاوزة المنافسين بخفة، مندفعة حول الانحناءات شديدة الانحدار. صاحت مينا مهددة إياه من المقعد الخلفي، فسألها نيك: "كلوتيلد، هل نسيت الشجاعة التي واجه بها والدك فرقة الإعدام؟ يا لها من تهمة ملفّقة بشكلٍ واضحٍ، تلك التي وجّهها إليه هؤلاء

الديغوليون بعد الحرب. لم تكن سوى محاكمة صورية! كان توجيه موقد اللحام نحو رجال المقاومة البائسين هو ما يحتمه الواجب الوطني على ذلك الرجل العزيز. لم يطلق عليه أحد لقب خائن حينها". ابتسم نيك موجهًا إليَّ نظرة جانبية، والسيجارة عالقة بشفته على غرار بلموندو، وقال من دون داعٍ: "أعشق القيادة". بدا من المستحيل ألَّا أشعر بالانجذاب إليه حينها، إذ كانت سعادته أشبه بمجال مغناطيسي ملأ السيارة التي عبقت بالدخان.

***

كان هناك يوم أحد باردًا وصافيًا، مشرقًا بذلك النوع من الضوء الذي تشعر أن في وسعك أن تسحبه إلى أعماقك إذا رفعت إليه يدك فحسب. ناقشنا الذهاب بالسيارة إلى سيت، حيث دُفن بول فاليري. لم تكن مينا مهتمة به على الإطلاق، وأطلقت عليه لقب بول سيليري، أي كرفس بالإنجليزية. أرادت التوجه إلى التلال بدلًا من ذلك. في البداية، كان الطريق عبارة عن موكب من أشجار الدلب العارية ذات الأشرطة البيضاء المرسومة على جذوعها، وبدت ظلالها المتباعدة على مسافات دقيقة كما لو أنها خطوط علم فوق أسفلت الطريق. اندفعت الإلهة بجوار الأشجار، وصعدت في طريقها إلى الشجيرات وسط المنطقة العشبية النامية بين الأحجار الجيرية في لانغيدوك. وصلنا إلى طريق جانبي، وتركنا السيارة هناك ثم انطلقنا سيرًا على الأقدام، صعودًا على طريق صخري. ربطت سترتي حول خصري وشمَّرت عن أكمامي ونحن نتسلق، خطوة، بخطوة؛ أصبحتُ سيمون دي بوفوار أخيرًا.

ألقت الطيور بنفسها في الهواء، وبدا الريف الفوضوي عامرًا بالحيوية. تناثرت هنا وهناك الأشجار المقزمة التي تدلَّت منها ثمارٌ حمراء، وتساءلنا أنا ونيك عما إذا كانت صالحة للأكل. تخلَّفت مينا

وراءنـا، وهـي تطلـق الآهـات إعجابًـا بإكليـل الجبـل والزعـتر، فقـال نيـك بهمسـة مسرحيـة: "لقـد أبـرز هـذا جانبهـا الشـاعري، اسـتعدي للتدخـل".

عـاد ألتوسـير إلى الأخبـار مـرة أخـرى. اعـترف عـلى الفـور بخنـق ريتـمان، قائـلًا إنـه فعـل ذلـك تحـت تأثـير الهـلاوس. جـادل ثلاثـة أطبـاء نفسـيين بأنـه لا يجـب اتهامـه بالقتـل ولا يجـب أن يخضـع لمحاكمـة علنيـة. وبمـا أنـه كان لديـه تاريـخ طويـل مـن المـرض العقـلي، لـذا أرسـلته المحكمـة إلى مستشـفى للأمـراض النفسـية. اتفقنـا أنـا ونيـك أنـه قـرار إنسـاني، وبالطبـع كان المستشـفى بمنزلـة عقـاب. لكـن في الوقـت نفسـه، شـعر كلانـا عـلى نحـوٍ غامـضٍ أن ألتوسـير قـد أفلـت مـن العقـاب بعـد اقـتراف جريمـة قتـل. قـال نيـك: "يدفعـك هـذا إلى التسـاؤل، عـمَّا كان سـيحدث لـو لم يكـن مشـهورًا".

"أو لو كان قد خنق رجلًا".

كلـما فكـرت في هيلـين ريتـمان، صاحبتهـا في تفكـيري امـرأة أخـرى: شـقيقة فيليبـي، التـي لم يكـن لهـا اسـم، ورأيتهـا تسـقط في البـئر، في الظـلام اللامتناهـي، وتنورتهـا فـوق رأسـها.

أخـبرني نيـك أنـه انتهـى مـن قـراءة "المدعـوة": "أعتقـد أن النهايـة مفتعلـة، ولم أقتنـع بجريمـة القتـل عـلى الإطـلاق. هـل أنـت مقتنعـة بهـا؟".

"تتعرض النساء للقتل على الدوام، ماذا عن هيلين ريتمان؟".

"لا يتعرضـن للقتـل عـلى يـد نسـاء مثـل فرانسـواز. كل شيء آخـر حتـى تلـك النقطـة، علاقـات الصداقـة، والتوتـرات، كل ذلـك لا بـأس بـه". قبـض نيـك عـلى فـرع متـدلٍّ، وتأرجـح عـبر الطريـق. كانـت سـمرته قـد تلاشـت، وبـدا باطـن ذراعـه بلـون أبيـض شـاحب، وشـعرت بفيـضٍ مـن التعاطـف حيـال ذلـك الشريـط العاجـز مـن اللحـم. واصـل قائـلًا: "هـا هي المشـكلة: تجديـن بنـاء تفصيليًّـا لعـالم الروايـة، ثـم تجديـن جريمـة قتـل، لا يمكنـك الجمـع بـين الواقعيـة والميلودرامـا، فهـذا الأمـر غـير ناجـح".

لحقـت بنـا مينـا وهـي تفـرك بـين كفيهـا فرعًـا مـن إكليـل الجبـل، وقالـت: "جاسـتون، أنـت ببسـاطة لا تُقـاوم عندمـا تتعطـف وتتنـازل لتصقـل العقـل الأنثـوي الضعيـف. عـن نفسـي، لم أشـعر أبـدًا بالحاجـة إلى مطالعـة شيء آخـر سـوى "دليـل الأدب للمـرأة الكاثوليكيـة"، إنـه كتـاب نحيـف، مجلـد بأناقـة بجلـد أحـد الوثنيـين".

لكننـي لم أرغـب في أخـذ الأمـور ببسـاطة. قلـت لنيـك: "دي بوفـوار نفسـها قالـت إن النهايـة فوضويـة، لكنهـا قالـت أيضًـا إنهـا شـعرت بالاضطـرار إلى إنهـاء الروايـة بجريمـة القتـل تلـك، إذ لم تسـتطع قـول مـا تريـده بـأي طريقـة أخـرى".

قـال نيـك: "انظـري، إنهـا مجـرد مسـألة ذوق، لا أعتقـد أن دي بوفـوار تـداني سـارتر جـودة، هـذا كل مـا في الأمـر. "الغثيـان"، تلـك روايـة رائعـة حقًّـا".

كانـت هنـاك طبيعـة لتلـك المحادثـات التـي أجريتهـا وأنـا أصغـر سـنًّا، تسـتعصي عـلى الوصـف، يمكـن أن يُطلـق عليهـا مسـمى لامعـة أو مرنـة، لكـن كل مـا تتركـه في الذاكـرة هـو آثـار مسـتوية مسـطحة فحسـب. عـلى النقيـض مـن ذلـك، حافظـت الصـور عـلى أشـكالها الواضحـة. تبـدو صـورة مينـا في يـوم الأحـد ذاك واضحـة تمامًـا أمامـي: ترتـدي قميـص كـرة قـدم كفسـتان، نسـقته مـع سروال ضيـق مـن الدانتيـل وحـذاء كونفـيرس برقبـة مرتفعـة. قـررتُ في ذلـك اليـوم أن الفـوضى والطابـع المسرحـي في أزيائهـا نـوع مـن الميلودرامـا. كانـت الميلودرامـا تسـمح للنـاس بالتعبـير عـن شيء غـير مقبـول، وبكلمـة "النـاس" كنـت أعنـي "النسـاء". تسـاءلت عـما قـد تحـاول مينـا قولـه، كـما تسـاءلت عـما دفـع دي بوفـوار إلى القتـل، ومـن أو مـا الـذي أرادت قتلـه فعـلًا: سـارتر، أم الروايـات الرائعـة حقًّـا، أم اضطرارهـا الدائـم إلى بـذل جهـد في اختيـار أحذيتهـا؟

تناولنا الطعام على حافة صخرية تكسوها أزهار وردية صغيرة زاحفة. قلت وأنا أكوم المايونيز الدهني على بيضة مسلوقة: "كان هناك رجل في الراديو منذ بضعة أيام، يتحدث عن سنة 1980 بوصفها كارثية على الحياة الفكرية الفرنسية؛ قُتِل بارت في حادث، واعتُقل ألتوسير، وانهارت مدرسة لاكان الفرويدية، لم يذكر أنه لم يكن عامًا رائعًا لريتمان أيضًا".

قالت مينا: "يعتقد الفرنسيون أن المرأة الحائض لا يمكنها صنع المايونيز، كما أنهم ما زالوا يعدمون الناس بالمقصلة، لا تنسي ذلك".

"جميلتي كلوتيلد، هل أخبرتك عن تلك المرة التي اصطحبني فيها عمي المفضَّل، مدير السجون، لمشاهدة عملية إعدام؟ كان عيد ميلادي الثامن، لذلك سمح لي بالضغط على الزر الذي يطلق الشفرة، كانت تجربة رائعة، ويظل هذا أسعد يوم في طفولتي، يفوق حتى عصر ذلك اليوم الذي جلدت فيه الخادمات".

بدت السماء بدرجة زرقة أسترالية صارخة، لا تكترث بنا على الإطلاق. شرع نيك يغني "ذات صباح مخملي". كان نيك يجيد الغناء حقًّا، هل ذكرت ذلك؟ استندت مينا إلى الخلف على مرفقيها، وقالت إن عيد الميلاد نبَّهها إلى أي مدى تفتقد لندن وأصدقاءها اللندنيين. واصلت الحديث عن افتقادها مدرسة الفنون، وافتقادها الخروج لتناول الشراب في سوهو، وافتقادها ذلك العالم برمته. كانت لندن تناديها، وهو ما أصاب قلبي بالاضطراب.

ثم قالت: "جعلني هذا عازمة حقًّا على مواصلة العمل هذا العام. لديَّ مشروع جديد، وأنت بطلته يا ليلي، لأنك أنت من أوحيت لي به، ستكونين الآنسة إكس خاصتي".

كانت "الآنسة إكس" قصة في واحدة من تلك الصحف الأسبوعية المصورة للفتيات التي ازدهرت في الخمسينيات من القرن الماضي:

"بلورة الفتيات" ربما، أو "الصديق المدرسي". كانت إحدى الجارات في أستراليا تمتلك كل الأعداد القديمة، وقرأتها خلال نشأتي. كان "الآنسة إكس" هو الاسم الحركي لمغنية ملهى ليلي باريسي تُدعى أفريل كلير، تعمل في صف المقاومة. وصفت مغامراتها لمينا خلال واحدة من فترات خمولنا ما بعد الظهيرة. "كانت جميلة وموهوبة، وترتدي فساتين ضيقة، لم يتمكن ضباط قوات الأمن الخاصة النازية -الذين كانوا جميعًا يرتدون نظارة أحادية العدسة على الدوام- من مقاومة جاذبيتها. تحمَّلت مغازلاتهم، وتناولت ما قدموه من شمبانيا. ظنُّوا أنه لا يوجد منها أي ضرر، لذلك تحدثوا أمامها عن الإستراتيجيات العسكرية وخططهم السرية لأسلحة جديدة".

بعد ذلك، بعد ارتداء معطف واقٍ من المطر فوق فستانها، كانت الآنسة إكس تنقل ما جمعته من معلومات إلى أفراد المقاومة. أحيانًا كانت تأوي طيارًا مقاتلًا إنجليزيًّا أُسقطت طائرته وتساعده في العودة إلى لندن، أو تأتي لنجدة أحد أفراد المقاومة الفرنسية، وتشتت انتباه الحرس الألمان كي يتمكَّن من الهرب. كان الناس يبصقون عليها في الشوارع، اعتقادًا منهم بأنها متعاونة مع النازيين، لكن نظرًا إلى أنها تعرف الحقيقة، فقد تحمَّلت الإهانات بكبرياء. قلتُ لمينا: "أعتقد حقًّا أن الآنسة إكس هي السبب في اهتمامي باللغة الفرنسية في بادئ الأمر".

أجابت قائلة: "آنستك الغالية تلك ما هي سوى جزء من التغطية الفرنسية الضخمة لما وقع هنا في أثناء الاحتلال، أنت تدركين هذا، أليس كذلك يا ليلي؟ عندما لم تكن الآنسات الحقيقيات منشغلات بمضاجعة النازيين، كن يبلغن عن اليهود".

كشفت مينا الآن عما يدور في خلدها بخصوص نسختها الخاصة من الآنسة إكس: كانت ستتخلى عن خلفية الحرب، وكل شيء آخر

تقريبًا، مع الاحتفاظ فقط بفكرة المرأة التي تقود حياة مزدوجة، "لكن ليس ذلك الهراء عن امرأة جميلة باردة منغمسة في السادية والمازوخية، هذا مملٌّ للغاية، ومن الواضح أن رجلًا هو الذي كتب ذلك". كان من المقرر أن تولد الآنسة إكس من جديدٍ في تركيبٍ فني لقصة مصوَّرة اسمها "أودري الجريئة"، وكنت أنا أودري. من المفترض أن أكون امرأة ثرية تشعر بالملل، اعتادت التسلل خارجة من المنزل في عصر بعض الأيام لممارسة ما وصفته مينا بحياة من "الجريمة والمكايد".

بدأ العمل في الأسبوع التالي، وابتكر نيك عناوين لحلقات القصة: "وعود لم تتحقق"، و"سلك مكهرب"، و"نهاية اللعبة". عادة ما كانت مينا ترفضها، وتبتكر عناوينها الخاصة. استلقيتُ على مقعدٍ بذراعين، وبجواري مزهرية ضخمة، بينما أتناول الشوكولاتة بكسلٍ للتعبير عن كوني حبيسة في فخ البورجوازية. بعد ذلك، فتحت باب الشارع المؤدي إلى مبنى مينا جزئيًّا، ونظرت بحذرٍ إلى يساري. قبضت على مقود الإلهة وأنا أعبس أمام الكاميرا، (لا تبتسمي أبدًا: قاعدة مينا التي لا يمكن مخالفتها). أوقفتني ذات مرة في وضعية الخروج من مؤخرة السيارة، وأنا ألوِّح بمسدس. كان المسدس ديكورًا مسرحيًّا قديمًا أرسله صديق من لندن، وظهر كثيرًا في مغامراتي. جثوت على ركبتي لإطلاقه، أو وقفت بصورة جانبية مثل ملائكة تشارلي، وأنا أمسكه بيدي المرفوعتين إلى الأعلى.

تطلَّب الأمر تبديل الأزياء، وأعتقد أن هذا كان عامل الجذب الحقيقي للمشروع بالنسبة إلى مينا. كان لديَّ قميص نوم، وقميص داخلي من الستان، ولآلئ بلاستيكية لمرحلة التصوير الداخلي، ثم سلسلة من الملابس القديمة التي عثرت عليها مينا. تذبذبت الفترة الزمنية: كان هناك فستان رقيق مزين بالزهور يعود إلى الثلاثينيات، وفستان نيولوك تتسع تنورته من عند الخصر. استعنَّا بنيك في مشهدٍ

أو مشـهدين. ارتـدى بدلتـه وجلـس إلى طاولـة خلـف زجاجـة ويسـكي وكأسـين، بينـما وقفـت بإحـدى يـديَّ عـلى كتفـه، وأنـا أدخـن سـيجارًا. ارتديـت قبعـة في تلـك اللقطـة، وبدلـة ذات تنـورة مـن الصـوف. أحببـت البدلـة، إذ كانـت دافئـة. بقيـت مرتديـة معطفـي التويـد حتـى آخـر لحظة قبـل التقـاط اللقطـات الخارجيـة. كنـت أصيـح: "لقـد تجمـدت أثـداء أودري الجريئـة!"، حينـما كانـت مينـا تنشـغل بالعبـث بعدسـة الكامـيرا، أو تمـص صليبهـا، أو تلقـي عـليَّ بالتعليـمات لتعديـل وضعيـة وقـوفي.

***

الـشيء الرائـع في هـذه الفـترة بأكملهـا هـو أن رينالـدي لم يكـن موجـودًا. بعـد محادثتنـا الأخـيرة، تركـت لمبـة كهربائيـة في عبوتهـا خـارج بابـه، وأرفقـت معهـا رسـالة. ثـم اسـتعددت لانتقامـه، وأنـا عـلى يقـين مـن أنـه سيشـعر بالحاجـة إلى معاقبتـي لكـوني حرمتـه مـن ذريعتـه في اللقـاء. اختفـت اللمبـة، لكـن لم يحـدث شيء. ذهبـت إلى باريـس في عيـد الميـلاد، ثـم عـدت وبـدا أن رينالـدي قـد اختفـى، لم تعُـد الموسـيقى الصاخبـة تتـسرب خـارج بابـه، واشـتعل الضـوء عـلى السـلم بسلاسـة.

وصَّـل السـيد لافـال أسـطوانات الغـاز الشـهرية الخاصة بي. كان شـارعي ضيقًـا بحيـث لا يسـمح بمـرور السـيارات، لـذا كان يوقـف سـيارته في أقـرب مـكان ممكـن، ثـم يحمـل الأسـطوانات عـلى عربـة خشـبية، كنـت أسـمع اهتزازهـا فـوق أحجـار الطريـق، وكان هـذا الصـوت أيضًـا ينتمـي إلى عـصر فلوبير.

نشـأ طقـسٌ صغـيرٌ خـلال زيـارات السـيد لافـال: بعـد صعـوده لاهثًـا وهـو يحمـل آخـر أسـطوانة، كنـت أناولـه الإيجـار، ثـم نتنـاول كأسًـا مـن النبيـذ، ويدخـن السـيد لافـال سـيجارة. عنـد حضـوره في المـرة التاليـة، ذكـرت أنـني لم أرَ رينالـدي منـذ فـترة. قـال السـيد لافـال إنـه كثـيرًا مـا

يسافر بسبب عمله، وأحيانًا كان يسافر إلى الخارج: بلجيكا، وإيطاليا، "وحتى إلى أماكن بعيدة مثل إنجلترا". سألت عن نوع العمل الذي يمارسه رينالدي، لكن السيد لافال لم يكن يعلم. بدا الأمر مخيبًا للآمال، إذ إنني تمنيت أن يكون قد انتقل للسكن إلى مكان آخر.

***

في السوق، أخبرت ساندرين عن الثمار الحمراء الصغيرة التي رأيتها وسط الشجيرات في المنطقة العشبية، وقالت إنها ثمار شجر القطلب: فراولة شتوية يمكن أكلها نيئة، أو استخدامها في أي وصفة تتطلب التوت. لم تستطع تصديق أنني لم أقطفها، وعبَّرت عن ذلك صراحة، قائلة إنني ضيعت الفرصة.

الشيء الآخر الذي علمته هو أن ساندرين كانت مخطوبة، وعلى وشك الزواج. كان خطيبها، رياض، يعيش في الجزائر حيث يعمل في فندق في وهران. أرتني صورة: كانت له ابتسامة عريضة، وشعر رمادي حليق كالسجادة. تعارفا منذ أربع سنوات، وخُطبا منذ ثمانية عشر شهرًا. ذهبت ساندرين إلى الجزائر في عيد الميلاد، إذ لم يتمكَّن خطيبها من زيارتها لأنه غير مسموح له بدخول فرنسا بينما طلبه للحصول على الإقامة لا يزال معلقًا. "لديَّ موعدٌ في مقر الشرطة الأسبوع المقبل، وهذا هو الموعد الثاني. يقولون إنه يستغلني حتى يتمكَّن من العيش في فرنسا، ويقولون إن العربي لا يمكن أن يسعى إلا وراء أموالي، كما لو أنني أمتلك أي شيء! في الموعد الأول، سألني وغد ما لماذا لا يروق لي رجل فرنسي. قلت له: "هل تعرف ما فعله الفرنسيون بالجزائريات خلال الحرب؟ اغتصبوهن بزجاجات كوكاكولا مكسورة"، لكن عليَّ التزام الحرص في حديثي، وإلا سيجدون سببًا لرفضه".

سألتها لماذا لا يتزوجان في الجزائر لتقوية موقفهما، فأخبرتني أن خطيبها أرمل، وأحد أبنائه معاد للعلاقة، في حين لا تريد هي أي تعقيدات. عندما كانت ساندرين تنطق بكلمة "خطيبي"، كانت تبدو كتحدٍّ، وليس كهاجسٍ من هواجس العنوسة. خلعت قفازها لتظهر لي خاتمها، الذي بدا ذرة صغيرة لامعة.

في الأيام التي تلت ذلك، تساءلت عمَّا إذا كان يجب أن أتحدث إلى السيد بيسيه بشأن طلب رياض، بهدف طلب مساعدته، لكنني خفت من التسبب في الضرر من خلال تدخلي. زودت ساندرين مقر الشرطة بنسخٍ من مراسلاتهما، وإذا فحصها السيد بيسيه، فمن عساه يدري ما هي الاستنتاجات غير المواتية التي قد يستخلصها من حرف الـ L الذي خطَّه رياض بيده الأجنبية؟

قررت طلب المشورة، وخلال الغداء في غرفة طعام الموظفين بالمدرسة الثانوية، لخَّصت موقف ساندرين. ولم تكن هناك مجازفة في وصول الأخبار إلى السيد بيسيه، لأن السيدة بيسيه لم تكن هناك، إذ كانت تسكن على مسافة قريبة إلى درجة أنها دائمًا ما كانت تعود إلى المنزل لتناول الغداء، لكن غرفة الطعام كانت مزدحمة ذلك اليوم نظرًا إلى كونه يوم ثلاثاء، مما يعني أنهم يقدمون اللحم مع البطاطس المقلية، وهو أفضل ما في الأسبوع. بعد أن ألقيت خطابي الصغير على الجالسين حول الطاولة، أنهيته على نحوٍ ضعيفٍ نوعًا ما، بالسؤال عما إذا كان في إمكان أي شخص توجيه النصح إلى صديقتي حول كيفية تسريع الأمور.

طلبت امرأة تُدرِّس الفرنسية أن يمرِّر لها أحدهم المسطردة. كانت مذهلة الجمال، تشبه كاثرين دونوف، وبدا من الواضح أنها من ذلك النوع من النساء اللاتي لا يطلقن الريح. قالت لي وهي تدهن شريحة لحمها الزرقاء اللون بالمسطردة: "ليس لدينا مشكلة مع

السود، كما تعلمين". كانت نبرتها الفرنسية بنفس نقاء نبرة رينالدي، وهو نقاء فشلتُ في تحقيقة طوال سنوات، "إنهم مسيحيون، ولدينا نفس القيم، لكن العرب مسلمون، وهم لا يندمجون معنا".

علَّق رئيس قسم الفلسفة قائلًا: "علاوة على ذلك، يجب أن يتحمَّل الفرد المسؤولية الكاملة لحياته، من دون طلب العون من الآخرين".

شكرته المرأة التي لا تطلق الريح لتذكيرنا بذلك الدرس الخالد للفلسفة الوجودية، وبدت أسنانها البيضاء المربعة ملائمة لقضم التفاح.

كان لرئيس قسم الفلسفة فم يُغلق بإحكامٍ، كما لو أنه يطبق على سرٍّ. فتحه ليتساءل بصوتٍ مرتفعٍ عمَّا إذا كان من الأخلاقي أن يتصرف المرء بطريقة قد تؤثِّر في توجيه سلوك الآخرين. خلص في النهاية إلى أن "التواضع المعرفي لاستجواب سارتر الذاتي لا يفشل أبدًا في الكشف عن غطرسة الشفقة المزعومة".

واصل الحديث مع المرأة التي لا تطلق الريح، واكتشفا أن كليهما يعشقان سبينوزا، كما اعترفت أنها تحب ميستر إكهرت أيضًا.

سألت مدرسة متخصصة في الكلاسيكيات عن خطط الجميع لعطلة منتصف العام. عن نفسها، كانت تنتوي البقاء في المنزل ومشاهدة ما فاتها من حلقات مسلسل دالاس.

رافقني ديتر في أثناء عودتي إلى غرفة الموظفين بعد الغداء. كانت ملامح ديتر العزيز مليئة بالحماس والفكاهة، قال: "أتعرفين "الغريب"؟".

"بالتأكيد".

قـال ديـتر: ”كانـت أول روايـة فرنسـية قرأناهـا في المدرسـة. درسـنا استخدام كامـو الثـوري لزمـن الماضي التـام، وارتبـاط ذلـك باغـتراب بطـل روايتـه. كـما تحدثنـا عـما يعنيـه الأمـر عندمـا قـال مورسـو إن الشـمس دفعتـه إلى إطـلاق النـار عـلى العـربي. هـذا مـا درسـناه: فلسـفة كامـو عـن العبـث، وأصالتـه الأسـلوبية. شـاهدنا الفيلـم، وكان ماسـترويياني فائـق الوسـامة، فوقـع الجميـع في غرامـه في الحـال. شـعرنا بالحـزن لإعـدام مورسـو، وليـس لمـوت العـربي. لم نفكـر في ذلـك، ولا في سـبب وجـود الفرنسـيين في الجزائـر عـلى الإطـلاق“.

***

أُصبـتُ بـدور بـرد، مصحـوب بالتهـاب الحلـق والسـعال. التقطـت العـدوى مـن ديـب، لكننـي ألقيـت باللـوم عـلى مينـا. عندمـا أخبرتهـا أن ديـب مريضـة، ردَّت بـأن جميـع مـن تعرفهـم في إنجلـترا مصابـون بالإنفلونـزا، وقالـت ببهجـة: ”وهـا نحـن هنـا بصحـة جيـدة تشـارف حـد الوقاحـة!“، مضيفـة أن ذلـك كان مـن الأقـوال المفضَّلـة لجدتهـا الألمانيـة. شـعرتُ بالصدمـة، إذ كنـتُ أميـل في أعماقـي إلى الإيمـان بالخرافـات: يـا لهـا مـن عجرفـة، كـما لـو أنهـا تغـري الأقـدار بذلـك، وفي غضـون سـاعات، جـاءت العطسـة الأولى.

بينـما كنـت مريضـة، حـدث شيء مخيـف. اسـتيقظت ذات ليلـة لأن شـخصًا مـا يتنفـس بصـوتٍ مرتفـعٍ شرع يجرجـر خطواتـه تدريجيًّـا نحـو فـراشي. أخـذ يقـترب، ويتوقـف، ثـم يسـتأنف تقدُّمـه ببـطء، وسـيقتلني عندمـا يصـل إلى الفـراش. حينهـا اسـتيقظتُ بالفعـل، لكـن نظـرًا إلى أن مشـهد الكابـوس كان في غرفـة نومـي، لم أدرك أننـي كنـت نائمـة. ظللـتُ أعتقـد أن الشـخص موجـودٌ في الجـوار، جاثـم عـلى الأرض في الظـلام،

وسـينقض عـليَّ إذا أضـأت المصبـاح. كان أنفـي مسـدودًا، وأنفـاسي مؤلمـة وعاليـة الصـوت، وفي النهايـة، فهمـت أننـي أنـا الوحـش الـذي سـمعته.

حينهـا تعـالى صـوت المرحـاض، وتـلا ذلـك وقـع خطـوات سريعـة وخفيفـة، لم تتوقـف عنـد البسـطة أمـام شـقتي، بـل واصلـت هبـوط الـدرج.

في صبـاح اليـوم التـالي كان بـاب المرحـاض مغلقًـا، رغـم أننـي أتركـه مفتوحًـا دائمًـا لمنـع أي شـخص مـن الاختبـاء هنـاك. وقفـت أرتجـف عـلى الـدرج البـارد، مصيخـة السـمع لالتقـاط أي صـوت خافـت، وسرعـان مـا ألحَّـت عـليَّ مثانتـي، فدفعـت البـاب وفتحتـه، ولم يكـن هنـاك أحـد.

لم يكـن لـديَّ دروس في ذلـك الصبـاح، لذلـك عـدت إلى الفـراش لبضـع سـاعات. توجَّهـتُ في وقـتٍ لاحـقٍ إلى كابينـة هاتـف، واتصلـت بالمدرسـة لأبلغهـم أننـي لـن أذهـب في ذلـك اليـوم، ولا اليـوم التـالي. ظـلَّ جـو الحلـم يحيـط بي: شـعوري بالرعـب، والوحـش وهـو يزحـف مقتربًـا. وبـدا الأمـر واقعيًـا بشـدة، إلى درجـة أننـي بعـد فـترة لم أسـتطع القـول مـا إذا كانـت الأصـوات التـي أعقبـت ذلـك -صـوت المرحـاض، ووقـع الأقـدام- جـزءًا مـن الحلـم في الواقـع.

في الصيدليـة، اشـتريت شرابًـا لعـلاج السـعال، وأقـراص الاسـتحلاب، وبخاخـة لحلقـي. كان ضـوء مـا بعـد الظهـيرة يبعـث عـلى الصـداع، والشـمس تلتمـع تحـت طبقـة رقيقـة مـن السـحب بينـما أنـا في طريقـي إلى المنـزل. انعطفـتُ إلى شـارعي، ورأيـت امـرأة بيضـاء كالشـمع تخـرج من بنايتـي. كانـت أنصـع بياضًـا مـن شـمعة محفوظـة في الفريـزر، وتناثـرت عنـد عنقهـا خصـلات سـوداء مـن شـعرها المعقـود، كـما لـو أنهـا رفعتـه عـلى عجـلٍ. أبعـدت خصلـة طيَّرهـا الهـواء أمـام فمهـا، فبـدا أن حتـى شـفتيها غابـت عنهـما الدمـاء. الـشيء الوحيـد الزاهـي فيهـا كان خاتمًـا التمـع بـه حجـر باللونـين الأزرق والأخـضر. نظـرت إلى وجهـي مبـاشرة،

وابتسمتْ قبل أن تسير متبعدة. كانت ابتسامة تنم عن أنها تعرفت عليّ، فعاد شعور الرعب الذي غمرني الليلة الماضية سريعًا مرة أخرى.

سقطت في الفراش وغرقت في النوم من دون أحلام لعدة ساعات. وعندما استيقظت، قمت بتسخين الحساء. ظل الكابوس يلازمني بعناصره، وبدت السيدة الشمعية كأنها تنتمي إليه، بالانطباع الذي خلَّفته كما لو أنها قامت من أحد القبور، حتى إن ملابسها المنسدلة الداكنة بلون التربة بدت ملائمة لجثة. ثم تذكرت أن حواف المباني صارت باهتة المعالم عندما خرجت من الصيدلية عصر ذلك اليوم. حينما كنت أسير عائدة إلى المنزل، تداخلت الأشكال في الأفق. خلصت إلى أن تلك المرأة الشمعية، ذلك التجسيد الصامت لفيلم رديء منخفض الميزانية، لم تكن سوى مجرد سرابٍ أكثر تفصيلًا. أما بالنسبة إلى باب دورة المياه، أخبرت نفسي أنني لا بد وأن أكون قد أغلقته الليلة الماضية في غمرة تفكيري الضبابي وأنا مصابة بالمرض.

خرجت إلى بسطة السلم كي أذهب إلى دورة المياه، وسمعت صوت موسيقى. كانت أغنية حب فرنسية هلامية، على سبيل التغيير، لكن لم يكن ثمة شكٌّ في مصدرها: لقد عاد رينالدي.

***

بعد عدة أيام، تحسَّنتُ بما يكفي للخروج والتجول في المدينة مرة أخرى. توقفت لقراءة لوحة في شارعٍ غير مميز بإحدى الضواحي. كانت مثبتة على جدارٍ لا يمكن رؤية شيء خلفه سوى سقفين وقمم أشجار. حددت اللوحة مجمع المباني كموقعٍ لمقر الجستابو في أثناء الاحتلال. تعرَّض أفراد المقاومة للتعذيب داخل تلك الفيلات، وأُعدِم الناجون أو أُرسلوا إلى معسكرات الاعتقال. نهض الماضي من قبره، وترنَّح عقلي كما حدث عندما علمت أن فيليبي كان من قدامى

المحاربين في الحرب الأهلية الإسبانية: صدمة القديم. بدت الأشجار العارية من الأوراق التي تطل من فوق الجدار بلون الذئاب.

كنت قد رأيت لوحة أخرى في مونبلييه، في القلب التاريخي. حددت اللوحة البناية التي عاش فيها جان مولان. وكان جان مولان، الذي قُتِل على يد الجستابو، أشهر مقاوم في فرنسا، وعلى غرار مدرستي الثانوية، أُطلق اسمه على الشارع الذي تقع به البناية. كلما رأيت كوكا كولا معروضة للبيع، تذكرت النساء الجزائريات اللاتي تعرضن للتعذيب لمقاومتهن الاستعمار، وأملت أن تكون هناك لوحة في الجزائر لتخليد ذكراهن. تمنيت أن يكنَّ قد فزن بالتاريخ كمكافأة نظير حياتهن. في الحافلات، كنت أنتقي رجلًا فرنسيًّا في منتصف العمر، وأتخيله شابًّا يرتدي الزي العسكري، يلتقط زجاجة ذات منحنيات، ويحطم رقبتها.

***

جاء يوم سبت رائع، بدا مستمدًّا من الربيع. كان الضوء صافيًا إلى درجة حارقة، ولا يشبه في شيء ذلك الضوء النحاسي الملطَّخ في سيدني. حلَّ الدور على نيك ليصاب بالبرد، لكنني أنا ومينا وديب استقللنا الحافلة وتوجهنا إلى الشاطئ. لم يكن لا جراند موت يقع على مسافة بعيدة، وهو منتجع أُنشئ في الستينيات. وجدناه مزدحمًا بمبانٍ بيضاء ضخمة هرمية الشكل، تضم شققًا وفنادق، توهجت تحت الشمس مثل عظام ديناصورات في ديستوبيا مستقبلية. أما بالنسبة إلى الشاطئ، فبعد أستراليا لم يكن لديَّ ما أقوله عن ذلك الشريط من الرمل المخلوط. لكن مينا وديب ألقتا نظرة واحدة على مياه البحر المتوسط الناعمة المتماوجة، وتجرَّدتا من ملابسهما حتى صارتا بملابسهما الداخلية. اختبرت الماء بإصبعي، حتى خرجت الأخريان بعد خمس دقائق وقد بدت عليهما القشعريرة، وكلاهما تشعان بالبهجة.

لم تعد ديب زرقاء، بل أرجوانية اللون، وقالت مينا: "لا أصدق أنني سبحت في البحر في شهر فبراير، سيغضب نيك بشدة". أخذت أسنانها تصطك كما لو أنها تمارس الرقص النقري.

كنّا قد خططنا لجلسة تصوير لأودري الجريئة. ارتديت بدلة عمل ملطخة ببقع الطلاء، وكان عليّ الوقوف وإحدى قدمي على قاربٍ مربوطٍ في المرسى، ومنظاري المقرِّب مصوب نحو البحر. كانت مينا تقول دومًا إنها لن تجشم نفسها عناء الاكتراث بالجودة الفنية: كان هذا تأثير البانك عليها، حيث أرادت أن تبدو صورها تلقائية، كتلك التي يلتقطها الهواة. لكن لم يكن هناك ما يمكن عمله في هذا الضوء في الوقت الحالي، لذا اشترينا زجاجة نبيذ، وجلسنا نحتسيها تحت الشمس لتمضية الوقت.

أخبرتنا ديب أن آل بيسيه صمَّما على الإرسال في طلب طبيبهما عندما كانت مريضة. "كتب وصفة طبية بها الكثير من الأدوية، وذهب كلود..." -كان هذا هو ما تنادي به السيد بيسيه الآن- "ذهب لشرائها. إنهما لطيفان حقًّا، أما سولانج،" -أي السيدة بيسيه- "فقد قالت إنه لا معنى للانتظار، وأن لديهما أحد الأدوية التي أحتاج إليها، ثم غابت وعادت وبحوزتها قرص دواء ضخم للغاية. شعرت بالتوعك الشديد، فسألتها عما إذا كانت تمانع في ملء كوب الماء الخاص بي. لذا فعلتْ، وكنت على وشك ابتلاع القرص، فصرختْ قائلة بالفرنسية إنه لبوس. شكرتها، لكنني فكرت أن هذا ليس الوقت الملائم لدروس اللغة الفرنسية، أليس كذلك؟ رأت أنه ليس لديَّ أي فكرة عن الموضوع على الإطلاق، فتعيَّن عليها أن تشرح الأمر، هل يمكنكما تصديق ذلك؟ قلت إنه من المحال أن أعالج التهاب الحلق عن طريق حشر أشياء في مؤخرتي، لكنني قلتها بالفرنسية بالطبع".

***

أتى أصدقائي من باريس إلى الجنوب لقضاء عطلة منتصف الفصل الدراسي، وذهبنا إلى إسبانيا، في حين قضى مينا ونيك الأسبوع في التزلج مع والديها في فال ديزير.

وعندما عدت من إسبانيا، كانت موسيقى رينالدي في الانتظار، تتربّص بي. كانت أغنية حب متملقة أخرى، كما كان الحال دومًا هذه الأيام. تغيَّر ذوق رينالدي، أو تحرر من الادعاء والتكلُّف، وبينما كنت أصعد الدرج حاملة حقيبتي، أخذ رجل فرنسي يغني: "أطاردها عبر الطرقات".

استؤنفت الدراسة، وفي صباح اليوم الثاني، وجدت فيليبي جالسًا بمفرده إلى الطاولة في غرفة الموظفين التي عبقت برائحة السجائر. لم يسبق وأن تحدث معي من قبل، باستثناء تحيات الصباح التي تتطلّبها قواعد اللياقة الفرنسية، لكنه رفع إليّ نظره في ذلك اليوم، وقال: "هل سمعت؟".أخبرني أن انقلابًا وقع في مدريد الليلة الماضية. اقتحم ضابط برتبة مقدم البرلمان، مدعومًا بمائتي ضابط مسلحين بالبنادق. أطلقت النيران، واقتيد رئيس الوزراء من القاعة، وسرت شائعات بسجنه أو موته. احتجز الضباط أعضاء البرلمان كرهائن، وتحدثت الإذاعة عن الدبابات في شوارع فالنسيا. مات فرانكو منذ أقل من ست سنوات، وها هو كل شيء يتكرر من جديد. كان فيليبي حليق الذقن، لكن أصابعه مسَّدت ذكرى قديمة فوق شفته العليا وهو يتحدث، وبدا كما لو أنه على أحد التلال في إسبانيا، يطلق النار على الجنود عبر النهر. قال: "هذا الحنين إلى الفاشية لن ينتهي أبدًا".

كنت في مدريد قبل ستة أيام، وكانت المدينة هادئة وخاملة، وآثار الشتاء لا تزال بادية على ميادينها الفخمة التي التمعت فوقها أشعة شمس واهنة. بدا سكانها الأنيقون من دون خطط، ومن دون بهجة. قال فيليبي: "يجب أن أعود". بعد تلك النظرة الأولى، لم يلتفت نحوي

ثانيـة. كان يرتـدي قميصًـا قطنيًـا فضفاضًـا أبيـض اللـون، وأسـاور الأكـمام مفتوحـة. تسـاءلت عمـن يتحـدث إليـه حقًـا، جالسًـا هنـاك غـير مـرئي عـلى الجهـة المقابلـة مـن الطاولـة. الصبـي الـذي يركـض فـارًا عـبر جبـال البرانـس كي ينجـو بحياتـه؟ الفتـاة الفرنسـية التـي تزوجهـا؟ نهـض فيليبـي واقفًـا عـلى قدميـه، وفـرد ظهـره: بـدا جاهـزًا لتلقـي الأوامـر. لطالمـا كان المـاضي هـو المـكان الـذي ينتمـي إليـه. ولكـن بحلـول ذلـك المسـاء، كان كل شيء قـد انتهـى، وفشـل الانقـلاب، إذ رفـض الملـك مسـاندته واعتقـل قادتـه.

خـلال فـترة الاسـتراحة في اليـوم التـالي، سـاد المـرح غرفـة الموظفـين، واسـتقبلتني ابتسـامات مشاكسـة عندمـا دخلـت. اندفعـت السـيدة بيسـيه نحـوي صائحـة: "سـيتزوج أمـيرك!". رفعـتْ صحيفـة بيدهـا، فرأيـتُ أن أمـير ويلـز خطـب ديـب:كان لهـا نفـس الشـعر الأشـقر القصـير، وترتـدي بلـوزة ذات شريـط معقـود عنـد العنـق مثلهـا، ومـن المحتمـل جـدًا أنهـا تشـاركها أيضًـا نفـس الهواجـس بخصـوص حـشر أشـياء في مؤخرتهـا.

جلـس فيليبـي مـع رفاقـه المعتاديـن، صامتًـا وسـط الغرفـة التـي تمـوج بالحركـة، بعـد أن سُـحبت الدعـوة الأخـيرة الموجهـة إليـه للمـوت مـن أجـل الجمهوريـة. كان يرتـدي سـترة محبوكـة، وقـد شـمر أكمامـه. أدركـت أننـي كنـت مخطئـة بشـأنه في اليـوم السـابق، لم يكـن قـد دخـل التاريـخ، بـل خـرج مـن لوحـة رأيتهـا في إسـبانيا. أتتنـي الذكـرى مـع قميصـه الناصـع وأسـاور أكمامـه المنتفخـة، إذ كان جويـا قـد ألبـس قميصًـا مثلـه لذلـك الوطنـي شـاحب الوجـه الـذي كان عـلى وشـك التعـرض للإعـدام رميًـا بالرصـاص في لوحـة الثالـث مـن مايـو.

***

ذهبت إلى مقهى مع مجموعة من طلاب السنة النهائية عقب انتهاء اليوم الدراسي، وصارت السماء بنفسجية اللون بحلول الوقت الذي ركبت فيه الحافلة للعودة إلى المنزل. وقفنا وسط الزحام المروري في ساعة الذروة، قبالة صفٍّ من السيارات المصفوفة على الجانب الآخر من الطريق، ورأيت رينالدي يتجه نحوها. ارتدى سترة جلدية بدلًا من معطفه الواقي من المطر، وبينما كنت أراقبه، فتح باب شاحنة صغيرة، من ذلك النوع من الشاحنات الذي يقوده العمال، وليس ما أتوقعه على الإطلاق من رينالدي بحقيبته ولكنته الأنيقة. كان هناك شخص ما في مقعد الراكب، وانتابني شعور بالصدمة عندما تعرَّفتُ على وجهها الشبيه بالأشباح؛ كانت المرأة الشمعية حقيقية بالفعل إذن. لا بد أنها خرجت من شقة رينالدي ذلك اليوم، عندما رأيتُها أول مرة. زحفت الحافلة إلى الأمام ببطء، وحنيت رقبتي في محاولة لاختلاس نظرة أخيرة، لكن حركة المرور في الاتجاه الآخر حجبت الشاحنة.

كنَّا في شهر مارس، واكتست الأشجار بزغبٍ أخضر. ذات ليلة، حلمت برينالدي: حلمًا قويًّا ضبابيًّا، حرَّك فيه رأسه بين ساقي، بينما قبضت أصابعي على شعره المغرور. سرت في جسدي أنا أيضًا تلك القوة النهمة التي دفعت أوراق شجر جديدة في هذا العالم، وانتابت جسدي جرأة ومشاعر عاصفة، وبات على استعداد للغناء.

صار الجو معتدلًا الآن في بعض الأحيان خلال فترات ما بعد الظهيرة، بدرجة تكفي للاستغناء عن ارتداء سترة، وتحركت في الشوارع هيئات أشخاص محددة بوضوح. تبادل الطلبة القبلات بأفواه مفتوحة في فناء المدرسة الرمادي الشبيه بالسجن، وعند تبديل ثيابي، كنت أكتشف آثارًا بيضاء تلطخ بطانة ملابسي الداخلية. لم أمارس الجنس مع أحد منذ ذلك الرجل الذي اشترى لي المعطف الواقي من المطر، إلا مع نفسي. قال رجل المعطف ذات مرة: "أتدرين سبب وجود سيقان

للنساء؟ كي لا يخلفن آثارًا مثل الحلزون في كل مكان"، فضحك جميع الحاضرين، بما في ذلك النساء، بمن فيهم أنا.

وصف كلٌّ من دي بوفوار وسارتر علاقتهما بأنها ضرورية. بعد الاتفاق على ذلك، خاضا العديد من العلاقات التي أضفيا عليها طابعًا وجوديًا وساحرًا من خلال وصفها بأنها عابرة. قال ديتر بالفرنسية وهو يحادثني ذات صباح: "استمتعت بجنسٍ رائعٍ في عطلة نهاية الأسبوع". عادة ما نتحدث أنا وديتر بالإنجليزية -إذ كان مجتهدًا على الدوام، وكان عازمًا على تحسين لهجته- لكنه كان يعود إلى التحدث بالفرنسية حينما يتكلم عن الجنس. أردت أن أكون ديتر: أردت الاستمتاع بجنسٍ رائعٍ مع رجلٍ عابرٍ. لكن لم يكن هناك مرشحون يصلحون في عالمي الضيق من مساعدي مدرسي اللغة وفي محيط العمل. فكرت لفترة في قبول إحدى الدعوات التي يقدمها إليَّ أولئك القادمون من شمال إفريقيا بصفيرهم في الشارع، لكن هؤلاء الرجال كانوا كبارًا في السن بدرجة تقمع أي مشاعر، إذ كان بعضهم أكبر من رينالدي! رجالٌ متقدمون في السن، طال شعر أنوفهم! لكن ذلك لم يمنعني من قرص حلمتيَّ، وإطلاق العنان لخيالي ليسرح مع الصور: غرفة الفندق القذرة حيث أجثو فوق البيديه للاغتسال، والورود الزرقاء المجعدة على غطاء السرير الذي أفسدنا ترتيبه.

***

جاءت ديب لتناول الشاي. جلسنا في المطبخ، حيث افترش سطح الطاولة فطائر الصنوبر، و"المطهو مرتين" بالشوكولاتة، وتلك المخبوزات المصنوعة من عجينة الشو المعروفة باسم روليجيوز، لأنها تشبه الراهبات الصغيرات البدينات، اللاتي أحببت قضم رؤوسهن. بدلًا من الشاي، قدمتُ الشمبانيا، وأعلنتُ أننا نحتفل: وصلت الرسالة التي

كنت أنتظرها. "فزت بمكان في كلية ليدي مارجريت هول، وسأذهب إلى أوكسفورد في سبتمبر القادم لدراسة الدكتوراه".

قالت ديب: "كم هذا جميل"، وقرعنا كأسينا ببعضهما. تناولتْ جرعة من الشمبانيا، وقالت: "كيف تمكنت من ذلك؟".

" كما تعلمين، بالطريقة المعتادة. تقدمت بطلب، وقدمت المراجع الوظيفية، ونسخًا من شهاداتي الدراسية، وتقدمت بخطة بحث".

"كل ما في الأمر هو، حسنًا... لقد نويت الذهاب إلى مانشستر منذ البداية، فلا يوجد من يضاهيهم فيما يتعلق باللغات الحديثة، فهم يحاولون إثناءك عن التحدث باللغات الأجنبية في أوكسفورد، كما تعلمين، حيث يعتقدون أنه يجب ترك ذلك للأجانب. لكنني أعرف أشخاصًا خاضوا امتحانات قبول جامعة أوكسفورد، ليس أنا شخصيًا، كما قلت، ولكن أصدقاء".

"أنجوس؟".

"لا يكفي الحصول على الدرجات اللازمة، بل يجب أيضًا أن تكوني من ذلك النوع المناسب من الأشخاص. هناك مقابلة شخصية، يقدمون إليك خلالها الكرز، ويلاحظون ما تفعلينه بالبذور، إذ لا يوجد مكان تضعينها فيه. يصاب الناس بالتوتر ويبتلعون البذور، وهكذا تضيع فرصتهم، ولهذا ينجح أفراد الأسرة المالكة في الدخول، فقد تدربوا على التعامل مع الكرز منذ الولادة".

"وما الذي يفترض أن تفعليه بالبذور؟".

"عليك ضم قبضتك على نحوٍ مرتخٍ هكذا، وقرِّبيها من فمك، وابصقي البذور في يدك بتكتمٍ، ثم اطلبي منفضة سجائر".

قضمت رأس واحدة من مخبوزات روليجيوز، وقلت وفمي مليء بعجينة الشو: "لحسن الحظ لا توجد مقابلات شخصية لطلاب الدراسات العليا".

تجهمت ديب وقالت: "ما يهم هو أن اختبارات قبول أوكسفورد فاسدة تمامًا. قال أنجوس إنه قد يكون من الصحيح أن مديره تخرج من كينجز، لكنه يحتاج إلى آلة حاسبة لضرب أي رقم في عشرة".

أعرتها كتابًا يومها، وعندما أعادته، كان يحتوي على قصيدة مكتوبة بخط اليد استخدمتها لحفظ الصفحة التي تقرأها. أنت فتاتي التي تسير طويلًا لمسافات / ويداعب النسيم شعرك في المرتفعات / فتاتي الجميلة، التي تركب الدراجات / فتاتي التي تعجبني دومًا / ليتني كنت بصحبتك هناك! يا لها من براعة عفوية في استخدام أسلوب التمني! ازداد تقديري لأنجوس. كان قد سرق قصيدته من الشاعر جون بيتجيمان، لكن مرَّت سنوات قبل أن أدرك ذلك، وربما لم تكن ديب لتهتم.

***

قلت لمينا: "حدث شيء غريب بالأمس، كانت هناك سدادة قطنية في حوض مرحاضي".

"وماذا في ذلك؟ هل لديك الدورة الشهرية الآن؟".

اعترفت أنها لديَّ بالفعل: "لكنني لم أترك سدادة قطنية هناك".

"إنها مثل البراز: تشدين السيفون، لكن بعضه يعود أحيانًا ويطفو مرة أخرى".

"لم تبدُ كواحدة من تلك التي لديَّ". كان في إمكاني تخيل السدادة بوضوح، وهي منتفخة، وملطخة باللون الوردي وقد علق بها شيء

أسود ضارب إلى الحمرة، كما كان هناك دم أحمر شاحب في الماء أيضًا، بينما كنت في نهاية الدورة الشهرية والدماء تميل إلى اللون الداكن.

بينما كنت أوضح هذا، فكرت في المرأة الشمعية. كدت أخبر مينا عنها، لكنها انفجرت قائلة: "لا أصدق أنني نسيت إظهار أودري الجريئة وهي تحيض. لنلطخ فستان السهرة الذي ترتدينه بالدماء من الخلف، بينما تقوم بترتيب الزهور. سأطلق عليها اسم "الموج الأحمر"". فكرتُ للحظة، وهي تعبث بسوارٍ بلاستيكي عريض على معصمها، وقالت: "في صورة أخرى، يمكن أن تتخلص أودري من سدادة قطنية مستعملة، تلقيها في سلة مهملات في الشارع، مع سلاح ملطَّخ بالدماء، مثل ساطور لتقطيع اللحم، أو شيء من هذا القبيل".

"أو يمكن أن تمسح الساطور على فوطة صحية".

قالت مينا بصرامة: "هذا ليس مو-ثيرًا للاهتي-مام. الموضوع يتعلق بإظهار دم الحيض، الهدف هو كسر المحرمات".

ذهب نيك لتناول العشاء مع بعض المعلمين من مدرسته في ذلك المساء، بينما ركبنا أنا ومينا حافلة متوجهة إلى سينما الجامعة التي كانت قد بدأت في عرض أفلام فنية كلاسيكية مرة في الأسبوع. في أثناء إعادة تنظيم الجامعات التي تلت شهر مايو عام 1968 نُقلت كلية الفنون إلى إحدى الضواحي، في حين ظلَّت كليات القانون والطب في القلب التاريخي، وقالت مينا إن الغرض من ذلك هو نقل الطلاب اليساريين خارج المدينة، حيث يسهل تطويقهم في حالة حدوث أعمال شغبٍ في المستقبل.

ترجَّلنا من الحافلة في الحرم الجامعي الجديد القبيح. كانت هناك لافتة فوق العشب كُتِب عليها: "ممنوع السير على العشب، هذه ليست إنجلترا". أدارت مينا عينيها في محجريها، ثم هزَّت كتفيها، وقالت: "كم أكره ركوب الحافلات، إنها تجعل صدري يرتج". زيَّن

ياقتها دبوسٌ جديدٌ يصوِّر أمير ويلز وديانا الخجولة، وفوق رأسيهما فقاعتان، كُتِب في فقاعتها "لماذا أنا؟"، بينما كُتب في فقاعته "لماذا هي؟".

كان الفيلم هو "دي بروكه"، أي الجسر، وبعد انتهائه، كانت الحافلات قد توقفت عن العمل، فاستغرقنا ساعة للوصول إلى المنزل. بكينا في المشاهد الأخيرة التي صوَّرت تلاميذ ألمان يحملون البنادق بعد تلقي أوامر بالدفاع عن جسرٍ ضد الدبابات الأمريكية. قالت مينا: "كان رائعًا للغاية"، ثم قضمت أظافرها، وأكملت الحديث: "لم أتصور أبدًا أنني سوف أبكي على صغار النازيين"، وبدأت في البكاء مرة أخرى.

في الأسبوع التالي، عرضت السينما فيلم الدائرة الحمراء، ولم تكن هناك ترجمة مصاحبة للفيلم الفرنسي، ولم تكن لغة مينا الفرنسية جيدة بما يكفي لمتابعة الحوار، لذلك ذهبت إلى السينما بمفردي. بدا طريق العودة، الذي لم أكد ألحظه في الأسبوع الماضي، بلا نهاية الآن. لم يكن هناك الكثير من حركة المرور، ولم يكن هناك مشاة آخرون. اندفعت رياح خفيفة بطول الطريق، الذي كان متسعًا ويربط المدينة بالريف. كان هناك عدد من المتاجر الصغيرة بالقرب من الحرم الجامعي، لها أسطح مسطحة، وقد أغلقت مصاريعها المعدنية. بعدها بمسافة ظهرت بعض الفيلات المنعزلة وسط الحدائق، تحيطها أسوار عالية يصعب تسلُّقها، وبوابات حديدية مغلقة. ظهر مرة أخرى ذلك الخوف الذي استحوذ عليَّ خلال الشتاء، بعد أن هدأ منذ اعتقال سفاح يوركشاير. تحوَّل تفكيري إلى القتلة الذين يقلدون جرائم غيرهم. بدت رائحة الليل مختلفة عن النهار، أكثر حدة، وتعبق بورق الأشجار، كما لو أن هناك كائنًا وحشيًّا طليقًا. لم تعمل مصابيح الإضاءة المتباعدة في الطريق إلا على تكثيف مساحات الظلام الممتدة بينها، حيث تكتلت الشجيرات في أشكالٍ تنذر بالخطر.

اقتربـت مـن تقاطـع طـرق بـه إشـارات مـرور، حيـث تشـير لافتـات الطريـق إلى مناطـق سـكنية صغـيرة: كلارينسـاك، وبراديـس لـو ليـز. فيـما وراء ذلـك، امتـدَّ الطريـق الطويـل الـذي سـيعود بي إلى وسـط المدينـة، وكان هنـاك عـلى مبعـدة مقهـى يعمـل حتـى وقـتٍ متأخـرٍ مـن الليـل، رأيـت أنـواره بالـكاد.

ارتفـع صـوت محـرك قـادم مـن خلفـي، وأدركـت متأخـرًا أنـه كان يجـب عـليَّ السـير عـلى الجانـب الآخـر مـن الطريـق، بعيـدًا عـن حركـة المـرور القادمـة في اتجاهـي. كان هنـاك مـا يكفـي مـن الوقـت لتخيـل سـيارة تنزلـق عـلى الرصيـف أمامـي، قبـل أن يقفـز منهـا شـخص مُقَنَّع. سرت القشـعريرة في فـروة رأسي، ثـم تجاوزتنـي السـيارة، وهـي تتحـرك بسرعـة، لكنهـا لم تكـن سـيارة بـل شـاحنة صغـيرة بيضـاء.

أخبرتنـي مينـا أنهـا تتحـدث الإيطاليـة بطلاقـة، وقلـت عندمـا التقينـا في المـرة القادمـة: "تعـاليْ معـي، سـيعرضون فيلـمًا لروسـيليني يـوم الأربعـاء: سترومبولي".

قالت مينا إنها متأكدة أنها شاهدت الفيلم.

"من المخيف بعض الشيء أن أسير عائدة بمفردي".

"يمكنـكِ ركـوب السـيارة للعـودة مـع شـخص ممـن حـضروا الفيلـم. لا أسـتطيع أن أعـدك بأننـي سـأجد قـبرك الضحـل، لكننـي سـأبحث عنـه بـكل تأكيـدٍ".

اسـتحوذ عـليَّ حينهـا شـعور صعـد مـن نفـس تلـك الهاوية التـي تصاعد منهـا الخـوف، لكـن هـذا الشـعور كان مفيـدًا بدرجـة أكـبر: كان الشـعور بالغضـب: "لمـاذا لا أذهـب لمشـاهدة فيلـم في المسـاء؟ لمـاذا لا يمكننـي العـودة إلى المنـزل بمفـردي؟". قالـت مينـا: "سـؤال جيـد"، وأخبرتنـي أن والدتهـا سـافرت إلى ليـدز للمشـاركة في أول مسـيرة أُطلـق عليهـا "اسـتعادة الليـل"، في عـام 1977. "نُظمـت المسـيرة لأن الشرطـة أعلنـت أنـه يجـب

على النساء التزام المنزل بعد حلول الليل، لتفادي سفاح يوركشاير". شدَّت مطاط سروالها الداخلي، وقالت: "أنت أودري الجريئة، أليس كذلك؟ فلتستعيدي الليل!".

كانت سيمون دي بوفوار تتنزَّه بالقرب من مرسيليا بعد ظهر يوم حار، عندما أقلَّها رجلان بسيارتهما، وبدأت السيارة تتوجه نحو بقعة نائية، ففتحت الباب وهددت بالقفز، وعندئذ تركها الرجلان تترجَّل من السيارة. وقد أكد ذلك اعتقادها أن اليقظة والثقة بالنفس يساعدان في الحفاظ على سلامتها، وكان هذا وهمًا، لكنه كان مفيدًا. بعد سنوات، كتبت: "لقد زوَّدني ذلك بلمسة من الجرأة جعلت الحياة أسهل بكثيرٍ".

واصلت مينا قائلة: "يمكنك الركض دائمًا إذا انتابك الخوف، أليس كذلك؟". غنَّت قائلة: "اركضي، اركضي، اركضي..."، وأدَّت بضع خطوات راقصة. فكرت في ديب، وكيف تمسَّكت بحرية التنقل بدراجتها البخارية، وقررت عدم الاستسلام للخوف. كنت عداءة ماهرة، وكانت مينا على حقٍّ: يمكنني الركض إذا اضطررت إلى ذلك. كما كان في متناول يدي وهم يساعدني على اكتساب لمسة من الجرأة، إذ أعارتني مينا مسدس أودري الجريئة.

***

دخل فصل الربيع، وتعالت ثرثرة أوراق الشجر. كنت أتناول مشروبًا مع مينا، عندما احتاجت إلى الحمام. خرجت تغني: "أريج الربيع: بول برائحة الهليون!". تحوَّلت أجمل امرأة في فرنسا إلى ارتداء بدلات ذات أكمام قصيرة. كانت هناك بدلة بلون برتقالي محروق، وعندما رأيتها أنا ومينا أردنا الركوع أمام مكتب السياحة، لكن الرصيف كان قذرًا بسبب فضلات الكلاب.

برزت زهور الجارونيا من الأحواض على النوافذ، وتحوَّلت أشعة الشمس من دون سابق إنذارٍ إلى أمطارٍ عاصفة. عثرت على والت ويتمان في المكتبة الأمريكية: "الشعور بالصحة، وزقزقات الطيور ساعة الظهيرة، وغناء روحي حينما أنهض من الفراش لأقابل الشمس". تحرَّرت من الملابس التي تزن أرطالًا، ومشيت مسرعة وأنا أشعر أنه يمكنني الذهاب إلى أي مكان. لعبت الرسالة التي وصلتني من أوكسفورد دورًا في شعوري بالخفَّة. صرت أعرف ما هو في انتظاري الآن: المكتبات، والمنحة الدراسية، ومغامرات الأفكار المثيرة. بدت نسختي المستقبلية رائعة للغاية!

نادرًا ما ظهر رينالدي في الشارع أو في بنايتنا مع حلول فصل الربيع، وهذا دليل، كما أعتقد، على أن اجتماعاتنا بطريق المصادفة خلال الشتاء لم تكن مسألة صدفة بالفعل. وحينما كنَّا نلتقي، كان يحييني وهو يتفادى نظراتي، ثم يسرع مبتعدًا. بدا أنه حوَّل مجال اهتمامه، وبدا حريصًا على تجنُّبي الآن كما كنت حريصة في السابق على الهروب منه. وعندما مررت ببابه في إحدى الأمسيات، كان يغني على أنغام موسيقاه: "إنها فائقة الجمال، وسأجعلها ملكي...".

بعد ذلك بوقتٍ قصيرٍ، رأيته يتناول الغداء خارج أحد المقاهي. في تحدٍّ لتغيُّر الفصول، حافظت رفيقته على مظهرها الذي بدا كما لو أنها قامت حديثًا من قبرها، وأرسلت إليَّ نفس الابتسامة المخيفة، كما لو أن هناك صلة بيننا. ربما كانت تأمل في تأسيس صلة مع أحدهم، لأن وجودها هناك كان مثل عدمه، حيث لم يوليها رينالدي أي اهتمام. أُعدت الطاولة لشخصٍ واحدٍ فقط، وتجاهلها بينما يوجه الطعنات إلى طعامه. التمع شيء ما على طرف شوكته، هل كانت مقلة عين؟ لمحني على الجانب الآخر من الطريق، وأشاح بنظره في الحال، فمضيت في طريقي مسرعة.

تساءلت عما إذا كانت المرأة الشمعية قد تخلّت عن الطعام والشراب، كما يليق بالأموات الأحياء. بدت غريبة الأطوار على أي حال، مما جعلها مثالية لرينالدي. كانت المرأة الشمعية الصامتة الملفوفة في ملابس أشبه بالكفن هي قدره المكتوب له، ومن الرائع أنهما عثرا على بعضهما، ولم أعد في حاجة إلى الخوف من الذهاب إلى دورة المياه بعد حلول الظلام. ظهرت في مخيلتي إجابة للغز غامض، وبدت معقولة للغاية إلى درجة أنني صدقتها على الفور: تأخر رينالدي في أحد الأيام، وبينما كانت المرأة الشمعية تنتظر أمام شقته، احتاجت إلى تغيير سدادتها القطنية، وصعدت إلى الطابق العلوي واستعملت دورة المياه. فلماذا أضن عليها بذلك؟

ذهبت بمفردي إلى السينما كل يوم أربعاء، وكنت أسير بخطى واسعة في طريق العودة. لفترة طويلة بعد وصولي إلى أستراليا، اعتدت التسلل على نحو غريزي كي لا يلحظ أحدٌ وجودي. كان الخدم يتحركون هكذا في منازل أسيادهم. لم نناقش الأمر أبدًا في نطاق عائلتي، لكن ثلاثتنا كنا نختبئ من شيء ما. اكتسب والدي عادة تمرير راحة يده على وجهه. أما والدتي فقد أصيبت بمشكلة في عينيها وباتت ترتدي نظارات داكنة، حتى في الداخل. بدونا كالنعام: لا نرى، ونتمنى ألّا يرانا أحد. ما الذي كنّا نخشاه نحن الثلاثة تحديدًا؟ لا شيء، وكل شيء: كان ذلك الخوف الضمني المبهم الذي ينتاب المهاجر من التعرُّض للعقاب لوجوده في المكان الخطأ.

عندما ذهبت إلى الجامعة، أقسمت ألّا أستسلم لذلك الشعور بعد الآن. أمرت نفسي بالسير بخطى واسعة واثقة، وفعلت الشيء نفسه وأنا عائدة في طريقي من السينما الآن. أدخلت يدي في حقيبتي من وقتٍ إلى آخر، ولففت أصابعي حول مسدس أودري الجريئة. كانت هناك لحظات خطرة خلال تمشياتي تلك، حينما كانت السيارات تتجاوزني، أو تتحول الظلال إلى وحوش. مثل المسدس الكائن في حقيبتي،

كانت الثقة التي توحي بها خطوتي زائفة. لكن كليهما كان يبعث على الاطمئنان، مثلما يمكن أن يكون للكذبة نفس تأثير الحقيقة. لن أتعرض للاغتصاب أو الخطف أو القتل، لا يمكن أن يحدث ذلك، بكل بساطة، ولم تظهر الشاحنة البيضاء مرة أخرى.

***

تلقَّى نيك من معلمة في مدرسته تذكرتين لمسرحية من إخراجها. رفضت مينا الذهاب لأنها لن تتمكَّن من متابعة الحوار، فذهبتُ مكانها. اتضح أن مينا كانت ستصير على ما يرام، لأن الممثلين الأربعة وضعوا شريطًا لاصقًا أحمر اللون على أفواههم. تناوبوا الدور في اللعب بدمية بالحجم الطبيعي ترتدي بدلة، وعلم ثلاثي الألوان يمثِّل فرنسا. رقدوا على خشبة المسرح في بعض الأحيان، بينما شغلوا شريط كاسيت تعالى منه ضجيج عشوائي. خرج رجلٌ عارٍ من الكواليس: كان يمثِّل الموت، أو الاحتمالات الممكنة. غفوت في جزء من المسرحية، وحلمت أني غرير صغير. في حانة صغيرة بعد ذلك، أوضحت المخرجة أن المسرحية كانت دعوة إلى العمل. لم تفز فرنسا بحكومة اشتراكية منذ الثلاثينيات، وإذا خسر اليسار الانتخابات القادمة في مايو، فسوف تُقمع كل الاحتجاجات، وسيتوقف الحراك الاجتماعي، كما سيُدمر أيضًا الفن الطليعي، المتمثِّل في الضجيج العشوائي، وكان ما أيقظني هو صوت مطرقة تحطم جهاز الكاسيت.

تجاوز الوقت منتصف الليل بكثيرٍ، عندما غادرت أنا ونيك الحانة. انتشرت الغيوم في السماء، وسطع القمر من بينها كالشبح. أعلنت للعالم بصوتٍ مرتفعٍ أنني ثملة تمامًا. صحنا: "يحيا الحراك الاجتماعي!"، وأصدرنا أصواتًا عالية وعشوائية. انعطف نيك معي إلى شارعي. بدا كل شيء منطقيًّا حينها في تلك الساعة من الليل، وبدا

مـن المنطقـي بالنسـبة إليـه أن يتبعنـي إلى بنايتـي أيضًـا، وأعتقـد أننـا قررنـا تنـاول كأس أخـيرة مـن النبيـذ معًـا.

أحاطتنـا رائحـة في الردهـة كالضبـاب، وتجهَّـم نيـك قائـلًا: "يـا لهـا مـن رائحـة كريهـة!". لم يكـن آل بـيرتي يضحـكان، بـل صـدرت قعقعـة معدنيـة خافتـة مـن وراء بابهـما، وبـدا الأمـر كـما لـو أنهـما منشـغلان بالطهـي، رغـم تأخـر الوقـت.

صعدنـا بسرعـة هربًـا مـن الرائحـة، لكنهـا التفَّـت حولنـا مثلـما يلتـف الـدرج. كانـت رائحـة عفنـة ممزوجـة بعطـرٍ خافـتٍ، كأصابـع معطـرة تمـر فـوق جثـة. تذكـرت الحلـم الـذي رأيتـه، وفكـرت أن آل بـيرتي يطهيـان غريـرًا. خطـر لي عـلى البسـطة أمـام شـقتي أن شـيئًا مريعًـا ينتظـرني خلـف البـاب، ووقفـت هنـاك ممسـكة بمفتاحـي، حتـى أخـذه نيـك وفتـح البـاب.

كان سريـري فوضويًـا كـما تركتـه، والوسـادة متغضنـة ومنحرفـة عـن موضعهـا. كـما كان كل شيء عـلى حالـه كالمعتـاد في المطبـخ أيضًـا. بـدا مـن الغريـب أن الرائحـة لم تجـد طريقهـا إلى الداخـل. أحسسـت أن التفكـير مجهـد، كـما لـو أن عقـلي ملفـوف داخـل لحـاف. خمنـت أخـيراً أن الرائحـة تسرَّبـت إلى السـلم مـن دورة الميـاه. سـيرحل نيـك، وسـأواجه أنـا أيًّـا مـا وُضـع هنـاك كي أعـثر عليـه.

عـرض أن يتفقـد الأمـر، أو طلبـت أنـا منـه ذلـك، لا أتذكـر. بـدا كل شيء -الأشـياء المألوفـة، وإيماءاتنـا- كـما لـو أنـه غـير واقعـي. مـن مـكاني عـلى البسـطة، راقبـت نيـك بسروالـه الجينـز الفضفـاض وهـو يختفـي أعـلى الـدرج بحركـة بطيئـة تشـبه الحلـم، ثـم أضـاء نـور دورة الميـاه، وسـمعته يقـول: "كل شيء عـلى مـا يـرام".

بينـما هـو ينـزل مـرة أخـرى، بـدا نيـك كالغريـب. بـدا شـعره الطويـل ذاك مجـرد شـعر مسـتعار، بينـما عينـاه الشـاحبتان المخيفتـان هـما الـشيء الوحيـد الحقيقـي بـه، فقـد مـات نيـك الحقيقـي منـذ سـنوات. اضطـررت

إلى وضع يدي داخل سترته التي تعبق بالدخان للتحقق من وجود ضربات قلب. تبادلنا القبلات بالتناوب على كل وجنة، مرة، ثم مرتين، حتى انطفأ الضوء. مدَّ نيك يده ورائي وضغط على المفتاح. أحاطتنا الرائحة، وتفحصنا وجه بعضنا تحت الضوء الشاحب. عصف تيار حول بسطة السلم، وبدا الموت قريبًا، والاحتمالات الممكنة أيضًا. بدت الرائحة بمنزلة رادع، لم تكن رائحة عفن، بل رائحة الشر. قلت "تصبح على خير"، ثم رحل نيك.

***

عُرض ثوب في نافذة أحد المتاجر، وقالت مينا: "لقد حلَّ الربيع، لنكن مملَّتين". لذلك دخلنا المتجر، واشترت كل واحدة منَّا ثوبًا. كان الثوب نسخة من الثياب الشتوية الصوفية، لكنه مصنوع من قماش متين مقاوم للمطر. كان ثوبي بلون أزرق لطيف عادي، بينما ثوب مينا بلون وردي زاهٍ. ارتدته والأكمام مرفوعة إلى الأعلى، لإظهار قميص أزرق منقوش بنقط بنفسجية. بدا مظهرها مثيرًا، بشعرها الأحمر، وجُنَّ جنون أصحاب النظرات المختلسة، وشاهدنا رجلًا يتعرق ويشحب لونه عندما اقتربت منه مينا بثوبها الجديد، فأمسك بمرفق رفيقته ودفعها داخل صالون حلاقة للكلاب كي يجنبها رؤية المنظر.

كان فراش نيك ومينا يبدو دافئًا على الدوام، وقد تناثرت فوقه ملابس مينا ومجلاتها. لم أعد ألقي نظرة سريعة عليه عندما أضطر إلى المرور عبر غرفة نومهما في طريقي إلى الحمام. كثيرًا ما فكرت في قلب نيك وهو يدق بصخبٍ تحت راحة يدي. ما الذي يمكن أن يقودنا إليه ذلك؟ لا شيء. لم يتغيَّر سلوكه معي، ولا مشاكساته وجداله الودود. كان قد أتم الحادي والعشرين من عمره خلال عطلة شهر فبراير، ووفقًا لمينا بدأ كتابة رواية جديدة في يوم ميلاده. شرع يكتب من

دون تخطيط مسبق هذه المرة، وسرعان ما ملأ صفحة تلو الأخرى. أخذ يكتب في المقاهي الآن، بدلًا من المنزل، باحثًا عن الإلهام في الشوارع وفي الحياة، إذ كان من الخطأ البحث عنه بين صفحات الكتب. سألتني مينا عمَّا إذا تمكَّنت من العثور على مصدر الرائحة المنتشرة لديَّ على الدرج، فهززت رأسي: "لقد اختفت صباح اليوم التالي، كان الأمر غريبًا".

"قال نيك إن جيرانك كانوا يطهون غريرًا!".

محادثات الأزواج، وثرثرتهم وترابطهم... سرى تيارٌ باردٌ في مؤخرة عنقي. لا بد أنني ثرثرت مع نيك بشأن غرير في تلك الليلة، لكنني لم أتذكر أنني فعلت ذلك. ماذا نسيت أيضًا خلاف ذلك؟ وما الذي سمعته مينا من نيك أيضًا؟ انتهى الأمر بأن صار مزحة بيننا: الليلة التي طبخ فيها آل بيرتي غريرًا.

كان الجو عاصفًا معتدل الحرارة، وأزهرت الأشجار، فبدت كغيوم وردية. ظهر الفجل الغض في الأسواق، ذلك النوع الرفيع ذو الطرف الأبيض المدبب، وعلَّمتني ساندرين أن أغمسه في الملح، وأتناوله مع الخبز المدهون بالزبد، كما نصحتني بإزالة الأوراق عندما أعود إلى المنزل، لأنها تمتص الرطوبة من الفجل إذا تُركت. بعد ذلك، أخذت مني الحزمة وقطعت الأوراق بنفسها. كانت تبذل قصارى جهدها لتعلِّمني القواعد الفرنسية الصارمة بشأن الطعام. كان عليَّ سلق الفاصوليا الخضراء حتى تتحول إلى اللون الرمادي، وإذا لم يكن هناك خبز، لا تعتبر وجبة. كما كان لا بد أن ينضج جبن الكمامبير بما يكفي كي يفيض عن جوانب علبته، لكن من دون أن تفوح منه رائحة الأمونيا. لم يسبق وأن اشتريت جبن الكمامبير على الإطلاق، لأنني رأيت المتسوقين في السوبر ماركت يفتحون علبة تلو الأخرى، ويفكون الجبن ويشمونها، وإذا وجدوها غير مرضية يعيدونها إلى الرف.

استُدعيت ساندرين إلى مقر الشرطة مرة أخرى، حيث وجدت مسؤولًا جديدًا، لكن تكررت نفس الأسئلة. كان ملف خطيبها ينقصه نسخة من شهادة ميلاد والده، التي طُلبت في العام الماضي وتم تقديمها وحفظها في الملف، لكنها اختفت الآن. قال الرجل الجالس خلف المكتب لساندرين وهو يبتسم أن لا أحد يمكنه تخمين ما حدث.

قاتل والد رياض كمتطوع في الجبهة الغربية. قالت ساندرين: "كان يحب الفرنسيين، ذلك الأحمق المسكين، حتى أطلقوا عليه النار في سطيف عام 1945، في المجزرة الشهيرة. لم يكن مشاركًا حتى في المسيرات المطالبة بالاستقلال، بل كان هناك للاحتفال بنهاية الحرب فحسب. كان رياض بصحبة والده، وهو في العاشرة من عمره، ورأى كل شيء. إن مجزرة سطيف هي السبب الذي جعل ابن رياض يقف ضدي". هزّت كتفيها وواصلت قائلة: "هذا أمر طبيعي".

مرَّت أوقات خلال ذلك الربيع أردت فيها الصعود فوق قمة تل والصراخ عاليًا. ستتساقط من فمي أشكال غليظة أرجوانية اللون، وستشكِّل جملًا. ستعلن الجمل أن الشباب في جميع أنحاء العالم يدرسون رواية رائعة حقًّا عن مقتل عربي، وستقول إنه إذا كانت أشهر رواية فرنسية بعد الحرب، وتحظى بالتقدير في فرنسا، تدور حول مقتل عربي، فماذا يمكن أن تكون العواقب المترتبة على ذلك؟ وستقول لماذا لم يكن للعربي اسم؟ بعد ذلك، ستلتحم جميع الجمل لتشكِّل عنوانًا لامعًا أرجواني اللون: "هذا ليس أمرًا طبيعيًّا".

***



رتبتُ للقاء مينا في شقتها، لكنني وجدتها تنتظر في الشارع. قالت: "لقد دعانا جمال إلى تناول الشاي، علينا أن نمشي بسرعة، فقد أخبرته أننا سنأتي في الساعة الثالثة، أي الآن".

"من يكون جمال؟".

"أنت تعرفينه، جمال، من مطعم المغرب".

أخبرتني مينا أنها التقته في اليوم السابق بطريق المصادفة: "لقد قلص نوبات عمله في المطعم لأنه رسب في أحد الامتحانات نهاية العام الماضي، لهذا لم نره منذ زمنٍ طويلٍ"، ثم تابعت قائلة: "أعتقد أن هذا صحيح، لم أتمكن من متابعة كل ما قاله".

كان جمال يدرس الرياضيات، كما علمت بينما نحن نسرع في طريقنا. "أظن أن هذا لإرضاء عائلته فحسب، فهو يبدو مرتبطًا بهم، وظل يذكر أحد أعمامه، لكن ما يحبه حقًّا هو الفن، ولهذا سنشرب الشاي معه، حيث إنه سيريني أعماله".

لم يكن بيت الطلبة الذي يقيم به جمال بعيدًا عن سوق السلع المستعملة. كانت بناية قديمة، تقع في شارع تصطف على جانبيه الأشجار الضخمة، وكانت غرفة جمال في الطابق العلوي. ما إن فتح بابه حتى اتضح من ملامحه إنه لم يكن يتوقع مجيئي، وبدا ذلك بوضوحٍ عندما دخلنا الغرفة. كان هناك مقعد واحد قائم، جلست عليه مينا. لم يبقَ سوى الفراش، فترددت بجواره وأنا أعتذر لجمال، قائلة إنني آمل ألا يكون لديه مانع في مجيئي، وأتمنى ألَّا يمثِّل ذلك مصدر إزعاج له... سمعت نفسي وأنا أزيد الموقف سوءًا، لكنني لم أستطع التزام الصمت.

ارتدى جمال قميصًا أخضر من نسيج لامع بعض الشيء، ومرَّر يديه الغليظتين خلال شعره، فبدت مفاصل أصابعه بارزة. أظهر حسن خلقه بأن دعاني إلى الجلوس، وهو يشير إلى الفراش المعدني.

قـال: "سـأجلب مقعـدًا آخـر". لكنـه بقـي مكانـه وهـو يتلفَّـت حولـه، كـما لـو أن شـيئًا مـا مـما سـتقع عليـه عينـاه سيرشـده إلى مـا يجـب عليـه فعلـه.

كانـت هنـاك منشـفة مطويـة عنـد طـرف الفـراش، فجلسـت هنـاك بعـد أن خلعـت سـترتي، وبـدت المرتبـة متكتلـة وطريـة. احتـوت الغرفـة عـلى خزانـة ملابـس وطاولـة ومغسـلة، وتـدلَّى فـوق شـماعة سـلك خلـف البـاب زي النـادل الـذي يرتديـه في مطعـم المغـرب: سروال داكـن مـع قميـص أحمـر لـه ياقـة قائمـة. وعبـق الجـو بعطـر صناعـي كنـت أعرفـه، لكننـي لم أسـتطع تحديـد كنهـه.

لامسـت شـجرة نافـذة جـمال، وأوراقهـا تتحـرك برقـة كأيـدي خـضراء مداعبـة. قالـت مينـا: "يـا لهـا مـن غرفـة جميلـة! انظـري إلى تلـك الشـجرة!". كانـت تتحـدث بالإنجليزيـة، وأخـذ جـمال يحـدق فحسـب.

أخبرتـه بالفرنسـية: "نحـن معجبتـان بشـجرة الدلـب"، فقـال جـمال إنهـا تسـبِّب لـه السـعال.

كانـت هنـاك كتـب وملفـات عنـد طـرف الطاولـة، وموقـد لـه عـين واحـدة وقـدر صغـير بـه مـاء عنـد الطـرف الآخـر. كان جـمال قـد وضـع كأسـين، تحتـوي كلٌّ منهـا عـلى كيـس شـاي، إلى جانـب علبـة مـن مكعبـات السـكر، وطبـق يضـم قطعتـين مـن المعجنـات اللزجـة مـن شـمال إفريقيـا. أشـعل الموقـد وقـال: "لحظـة واحـدة"، ثـم غـادر الغرفـة. سـمعناه يطـرق أحـد الأبـواب، ثـم بابًـا آخـر عـلى مسـافة أبعـد.

همستُ قائلة لمينا: "كان يريد الانفراد بك".

"لا أحـد يفتـح البـاب. عندمـا يعـود، اسـأليه مـا إذا كان باقـي الطلبـة يمارسـون التمييـز ضـده".

عـاد جـمال مـن دون مقعـد، لكنـه كان يحمـل كوبًـا. جلـب كيـس شـاي آخـر مـن رفٍّ فـوق المغسـلة، وبـدأ المـاء في الغليـان، فصبَّـه بعنايـة في الأكـواب الثلاثـة.

قالـت مينـا: "هـذا رائـع! شـاي بالنعنـاع". كان هـذا هـو مـا نطلبـه في مطعـم المغـرب: شـاي بالنعنـاع محـلًى بكثـيرٍ مـن السـكر.

قـال جـمال: "إنـه شـاي إنجليـزي"، ونقـل نظرتـه بيننـا بحـزن، حامـلًا كوبًـا في كل يـد.

في المطعـم، كان جـمال مجـرد شـخص غـير محـدد، نـادلًا فحسـب، لكننـي رأيتـه الآن، بوجهـه الممتلـئ، كـما لـو كان ذلـك لأول مـرة. بـدا فمـه متجهـمًا نوعًـا مـا، وتحركـت عضلـة في ذراعـه بخفـة بينـما هـو يقطـع المخبـوزات بسـكين المائـدة. نـزَّ العسـل عـلى ظهـر يـده، فرفعهـا بسرعـة إلى فمـه ولعقـه. وعندمـا رفـع ذراعـه، تعرَّفـت عـلى الرائحـة التـي عبقـت بهـا الغرفـة: مزيـل العـرق.

أخرجـت مينـا سـجائرها، فقـدَّم إليهـا جـمال واحـدة مـن سـجائره. أراهـا العبـوة، ماركـة بنسـون وهيدجـز، وقـال: "هـذا أفضـل نـوع!". كان قـد اسـتعد برقـة واهتـمام: إبطـان معطـران، وسـجائر باهظـة الثمـن، وحلـوى بالعسـل. كان المـكان الوحيـد الـذي يمكنـه الجلـوس فيـه هـو عـلى الفـراش بجـواري، وتصلَّبـت حلمتـاي حينـما ارتمـى بجانبـي.

تبادلنـا الحديـث، وبـدا الأمـر مصطنعًـا ويتطلـب جهـدًا. أخبرنـا جـمال أن عمَّـه يمتلـك مطعـم المغـرب، بالإضافـة إلى مطعـم آخـر في بيزييـه حيـث تعيـش عائلتـه. هاجـروا حينـما كان جـمال في الرابعـة مـن عمـره، وكان لديـه شـقيقتان أكـبر منـه، ولإحداهـما ابنـة. لم يكـن يـدرس الرياضيـات بل الكيميـاء، عـلى الرغـم مـن أن الامتحـان الـذي رسـب فيـه كان الرياضيـات. واصلـت مينـا إصـدار التعليـمات: اسـأليه إذا كان يعـود لزيـارة المغـرب، اسـأليه عـمَّا يعمـل والـداه، اسـأليه عـن رأيـه في الفرنسـيين.

اتضح تدريجيًا أن عائلة جمال لم تكن ثرية، لكنهم كانوا أبعد ما يكون عن الفقر. زار إنجلترا، حيث يوجد في شلتنهام بعض معارف العمل لعمِّه. قال جمال: "ركبنا الجياد، وساد الضباب والخضرة. إنجلترا فائقة الجمال، كما أنني أحب الإنجليز أكثر، وأريد العودة إلى هناك مرة أخرى".

انتظر مني ترجمة كل شيء، لكنه نظر إلى مينا وهو يتحدث. نظرت إليها أنا أيضًا، بغديرتيها الحمراوين الجميلتين، وتنورتها القصيرة الجذابة، وركبتيها الجميلتين الواعدتين باستدارتهما. لم تكن أي منَّا ترتدي حمالة صدر ما لم تكن مضطرة إلى ذلك، واختارت مينا ارتداء قميص خفيف مثبت بدبابيس الحفاضات، التصق بصدرها الجميل النافر. وها هو جمال متاح أمامها، كما كان نيك لديها بالفعل. ابتلعت الشاي كأنني أشرب الشوكران. قبعت المنشفة القطنية النظيفة في الانتظار عند طرف الفراش، وتخيلت جمال وهو يناولها لها بأدب لاحقًا، كي تمسح ما بين ساقيها. أم هل كان ينتوي وضع المنشفة فوق المرتبة، بعد أن يضع الوسادة تحت وركها؟ كُتب في فقاعة الحديث خاصتي: "لماذا هي؟ ولماذا ليس أنا؟". جلست مينا هناك مبتسمة، ببشرتها الجميلة البيضاء، أجمل لون. كنت على ثقة من وجود طنين في الجو، كما لو أننا نجلس تحت خطوط الضغط العالي، وقد سرت في جسدينا أنا وجمال شهوات متعارضة. كيف له ألَّا يستيقظ بداخله الأمل، عندما وافقت مينا على القدوم إلى غرفته؟ وترى أي وعود ألمحت له بها، بلغتها الفرنسية الركيكة؟ فكرتُ في تلك الطريقة التي تسكب بها دائمًا الكثير من النبيذ، على نحو ينم عن الإهمال، لا الكرم.

ظهرت آثار متناثرة لشريطٍ لاصقٍ قديمٍ فوق الجدران المطلية باللون الرمادي، وكان هناك ملصق يصور لاعب كرة قدم فرنسي فوق

الفراش. قالت مينا بعد أن تناولنا الشاي: "ظننت أن أعماله ستكون معروضة، أخبريه أنني أود رؤيتها".

تجهم جمال مرة أخرى، وكان ذلك هو ما يرتسم على ملامحه حين لا يدري ما يجب عليه فعله. لم تكن هناك أي أعمال فنية، إذ أساءت مينا فهم ذلك أيضًا. قال: "أحببت الرسم في المدرسة، عندما كنت صغيرًا".

قالت مينا ونحن نسير عائدتين إلى المنزل: "كم هو مؤسف أنه تخلى عن الفن، ربما كان يمكن مساعدته للعثور على منحة دراسية في لندن".

قلت بنبرة لاذعة: "إنه لا يحتاج إلى مساعدتك، بل يحتاج إلى مضاجعتك. كان سيخبرك بذلك، لو لم أكن هناك. ذلك القميص الذي ارتداه هو أفضل ما يمتلكه من ثياب".

ضحكت مينا وأحسَّت بالإطراء. قبضت على ثدييها وهزَّتهما وهي تقول: "أوه لا لا! شلتنهام! من كان في وسعه توقع ذلك؟ إنها أكثر المناطق بياضًا في إنجلترا". كانت قد صرفت النظر عن جمال، الذي يرغب في ركوب الخيل الإنجليزي، ويعتقد أن الفن لتلاميذ المدارس فقط. لم يكن مو-ثيرًا للاهتي-مام.

لعدة أيام، لازمتني أفكار مهووسة بالعودة إلى غرفة جمال: "اسمع، هل تعتقد أنك ستتمكن من الاندماج أبدًا؟ وماذا يهم في الأمر لو تمكَّنت من العثور على فتاة إنجليزية تقبل الزواج منك؟ لن تصير أنت ولا أطفالك محل ترحيب هناك أبدًا، وستظل الهدايا التي يتلقونها من أسرتها في عيد الميلاد دائمًا أقل من الهدايا التي يتلقاها أطفال شقيقتها. نحن من صنفٍ واحدٍ، أنا وأنت، ولن تصبح فتاة مثل مينا من نصيبك أبدًا". هذا هو ما سأقوله لجمال، بينما أفتح

سحاب سرواله. ترى كيف سيبدو عضوه الذكري؟ يمكنه التظاهر بإيلاجه في مينا.

***

ذهبت إلى أحد المقاهي لألتقي بديب كي تريني شعرها، بعد أن دفعت الكثير من المال لمصفف الشعر لتحويله إلى زهرة ذهبية صلبة. حكيت لها عن عصر ذلك اليوم الذي قضيناه مع جمال، وقلت: "كان يشتهي مينا بشدة، وما كان عليها أبدًا أن تقول إنها ستذهب إلى غرفته، لكن المريع في الأمر حقًّا هو مدى السرعة التي فقدت بها الاهتمام به". في الواقع، كان المريع في الأمر حقًّا هو أنه لم يكن يشتهيني أنا. بل في الحقيقة، كان المريع في الأمر بالفعل هو أن جمال لا يشتهيني لأن لنا نفس لون البشرة، وكانت هذه النقطة فائقة الأهمية. لكنني لم أتمكن من التفوه بتلك الكلمات، ولا حتى أمام نفسي.

واصلت قائلة: "أرادت مينا مساعدة فتى أسمر مسكين، وعندما أدركت أن جمال ليس في حاجة إلى المساعدة..."، ومثلت بيدي حركة إسقاط شيء من على ارتفاع. كان الهدف من انتقاد مينا هو أن يجعلني أشعر بالتحسن، لكنه دفعني إلى الشعور بالخجل. وعلى الرغم من ذلك، فإن ذكرى الشهوة التي انتابتني، وجسدي غير المرغوب فيه، جعلا التوقف عن الحديث مستحيلًا. واصلت قائلة وأنا مدفوعة بمشاعر الحقد والشفقة على الذات: "إن إنقاذ ذوي البشرة السمراء مبدأ من مبادئها، وهذا هو سبب صداقتها معي".

قالت ديب: "بالتأكيد لا، هلَّا طلبنا من ذلك الرجل أن يجلب لنا مزيدًا من النبيذ؟".

كنـا قـد تناولنـا قنينـة معًـا بالفعـل، لـذا قلـت: "أجـل". بـدت ديـب جذابـة للغايـة، بشـعرها المدهـش، وهـي ترتـدي بلـوزة ورديـة مكشكشـة. سـيجدها جـمال مـن أفضـل نـوع، ويمكنهـما الذهـاب لركـوب الخيـل معًـا وسـط الضبـاب الإنجليـزي.

سـألتني بعـد أن ملأنـا كأسـينا: "هـل تعتقديـن أن مينـا يمكنهـا خـوض علاقـة جانبيـة؟".

"بالتأكيد لا".

تعالـت نغـمات الموسـيقى بلحـن تقليـدي غنـي، فـاشي عـلى نحـو غامـض. احتسـينا مزيـدًا مـن النبيـذ اللذيـذ، وتأمَّلـت ديـب، وجمالهـا الـذي أينـع فجـأة. قلـت: "ديـب! هـل أعرفـه؟".

شرعـت تضحـك: "ذهبنـا لمشـاهدة فيلـم، ثـم تناولنـا الكثـير مـن الويسـكي، وبعدهـا تقريبًـا بـدأ الأمـر".

كان يجـب أن ألاحـظ عـلى الفـور. بـدت ديـب مشرقـة وجريئـة، بـدت كنبتـة ارتـوت مـن بعـد ظـمأ. قلـت: "يـا إلهـي! إنـه نيـك، أليـس كذلـك؟"، أردتـه أن يكـون نيـك، إذ كنـت أتـوق إلى معاقبـة مينـا. لم أرده أن يكـون نيك .

ضحكت ديب أكثر: "ذلك التلميذ الماركسي؟".

ذكـرت وسـائل الإعـلام عـلى الجانـب الآخـر مـن القنـال أن طبيـب أمـراض النسـاء الخـاص بـالأسرة الملكيـة فحـص العـروس الملكيـة المنتظـرة، وأعلـن كونهـا صالحـة لمضاجعـة الملـوك. أدركـت أننـي كنـت مخطئـة بشـأن شـعر ديـب، فلـم يكـن زهـرة، بـل كان تصريحًـا بأنهـا اسـتمتعت بجنـسٍ رائـعٍ، ووقـف حـول رأسـها كحـواف التـاج.

***

اقتربـت عطلـة شـهر أبريـل، وأخبرتنـي مينـا بأنهـا سـتذهب إلى سردينيا مـع نيـك. كانـت تعـرف امـرأة تعيـش هنـاك، وهـي واحـدة مـن المعـارف القدامـى لوالـدة مينـا. كانـت المـرأة عشـيقة جـون بيرجـر، وأرادت مينـا زيارتهـا لأن لديهـا أسـئلة عاجلـة لجـون بيرجـر: "إذا حالفنـا الحـظ، سـيكون هـو أيضًـا هنـاك. وإذا لم يكـن موجـودًا، سـنحصل عـلى عنوانـه منهـا، ونذهـب لرؤيتـه".

قبـل يومـين مـن سـفر نيـك ومينـا، تغـيَّر كل شيء. ماتـت عمـة نيـك، فاضطـر إلى العـودة إلى موطنـه، ولم ترغـب مينـا في تأجيـل رحلتهـا وإفسـاد الترتيبـات التـي اتُّخـذت، لذلـك دعتنـي إلى أن أحـلَّ محـل نيـك.

كان مـن المفـترض أن يقـود نيـك الإلهـة إلى إيطاليـا، لكـن صـار يتعـين علينـا أنـا ومينـا أن نسـتقل القطـار، وقالـت مينـا إنهـا ستشـتري تذاكـر لنـا. في ذلـك المسـاء، بعـد أن ودعـت نيـك عقـب ركوبـه حافلـة المطـار، قابلتنـي كي نتنـاول الغـداء في مطعـم لـه ديكـور مـن المخمـل الأحمـر، وسـألتها عـن تكلفـة تذكـرتي.

"لا شيء، فأنت تسدين لي صنيعًا".

أراد جـزء منـي -ذلـك الجـزء الخائـف الـذي يجـري الحسـابات دومًـا- أن يشـكرها ويتشـبث بالمـال. لكننـي أخرجـت دفـتر الشـيكات والقلـم: "كـم الثمـن؟".

طُبعـت قائمـة بأصنـاف البـيرة عـلى المـرآة الضخمـة المعلقـة عـلى الجـدار بجوارنـا، فظهـر لي تعبـير مـراوغ عـلى وجـه مينـا بـين الأحـرف المذهبـة المزخرفـة، وبـدا الانعـكاس في المـرآة أكـثر تعبـيرًا مـن وجههـا عـبر الطاولـة. سـألتها: "هـل اشـتريت تذاكـر درجـة أولى؟".

"بالطبـع لا!". لكنهـا اعترفـت بعـد لحظـة: "حاولـت، لكـن لم تكـن هنـاك مقاعـد، كـما لم يكـن هنـاك مـكان في عربـات النـوم أيضًـا، إذ إن الجميـع يسـافرون خـلال العطـلات المدرسـية. لقـد حالفنـا الحـظ، وأعـاد

شـخص مـا تذاكـره قبـل خمـس دقائـق مـن وصـولي المحطـة. مـدَّت مينـا يدهـا لتمـلأ كأسي، فتناثـر رذاذ النبيـذ في سـلة الخبـز، وقالـت: "سـنظل جالسـتين طـوال الليـل، لكـن هـذا لا يهـم، حيـث إننـا سـنكون مـع كل النـاس المو-ثيريـن للاهتي-مـام". وفقًـا لمـا رأيتـه مـن رحـلاتي إلى باريـس، لم يكـن النـاس الذيـن يحجـزون للسـفر في غـير العربـات المخصصـة للنـوم مو-ثيريـن للاهتي-مـام، بـل ينقصهـم المـال فحسـب، بـدأت في كتابـة اسـم مينـا عـلى الشـيك.

"من فضلك، مزقي ذلك الشيء اللعين".

"لن أذهب ما لم تدعيني أدفع ثمن التذكرة".

سرت بيننـا آثـار التوتـر في طريـق عودتنـا إلى المنـزل. قالـت مينـا: "أتمنـى لـو أنـك سـمحت لي بـشراء تلـك التذكـرة لـك، فنحـن فتاتـان في مواجهـة العـالم، أليـس كذلـك؟ أريدنـا أن نبقـى معًـا دائمًـا".

قلـت: "نحـن كذلـك بالفعـل، وسـنظل كذلـك". أمسـكت معصمهـا وغنيـت "دو... دودووو... دودووو"، مثـل المطربـة المصاحبـة للـو ريـد، ثـم واصلـتُ قائلـة: "لكـن في بعـض الأحيـان، تفـوز الفتـاة الملونـة".

"ليس الأمر كما لو أنني بيضاء بيضاء".

سرنا بضع خطوات أخرى، وقلت: "ألستِ كذلك؟".

"لقـد ابتكـر الفرنسـيون كلمـة "عنصريـة" وكانـت في الأصـل تعنـي معـاداة السـامية. البيـض المتعصبـون يقتلـون اليهـود، أنسـيت ذلـك؟".

كنـا نرتـدي ثوبينـا المصنوعـين مـن القـماش المضـاد للمطـر، الـوردي والأزرق، متشـابهان وغـير متشـابهين. قلـت: "إنهـم يقتلـون أشـخاصًا مثـلي لسببٍ مختلـفٍ"، لكـن مـا كنـت أفكـر فيـه هـو: "إنهـم لا يطلبـون منـك أنـت إبـراز أوراقـك في سـوق السـلع المسـتعملة". لمـاذا كانـت مينـا عاجـزة عـن رؤيـة ذلـك؟ واصلنـا السـير في صمـتٍ. أخـذ فـكي يؤلمنـي، وأدركـت

أنني أكز على أسناني، ثم مررنا بنافذة متجر ملأتها أطباق عشاء باللونين الأخضر والذهبي، دفعنا مرآها قبل بضعة أيام فحسب إلى الضحك حتى أصابنا الوهن.

قالت مينا عندما وصلنا إلى شارعها: "تعاليْ واحتسي خمسة مشروبات معي".

"لديَّ حصص مدرسية صباح غد".

"ألا تعلمين أنه من المفترض أن تنتظري حتى بلوغ الثلاثين من العمر قبل أن تبدئي في الشرب باعتدالٍ؟ ستبدئين في ممارسة البستنة قريبًا، ما لم تلتزمي الحرص".

على رصيف المحطة في الليلة التالية، بينما كنا ننتظر القطار، أرتني علامة حمراء باهتة على معصمها، وقالت: "أنت تسببت في هذا".

أمسكتُ يدها بحركة مسرحية، وقبَّلتها كما يفعل نيك. لكم تظهر البشرة البيضاء الكدمات.

***

في جنوة، حيث نزلنا من القطار في صباح اليوم التالي، توصَّلت إلى اكتشافٍ مبهجٍ: اعتادوا تناول المعجنات على الإفطار في إيطاليا، فقلت "دعينا نقضي بقية حياتنا هنا".

كنَّا في مقهى بالقرب من المحطة، ولفَّت مينا يديها حول كوب أبيض سميك. احتست الكابتشينو وهي تشرح وجهة نظرها القائلة بأن معاملة الملابس مثل أي سلعة أخرى هو خطأ ماركسي جوهري. "هذا لأن ماركس كان رجلًا، ويعتقد الرجال أن الملابس تافهة لأن النساء تحبها وتحب شراءها. سأخبر جون بيرجر بذلك صراحة".

"ألا تكمن المشكلة في الشراء، وليس الحب؟ سيظل الماركسيون دائمًا ضد أي نظام يجعل الناس يستمرون في شراء أشياء جديدة".

قالت مينا: "ما هو كم الأشياء الجديدة التي رأيتني أشتريها؟ يبدو حديثك مثل نيك تمامًا. دائمًا ما يقول إن الموضة تعني الرأسمالية. لكن إذا دخلت هذا المجال، لن أصمم سوى مجموعتين صغيرتين كل عام. وسأنقل بعض القطع من مجموعة إلى أخرى، ومن عام إلى العام الذي يليه. ستكون ملابس مبتكرة وعملية، وبأسعار معقولة أيضًا. لكن على أي حال، ستتمكن المرأة الذكية من تجميع أزياء مشابهة معًا من الملابس التي تمتلكها بالفعل، أو من أسواق السلع المستعملة أو المتاجر التابعة لأوكسفام، وسأذهب في جولات لإلقاء محاضرات حول ذلك الموضوع تحديدًا".

لم أرَ ما علاقة أي من ذلك بجون بيرجر، فقلت: "هل بدأ العمل في مجال تصميم الملابس؟ ظننت أنه مؤرخ فني. لا أعرفه إلا من كتابه "طرق الرؤية"".

"هذا هو ما يدور حوله الأمر: طريقة للرؤية. رؤية أن الثورات يديرها الرجال، وأن ما لا يأخذونه في الاعتبار هو المتعة. متعة المرأة. لا يمكنك الإطاحة بالرأسمالية إذا تجاهلت ذلك. لهذا فشلت فكرة بدلة ماو برمتها. كان يجب أن يكون هناك تنوعٌ في الأشكال، والكثير من الألوان المختلفة، ومجموعة من النقوش". واصلت مينا قائلة بنبرة حنين: "كم أود الذهاب إلى الصين، وسأشتري كل بدلات ماو التي يمكنني الحصول عليها، وأعيد تصميمها. هذا ما أخطط للقيام به: شراء المخزون الزائد لدى الآخرين في نهاية الموسم، وتقبيحه".

لعقت طرف إصبعها، ونقرت به طبقها لالتقاط فتات المخبوزات، وقالت: "أتمنى لو أن نيك تمكَّن من المجيء في هذه الرحلة". رأيت أنها لم تكن وقحة، ولا تتمنى رحيلي. لكن في الحقيقة، كان نيك هو

المقصود بالحجة التي أرادت طرحها أمام جون بيرجر. ولم تكن حجة في الواقع، بل بحثًا عن القبول.

كان لا يزال يتعيّن علينا شراء تذاكرنا لركوب العبّارة المتوجهة إلى سردينيا. سألت مينا النادل، وهي تحاول النطق بوضوح: "مكتب النقل البحري؟"، فأجابها بالإيطالية. ثم دار حول طاولة الحانة، ولمس مرفق مينا وقادنا إلى الباب ليشير إلى الطريق. بينما نحن ننصرف، قالت مينا: "إن اللكنة المحلية صعبة للغاية. أنا أتحدث الإيطالية بلكنة فلورنسا، التي هي فائقة النقاء".

لم يكن مكتب شركة النقل البحري مفتوحًا، لكن المنتظرين أخذوا يشكلون صفًّا بالفعل. كنا ننتوي ترك حقائبنا في المحطة، لكن تفجير بولونيا في العام الماضي جعل خدمات الخزائن تتوقف في كل مكان، لذا اضطررنا إلى حمل حقائبنا بقية اليوم.

فتح المكتب أخيرًا، وبعد نصف ساعة لم يتحرك الصف إلا بالكاد. أخبرتني مينا بما سنفعله، وبدأنا نغني نشيد الأممية. تخلى رجل عن موقعه بالقرب من مقدمة الصف، وسار عبره وهو يغني معنا: "هذا هو النضال الأخير...". حمل حقائبنا، وقادنا أمامه نحو المكتب، بينما صفق جميع الواقفين في الصف.

كان موعد رحيل العبّارة في المساء، وفي وقت الغداء، ظهرت مصاعب جديدة. كنا قد خططنا لشراء طعام للنزهات، يصلح أن نتناوله على العبّارة، لكننا أردنا تناول وجبة ساخنة الآن. قالت مينا: "نحن في حاجة إلى مكان يرتاده العمال، مكان رخيص يقدم طعامًا مشبعًا". كانت هناك الكثير من المطاعم التي علقت في نوافذها قوائم الطعام، لكن مينا قررت أن بعضها لصغار البرجوازيين، بينما الباقون يحتالون على السائحين. "نحن في حاجة إلى مكان حقيقي، مطعم شعبي". قضمت أظافرها وأطلّت خلال نافذة أخرى، كما لو أنها تبحث عن

شيء معلـق هنـاك، ظاهـر بوضـوحٍ. في النهايـة، وبينـما كانـت حقيبتـي تثقـل كتفـيَّ، بـدا لي أن مـا تبحـث عنـه هـو رجـال يرتـدون قمصانًـا مـن دون ياقـات، وشـقراوات بـأذرع لؤلؤيـة بضـة. لم تكـن تبحـث عـن مطعـم، بـل عـن لوحـة انطباعيـة.

أخـيرًا، طلبـتْ النصـح مـن أحـد المـارة، الـذي بـدا لهـا شـعبيًّا بمـا فيـه الكفايـة، بالنظـر إلى حذائـه المـترب. شـدَّ أذنـه وشرع في إلقـاء خطـاب، مشـيرًا بيـده بعيـدًا عـن الميـنـاء. ناولتـه مينـا دفـتر ملاحظاتهـا وقلمهـا، وطلبـت منـه أن يرسـم لنـا خريطـة. صافحنـا قبـل أن نفـترق: نظـر إلى يـده أولًا، ثـم مدَّهـا إلى كل منَّـا كـما لـو كانـت هديـة.

سـألتني مينـا بنـبرة مبتهجـة بينـما نسـير في طريقنـا: "هـل رأيـت كيـف أمسـك بالقلـم؟ مثـل الإزميل".

رفضتْ الضحك عندما قلت إنها بالتأكيد تقصد مطرقة، "أو منجلًا؟".

قادتنـا الخريطـة إلى غرفـة بهـا خمـس أو سـت طـاولات طويلـة، حيـث جلـس رجـال يرتـدون بـدلات العمـل متلاصقـين فـوق المقاعـد. هبَّـت روائـح القـلي والبخـار مـن مؤخـرة الغرفـة. تقـدم نحونـا نـادل وهـو يمسـح جبهتـه عـلى كمِّـه، وأشـار إلى لوحـة، قائـلًا إن قائمـة الطعـام محـددة: مكرونـة كاربونـارا، يليهـا طبـق مـن الكبـد، إلى جانـب ربـع لـتر مـن النبيـذ. قُـدِّم للجالسـين عـلى أقـرب طاولـة منَّـا طبقهـم الأول، وكان كل طبـق مـن الإسـباجتي الممزوجـة بقطـع اللحـم الصغـيرة مزينًـا مـن أعـلاه ببيضـة نيئـة في نصـف قـشرة. سـكب أحـد العـمال البيضـة فـوق مكرونتـه، وتدلَّـت مـن القـشرة خيـوط بيضـاء لزجـة لامعـة. لم نتحـدث أنـا ومينـا في طريقنـا للعـودة إلى الميـنـاء. سـارعتْ بالدخـول إلى أول مـكان رأينـاه لصغـار البرجوازيـين، حيـث كان الطعـام شـهيًّا ووافـرًا ورخيـص الثمـن.

***

في ذلـك المسـاء، فردنـا أكيـاس نومنـا عـلى ظهـر العبَّـارة، واسـتقرَّ ثلاثـة فتيـان إيطاليـين إلى جوارنـا، ووزَّعـوا متعلقاتهـم إلى جانـب ممتلكاتنا. هبَّت ريـاحٌ حـادة عندمـا وصلنـا إلى الميـاه المفتوحـة، فارتـدت مينـا معطفهـا الأخـضر، وأعجـب الإيطاليـون بـه. قـال أفضـل مـن يتحـدث الإنجليزيـة بينهـم: "إنـه صـارخ للغايـة". سرعـان مـا شرعنـا في تنـاول النبيذ معًـا، وفتح الإيطاليـون علـب التونـة. كان ثلاثتهـم يدرسـون التاريـخ في توريـن. ازداد إعجابهـم عندمـا أخبرتهـم مينـا بأنهـا ترتـاد مدرسـة الفنـون. قال الـذي كان يرتـدي نظـارات بيضاويـة صغـيرة: "فنانـة". كنـت أنـا "الأسـتاذة"، وبـدت الكلمـة كئيبـة ومحـلَّ شـكٍّ. لكـن في لحظـات مختلفـة، لمحـتُ كل واحـد مـن هـؤلاء الثلاثـة ينظـر إليَّ بالطريقـة التـي نظـر بهـا جـمال إلى مينـا: بانتبـاه، وأمـلٍ.

أخرجـوا علبـة مـن بطاقـات اللعـب الضخمـة، لهـا ألـوان زاهيـة، وشرعـوا في تعليمنـا كيـف نلعـب سـكوبا. كانـت هنـاك أربـع مجموعـات، لـكل واحـدة منهـا ملـك وفـارس وولـد. سـألتهم: "أيـن الملكـة؟". أشـار الفتـى الـذي لا يتكلـم كثـيرًا نحـو السـماء، وقـال: "القمـر". كانـت ملكـة الليـل مسـتلقية عـلى ظهرهـا، محاطـة بنجـومٍ تبـدو حـادة بدرجـة تكفـي للتسـبُّب في خـدوش. شـغل شـخصٌ مـا جالـس عـلى مقربـة أغنيـة "قاتـل مختـل" عـلى جهـاز كاسـيت، فغنينـا جميعًـا معًـا: "فـا فـا فـا فـااا فـا... فـا فـا فـااا..."، لكـن بعـد الليلـة التـي قضيناهـا في القطـار، أخـذ النـوم يلاحقنـي بعنـادٍ كالمـوت. بـدأ جسـدي يميـل نحـو الأمـام، واضطـررتُ إلى أن أجـبر نفـسي عـلى الاعتـدال في وضـع الجلـوس. كانـت البطاقـة الأكـثر قيمـة في اللعبـة هـي "السـبعة الجميلـة"، البطاقـة التـي تصـور سـبع عمـلات، ورأيتهـا هنـاك في يـدي.

اسـتغرقت العبَّـارة في طريقهـا إحـدى عـشرة سـاعة. وفي صبـاح اليـوم التـالي في أولبيـا، ودعنـا الإيطاليـين الذيـن كانـوا سـينطلقون في رحلـة سـيرًا عـلى الأقـدام. كان علينـا أنـا ومينـا العبـور إلى الجانـب الآخـر مـن الجزيـرة،

مـما يتطلـب ركـوب حافلتـين. وكانــت أول حافلـة في انتظـار وصـول العبَّارة، ثـم رحلـت عـلى الفـور. حملتنـا متجـاوزة منـازل متداعيـة لهـا أعـين زرقـاء مـن النوافـذ الخاليـة مـن الزجـاج. ظهـرت لنـا خلـف جـدار حجـري منخفـض بعـض الأغنـام التـي ترعـى، ولهـا وجـوه ناحلـة خاليـة مـن أي فكاهـة. كان سيسـعدهم رؤيتنـا نُشـنق بوصفنـا سـاحرتين. التـفَّ الطريـق حـول جانـب تـلٍّ، وعـلى الجانـب الآخـر مـن بحـيرة مـن العشـب ارتفعـت صفـوف مـن الأشـجار التـي اكتسـت بأزهـار بيضـاء، بـدت كـما لـو أنهـا رؤيـا. انحـرف الطريـق عـلى الفـور تقريبًـا، وابتعـد الـوادي. وعـلى الرغـم مـن أننـي أمسـكتُ بـذراع مينـا، فإنهـا فاتهـا رؤيـة البسـتان. كانـت ترتـدي حمالـة صـدر لمقابلـة عشـيقة جـون بيرجـر، لكنهـا تذمـرت قائلـة: "رج رج رج!"، وهـي تهـز ثدييهـا، بينـما الحافلـة تسـير في الطريـق المـليء بالحفـر.

تؤسـفني الإشـارة إلى المـرأة التـي كنَّـا ذاهبتـين لزيارتهـا بوصفهـا "عشـيقة جـون بيرجـر"، لكننـي سـمعت اسـمها مـرة أو مرتـين فحسـب، ونسـيته منـذ زمـن بعيـد. فضَّلـت مينـا أن تطلـق عليهـا "عشـيقة جـون بيرجـر" بـازدراءٍ متعمـدٍ، لإظهـار أنهـا لا تشـعر بالرهبـة حيالهـا. ارتـادت هـذه المـرأة ووالـدة مينـا المدرسـة معًـا، لهـذا لم تسـتطع عشـيقة جـون بيرجـر أن ترفـض مقابلتنـا. قالـت مينـا بنـبرة مـن الرضـا المشـوب بالخبـث: "هنـاك أشـياء تعرفهـا والـدتي...".

أنزلتنـا الحافلـة في قريـة كئيبـة، حيـث اضطررنـا إلى الانتظـار أكـثر مـن سـاعة. وفي المقهـى الكئيـب الوحيـد الموجـود، أكلنـا لفائـف محشـوة بلحـم الخنزيـر. جلـس ثلاثـة رجـال كبـار في السـن يلعبـون الـورق في الزاويـة، فسـألتُ مينـا: "هـل كان بحـوزتي بطاقـة السـبعة الجميلـة في الليلـة الماضيـة؟". أجابـت قائلـة إنهـا نسـيت كل مـا كانـت تعرفـه عـن السـكوبا، أو عـن الليلـة السـابقة.

انتهينا من تناول مشروب كينوتو، "كوكا كولا المرأة المفكرة" على حد وصف مينا، ثم خرجنا متوجهين إلى محطة الحافلات. وضع رجل عجوز البصلة التي كان يقطعها في كفِّه، ونهض من مقعده وأتى نحونا. كان يرتدي سترة مخملية بنية اللون، نحلت وبرتها في عدة بقعٍ، بينما ارتفع سرواله حتى كاد يصل إلى إبطيه. جذب السروال أكثر إلى الأعلى، وقال إنه لا توجد حافلة. قال ذلك بطريقة غير مفهومة، لكن لم يكن هناك مجالٌ لإساءة فهم ما يعنيه. واصل هز رأسه وهو يشير نحو المحطة، عندما خرج شاب من المقهى. كنَّا قد رأيناه متكئًا على طاولة حاملًا بيرة. بلغة إنجليزية متعثِّرة لكنها واضحة، أخبرنا أن الحافلة تعطَّلت، ولن تعمل في ذلك اليوم، ثم سألنا أين نريد الذهاب، وعرض توصيلنا عندما أخبرناه.

كان اسم منقذنا هو فيتوريو، وقدَّمنا إلى جينا لولوبريجيدا، التي انتظرت بصبرٍ في سيارته. كانت السيارة من طراز فيات، ولم تكفِ مؤخرتها سوى حقيبة واحدة، لذا وضعت مينا حقيبتها على ركبتيها. انحشرتُ أنا أيضًا، وأنا جالسة في الخلف بجانب جينا لولوبريجيدا. تناثرت البقع من أثر حروق السجائر على المقعد المغطى بالفينيل، وخرجت منها مادة رغوية صفراء في بعض الأماكن. كان فيتوريو مدخنًا شرهًا، يقود سيارته متكئًا إلى الوراء، وذراعاه ممدودتان إلى الأمام مباشرة، كما دخنت مينا أيضًا في البداية. احتجبت السماء خلف الغيوم، وسرعان ما أخفى المطر شكل التلال. أبقى فيتوريو النوافذ مغلقة، واحتجَّ حينما حاولت مينا فتح نافذته، وقاد مسرعًا عبر الطرقات الجبلية، وتحدَّث بنفس السرعة باللغة الإيطالية. أخذ يلتفت من وقتٍ إلى آخر مخاطبًا جينا لولوبريجيدا بعباراتٍ، صائحًا: "جميلة!"، أو "قلبي!"، وأخذت السيارة الفيات تتأرجح عبر الطريق كلما حدث ذلك.

بـدأت الريـح التـي تهـزُّ الأشـجار تمـزِّق السـحب. كان هنـاك شريـطٌ لاصـقٌ أسـود عـلى شـكل صليـب عـلى ظهـر مقعـد فيتوريـو. بعـد ذلـك، ظهـرت الشـمس مـرة أخـرى، وبـدأت جينـا لولوبريجيـدا تلهـث. انقضـت أميـال مـن الطريـق، وظهـرت ابتسـامة غريبـة عـلى وجههـا، ثـم انحنـت وخفضـت رأسـها، وتقيَّـأت عنـد موضـع قدميهـا. توقفـت الفيـات في منتصـف الطريـق، وكانـت فرصـة للخـروج إلى نسـيم النهـار. أبدينـا أنـا ومينـا إعجابنـا ببسـتان مـن أشـجار الزيتـون، بينـما ركضـت جينـا لولوبريجيـدا في الأرجـاء وأخـذت تـأكل العشـب. رفـع فيتوريـو الدواسـة المطاطيـة الملوثـة بالقـيء، مـع سـيلٍ مـن العتـاب الصاخـب، ومسـحها على حافـة الطريـق، ثـم خزَّنهـا في مؤخـرة السـيارة، وسـامح جينا لولوبريجيدا وهـو يربـت عليهـا صائحًـا برقـة: "كارثـة!"، ثـم طبـع قبلـة أعـلى رأسـها.

اسـتأنفنا رحلتنـا، وعبقـت السـيارة الصغـيرة الحـارة الآن بروائـح الرمـاد والسـجائر، والقـيء، وأنفـاس جينـا لولوبريجيـدا النفـاذة. في النهايـة، ابتسـمتْ بحـرجٍ، وتقيَّـأت مـرة أخـرى. هـذه المـرة، اسـتخدم فيتوريـو خرقـة لإزالـة القطـع المتكتلـة وخيـوط العشـب اللزجـة، ثـم ألقـى الخرقـة بعيـدًا، وحثَّنـا عـلى العـودة إلى الفيـات وهـو يهمـس: "بسرعـة! بسرعـة!"، وهـو يهـرع نحـو بـاب السـائق. انشـغلت جينـا لولوبريجيـدا بشـم الزهـور في مـرجٍ، ورفعـت رأسـها بعـد فـوات الأوان. انطلقـت تركـض نحـو الأمـام، بينـما صحنـا أنـا ومينـا: "توقـف!"، و"جينـا!"، كـما لـو أن فيتوريـو قـد نسـيها ببسـاطة. ضغـط دواسـة الوقـود إلى أقـصى حـدٍّ، وذراعـاه ممدودتان إلى الأمـام. أسـهب في الحديـث، وعندمـا سـألتُ عـمَّا يقولـه، أجابـت قائلـة إنـه يتحـدث بلهجـة محليـة.

مرَّ الوقت، وقلت: "أعتقد أنني سوف أتقيأ".

"حسنًا، أنت تعرفين ما الذي سيحدث لك إذا فعلت ذلك".

اشـتدت الرائحـة إلى درجـة دفعـت فيتوريـو إلى فتـح نافذتـه جـزءًا بسـيطًا، وأذِن لمينـا بفعـل الـشيء نفسـه، واسـتمرَّ في التدخـين والتحـدُّث مـن دون توقـف. بـدا غـير مـؤذٍ، مـما يعنـي أنـه ربمـا كان قاتـلًا. ذلـك الصليـب الأسـود عـلى ظهـر مقعـده، تُـرى مـا معنـاه؟ دندنـت بضـع نغـمات مـن أغنيـة "قاتـل مختـل"، فالتفتـت مينـا لتوجـه إليَّ ابتسـامة عريضـة. غنَّـت بصـوتٍ هامـسٍ: "اركـض، اركـض، اركـض"، وبـدأت تضحـك، وانضـم إلينـا فيتوريـو، ضاحـكًا بشـدة عـلى متعتنـا تلـك. كان هـذا مقدمـة لقتلنـا، بـكل تأكيـدٍ.

في وقـتٍ متأخـرٍ مـن بعـد الظهـيرة، وصلنـا إلى قريـة مزدهـرة ممتـدة عـلى جانـب الطريـق. بـدت البيـوت الحجريـة في حالـة جيـدة، وكان العشـب أمـام الكنيسـة مجـزوزًا. كان هنـاك متجـر صغـير للبقالـة، وصالون لتصفيـف الشـعر، وكلاهـما مطـلي بأناقـة. مالـت مينـا إلى الاعتقـاد بأننـا سـنجد عشـيقة جـون بيرجـر تعيـش خـارج القريـة: "أراهـن أنهـا تقيـم في مزرعـة قديمـة. سـيتوقع جـون بيرجـر وجـود حديقـة للمطبـخ، وأشـجار فاكهـة، وقـد يكـون هنـاك خنزيـر". طلـب فيتوريـو من امـرأة جالسـة على جـدار أن تصـف لنـا الطريـق. أخـذت ترفـع طفلهـا في الهـواء وتخفضـه، ثـم ترفعـه ثانيـة، كي تدفعـه إلى الضحـك، وفي كل مـرة يفعـل فيهـا ذلـك، كانـت تقبِّـل ركبتيـه.

قادتنـا توجيهاتهـا إلى مـا وراء القريـة، نحـو طريـقٍ مرصـوفٍ بالحـصى. توقفـت الفيـات تحـت شـجرة دفـلي، بجانـب بوابـة شـائكة مثبتـة في جدارٍ متـماوجٍ مغطًّـى بالبـلاط. اسـتطعنا أن نشـم رائحـة البحـر عندمـا خرجنـا، وسـمعنا أنفاسـه عـلى مقربـة منَّـا. لـوَّح فيتوريـو بسـيجارته، ورفـض أن يتقبَّـل منَّـا الشـكر، ثـم انطلـق مبتعـدًا، وثـار خلـف إطـارات سـيارته غبـار أبيـض مـن الطريـق.

استدعى الجرس عند البوابة حارس أمن، أعطته مينا اسمًا، فقال إن من تريدها غير موجودة. أشارت مينا إلى ساعته، وسألته في أي وقتٍ ستعود، ولم نستطع فهم جوابه، لكنه أخذ يهز رأسه، فقالت مينا بحزمٍ: "إنها صديقة". قالتها بالإيطالية، ثم بالإنجليزية، لكن ذلك لم يشكِّل أي فرق بالنسبة إلى الحارس. قالت مينا: "صديقة مقربة جدًّا"، وبدا ذلك بلا جدوى أيضًا.

اقترحتُ نشيد الأممية، لكن مينا قالت إننا نتعامل مع كلب رأسمالي. أدّينا حركات تمثيلية تدل على اليأس، وأشرنا إلى حقيبتينا، ورفعنا أيدينا أو ضممناها كما لو كان ذلك من أجل الصلاة. واصلنا على هذا المنوال، حتى انفتحت البوابة أخيرًا. تبعنا الحارس عبر الممرات التي قادتنا أمام فيلات بيضاء ذات أسطح حمراء. كانت معظمها مغلقة، لكن توقفت سيارات أمام فيلا أو اثنتين، أو ظهرت منشفة شاطئ ملقاة على كرسي بلاستيكي. همست مينا باستهجان: "أي نوع من الأشخاص هذا الذي يعيش في مجمع سكني محاط بالأسوار؟". بدا أن بعض الهواء تسرَّب منها مع هسيسها ذاك. "لا أعتقد أن جون بيرجر له أي علاقة بهذه المرأة. ليس من المستغرب بالنسبة إلى والدتي أن تكون قد فهمت كل شيء على نحو خاطئ".

قال لنا الحارس: "الدكتورة"، ودقَّ جرس أحد الأبواب. فتحت امرأة عجوز الباب، وقالت: "ألفريدو، كيف حالك؟". بدا مظهرها ملائمًا بالنسبة إلى كونها في عطلة، وهي ترتدي قفطانًا، وجوارب مرقطة لامعة ونعلًا مناسبًا لحمام السباحة. تبادل ألفريدو معها الحديث، فتأملتنا بعدها بينما مينا تشرح موقفنا بالإنجليزية، ثم قالت: "ادخلا".

كانت هناك كومة صغيرة من الأظرف على الطاولة في الردهة، وظهرت رسالة مينا أعلى الكومة. كررت مينا حديثها قائلة: "لقد

كتبـت والـدتي رسـائل أيضًـا، ورتبـت كل شيء". فـردت الدكتـورة رسـائل البريـد التـي كانـت تجمعهـا لجارتهـا، وسـحبت مينـا مظـروف والدتهـا مـن وسـط الرسـائل التـي اتخـذت شـكل مروحـة. قالـت بأنعـم نـبرة لديهـا وأكثرهـا إثـارة للخـوف: "هـذا كلـه خطـأ والـدتي، لـو أنهـا فقـط تـرضى باسـتخدام الهاتـف...". قضمـت أظافرهـا، لكـن لم يكـن هنـاك مـا يمكـن القيـام بـه، حيـث أخبرتنـا الدكتـورة بـأن المـرأة التـي تعيـش في الفيـلا المجـاورة ليسـت موجـودة. رحلـت قبـل أسـابيع، ربمـا لتكـون مـع جـون بيرجـر.

ظهـر كلـب كبـير يفتقـر إلى التـوازن، ومخالبـه تنزلـق عـلى البـلاط. قالـت الدكتـورة إنـه يمكننـا قضـاء الليلـة، إذا لم نمانـع النـوم عـلى الأرض. كان وجـود زوار مـن دواعـي سرورهـا، وواصلـت قائلـة إنهـا هـي أيضًـا سـافرت كثـيرًا، ولوَّحـت بذراعهـا لتشـير إلى غرفـة المعيشـة التـي تحتـوي عـلى العديـد مـن المنحوتـات والمنسـوجات والدمـى التذكاريـة مـن مجموعـة مـن البلـدان المتنوعـة. جلبـت لنـا الدكتـورة القهـوة، وقالـت: "والآن، فلتخـبراني بـكل شيء". بـدا وجههـا عريضًـا، وقـد اكتسـب اللـون البرونـزي، وخلَّـف عليـه الزمـن آثـاره. غاصـت في مقعـدٍ وثـيرٍ، بينـما جلسـنا نحـن عـلى أريكـة صلبـة مغطـاة بقطعـة قـماشٍ مطـرزة بالمرايـا. أنـزل الكلـب نفسـه بصعوبـة فـوق بسـاطٍ، وأصـدر أنينًـا ثـم غـرق في النـوم. قالـت الدكتـورة إن اسـمه دوندولـو، وأنـه تجـوَّل آتيًـا إلى القريـة ذات يـومٍ، "هُجـر بعـد أن تعـرَّض للمعاملـة بوحشـية، وهـو يعـاني تلفًـا في العمـود الفقـري. مـن يـدري أي معانـاة تحمَّلهـا؟".

دفـع هـذا مينـا إلى أن تحـكي عـن مصـير جينـا لولوبريجيـدا، فصاحـت الدكتـورة: "مـاذا؟"، واعتدلـت في جلسـتها فجـأة بدرجـة تسـبَّبت في قفـز عقدهـا الثقيـل المصنـوع مـن الكهرمـان. "لمـاذا لم تخـبراني بهـذا عـلى الفـور؟ لا بـد أن نطلـب حضـور ألفريـدو ونرسـله للبحـث عـن هـذا الحيـوان المسـكين، سـيكون عليكـما توجيهـه".

وضعـت يدهـا، المغطـاة بخواتـم مرصَّعـة بالأحجـار، عـلى الهاتـف الكائـن بجـوار مقعدهـا بالفعـل، وبـدا الهاتـف رائعًـا بلونـه الكريمـي المذهَّـب، مثـل الهواتـف التـي تظهـر في الأفـلام.

قالـت مينـا: "وعـد فيتوريـو أنـه سـيصطحبها في طريقـه للعـودة إلى المنـزل غـدًا، فهـو يعـرف صاحـب الأرض التـي تركهـا عندهـا، وسـتكون آمنـة تمامًـا".

كـررت قولهـا عـدة مـرات، حتـى أعـادت الدكتـورة سـماعة الهاتـف. أخبرتنـا أن سـكان سردينيـا شـعب بـدائي، يؤمنـون بالعمالقـة والجـان، وأن السـحب الصغـيرة المختفيـة خلـف القمـر هـي أرواح الأطفـال الذيـن ماتـوا مـن دون معموديـة. كانـت الفتـاة التـي تـأتي للتنظيـف في الثامنـة عـشرة مـن عمرهـا، ولديهـا طفـلان، ومـن دون أي أسـنان، أمـا الدكتـورة نفسـها، فكانـت مـن فنيتـة، لكـن الظـروف ... بقيـت الجملـة مـن دون أن تكتمـل.

واصلـت قائلـة إنهـا تزوجـت ثـلاث مـرات، أولاهـا مـن رجـل إنجليـزي. "لقـد نسـيت اسـمه، فردينانـد؟ روني؟". وعندمـا سـمعت أننـي مـن أسـتراليا، تحمَّسـت مـرة أخـرى، ولم يكـن مـن الممكـن منعهـا هـذه المـرة. قالـت عـبر الهاتـف: "ديريـك؟ ديريـك؟ يجـب أن تـأتي حـالًا، لـديَّ أسـترالية هنـا، هـذا رائـع، أليـس كذلـك؟".

أبـدى ديريـك المقاومـة بعـض الوقـت، لكنـه وافـق أخـيرًا عـلى القـدوم لاحقًـا. قالـت الدكتـورة بعـد أن وضعـت السـماعة: "بعـد العشـاء! مـن يسـتطيع أن يقـول مـا إذا كنَّـا سـنبقى عـلى قيـد الحيـاة بعـد العشـاء؟ الرجـال عبيـد للـماضي والمسـتقبل، ولا يفهمـون شـيئًا عـن الوجـود في اللحظـة الراهنـة". علمنـا منهـا أن ديريـك يتمتـع "بمنصـبٍ رفيـعٍ" في السـفارة الأسـترالية في رومـا. اعتـاد زيـارة سردينيـا كلـما سـنحت الفرصـة، وكان يسـتأجر بيتًـا في القريـة. قالـت الدكتـورة برقـة: "يوجـد شـاب هنـاك، يعـاني زواجًـا تعيسًـا". أدارت خواتمهـا في أصابعهـا، وحكـت لنـا

عن أسفارها. كانت والدتها روسية: "ذهبتُ إلى لينينجراد بعد وفاتها، وكانت ابنة عمي لا تزال هناك، تعيش في شقة مشتركة. شربنا الشاي، بينما الثلج يتساقط. قالت ابنة عمي: "يا عزيزتي، أنا على استعدادٍ لتصديق كل ما تخبرينني به عن الحياة في الغرب، ولكن لا يمكنني تصديق أنك تستطيعين أكل الطماطم الطازجة في الشتاء"". تنهدت الدكتورة، وواصلت قائلة: "لن تصدِّقا ما خضته من مغامرات، حتى إنني أنا نفسي بتُّ أشك فيها هذه الأيام. قضيت ليلة كاملة ذات مرة في جوادالاخارا، بمسدس ملتصق هنا". أغمضت عينيها وضربت بقبضتها على عظام صدرها، وبدت الأحجار الكريمة في خواتمها عتيقة، بلون القيح أو الدم المتخثر.

رفع الكلب رأسه، وحدجها بنظرة آمرة. أخبرتنا الدكتورة بأن هذا يعني أن أفكاره تحوَّلت نحو الطعام، وكان يشاركها نظامها الغذائي المكوَّن من شرائح لحم تارتار، والبسكويت الصغير الصلب المزيَّن بزهورٍ مصنوعة من السكر. وفي حين كان يزدري معظم أنواع المشروبات الكحولية، إلا أنه يقبل أحيانا كأسًا من الشمبانيا فائقة الجودة. بمجرد أن تعلو فرقعة السدادة الفلين، كان ينهض على قدميه وهو يتمايل على نحوٍ خطيرٍ بسبب وركه التالف. أخبرتنا الدكتورة أنه كلما كانت الفقاعات أصغر، كانت الشمبانيا أعلى جودة.

تبقى بعض حساء الحليب في الثلاجة، أعدَّته الفتاة التي بلا أسنان، وحثَّتنا الدكتورة على تجربته: "إنه يترك العقل صافيًا، ولا يسبِّب انتفاخ المعدة". اخترنا بدلًا من ذلك المعكرونة مع السردين المعلب.

خلال العشاء، أخبرت مينا الدكتورة عن الحجج التي ترغب في عرضها على جون بيرجر. سألتها الدكتورة: "ولماذا تستشيرين رجلًا بشأن الطريق الذي ستسلكينه في حياتك؟ اعتاد جميع أزواجي وضع

ثقتهـم بالخرائـط. كنّـا نصـل إلى مـكان جديـد، فيقـف الـزوج منهـم عـلى رصيـف المحطـة في محاولـة لتحديـد اتجـاه الشـمال، بينـما أنطلـق أنـا في طريقـي ببسـاطة". تأملـتْ مينـا، ثـم تابعـت الحديـث: "مـا الـذي حـدث للفتيـات الـلاتي في مثـل سـنِّك؟ إنكـن تطـاردن الرجـال، بـدلًا مـن التأكـد مـن أنهـم هـم الذيـن يطاردونكـن. وعـلى الرغـم مـن اهتمامـك بالموضـة، انظـري إلى تلـك الهيئـة التـي تبـدو عليهـا ملابسـك؛ إنهـا تشـير إلى الافتقـار الجوهـري للخيـال".

بـدت مينـا كـما لـو أنهـا تلقَّـت صفعـة. كانـت ترتـدي بدلـة عـمال لهـا لـون أزرق داكـن ملطخـة ببقـع الطـلاء، اختارتهـا للتعبـير عـن التزامهـا حيـال الطبقـة العاملـة، لكـن مـا أن انتهينـا مـن تنـاول الطعـام، بـدأت تسـحب الملابـس مـن حقيبتهـا. ظهـر معطفهـا الأخـضر، وقميـص صنعتـه مـن خـلال تركيـب النصـف العلـوي مـن قميـص مخطـط مـع النصـف السـفلي مـن قميـص منقـوش بالمربعـات، وقـد خاطتهـما معًـا بغـرزٍ زرقـاء كبـيرة. فرشـت كل شيء عـلى الأرض، ورتَّبـت الملابـس لتظهـر كيـف تتنافـر مـع بعضهـا. تفحَّصـت الدكتـورة كل شيء بعنايـة، ثـم قالـت أجـل، تتمتـع مينـا بالـذوق بالفعـل.

بعـد فـترة مـن الوقـت، صـارت المجامـلات بينهـما متبادلـة، وقالـت مينـا "الجـوارب مـع النعـال رائعـة للغايـة". ثـم شرعـت توضـح نظريتهـا بشـأن تقبيـح الملابـس: "إنـه شـكل مـن أشـكال التعقيـد في الواقـع، مـما يجعلـه مناهضًـا للسـلطة. هـل لاحظـت كيـف يحـب الطغـاة أن تكـون الأشـياء بسـيطة؟". بعـد ذلـك بقليـلٍ، سـألتها الدكتـورة: "هـل تكرهـين فريـدا كاهلـو؟"، فـردَّت مينـا: "بالطبـع!". اسـتلقيت عـلى البسـاط بجانـب الكلـب النائـم. قالـت الدكتـورة إنهـا لم تسـمعه ينبـح عـلى الإطـلاق، لكـنَّ عـواء مكتومًـا أخـذ يتصاعـد منـه الآن، وارتعـدت سـيقانه كـما لـو أن قطـط العـالم بأكملـه تفـرُّ أمـام قوتـه.

وصـل ديريـك، وهـو رجـلٌ ضئيـلٌ لـه شـعرٌ مجعـدٌ بلـون أشـقر رمادي، وبـدا محشـورًا داخـل جلـده. ارتـدي سروالًا قصيرًا فضفاضًـا، وحمـل بيـده زجاجـة، وضعهـا عـلى الطاولـة الكائنـة بجانـب البـاب، وعـدَّل وضـع سرواله وهـو يصيـح: "مرحبًـا، مرحبًـا، مرحبًـا!". هـل اعتـاد تقديـم التحيـة بهـذه الطريقـة دائمًـا؟ سـأل مينـا: "كيـف وجـدتِ إيطاليـا، يـا عزيـزتي؟ مختلفـة بعـض الـشيء عـن الوطـن الشاسـع؟".

عنـد الكشـف لـه عـن خطئـه، نظـر إليَّ ديريـك، فظهـر عـلى وجهـه التعجُّـب، ثـم تلتـه الحـيرة. وخـلال اللحظـة التـي دام فيهـا ذلـك التعبـير، أعلـن بصراحـة تامـة كلافتـة مـن النيـون: "ليسـت أسـترالية حقيقيـة". لم يسبق وأن رأيـت ذلـك التعبير في فرنسـا، لأن الفرنسـيين لا يعرفـون شـيئًا عـن أسـتراليا، ولم يكونـوا ليتعجبـوا لـو كانـت بـشرتي مخططـة.

حيـث إن ديريـك تـدرَّب عـلى الدبلوماسـية، فسرعـان مـا تمالـك نفسـه. أبعـد دميـة عـلى شـكل جيشـا مـن فـوق أحـد المقاعـد بضربـة خبـيرة مـن يـده، ثـم جلـس مباعـدًا مـا بـين ركبتيـه. كـرَّر تحيتـه مـرة أخـرى: مرحبًـا، مرحبًـا، مرحبًـا! تـلا ذلـك الاسـتجواب المعتـاد بخصـوص كـم مـن الوقـت أمضيـت هنـاك، ومـن أيـن أتيـت، إلـخ. طـوال حياتـه، ظـلَّ ديريـك يؤمـن بـشيء واحـد فقـط عـن الأسـتراليين، والآن بـدأ أشـخاص مثـلي يظهـرون ويفككـون هـذا الاعتقـاد. كيـف لا ينظـر إلينـا بوصفنـا مجـرد حيلـة للفـت الأنظـار؟ شـعرت بالشـفقة حيـال ديريـك، الـذي كان عالقًـا في شـبكة عنكبـوت المـاضي، ونسـخته المسـتقبلية ميتـة، لكـن في الوقـت الحـالي، جلـب لنـا زجاجـة أخـرى مـن الشـمبانيا فائقـة الجـودة.

لم تكـن الدكتـورة تركـب الحافـلات عـلى الإطـلاق، إذ إنهـا "أسـوأ حتـى مـن الجـمال"، لكـن ديريـك أكـد لنـا أن الحافلـة المحليـة سـتغادر في ظهـر اليـوم التـالي. أبـدى حنانـه حيـال الدكتـورة بشـكلٍ متسـلطٍ، وأخبرهـا أن

مـا ترتديـه في قدميهـا محـض حماقـة: "سـتتعثَّرين فجـأة عـلى نحـوٍ غـير متوقـعٍ وأنـت ترتديـن جـوارب مـع تلـك النعـال".

"الفن سحر أُنقذ من أكاذيب الحقيقة".

اتفـق معهـا ديريـك أن هنـاك شـيئًا مـا يلائـم الجميـع في أعـمال أدورنو، واقتبـس منـه قائـلًا: "يوجـد الحـب حيثـما يمكـن للمـرء إظهـار ضعفـه، مـن دون أن يسـتفز ذلـك الطـرف الآخـر لاسـتعراض قوتـه"، والتمعـت عينـاه بالدمـوع.

مـدَّت الدكتـورة يدهـا وأمسـكت يـده، وذكَّرتـه أن برنامـج المسـابقات المفضَّـل لهـما عـلى وشـك أن يبـدأ. لمـاذا وجـدتُ وجههـا العريـض الـذي خطتـه التجاعيـد باعثًـا عـلى الطمأنينـة إلى هــذا الحــد؟ رفـع دوندولـو نفسـه وترنَّـح متجهًـا نحـو البـاب، ووقـف موليًـا ظهـره للبـاب بطريقـة عفويـة. قالـت الدكتـورة إن هـذا يعنـي أنـه يريـد الخـروج، فعرضنـا أنـا ومينـا اصطحابـه للتمشـية. تبعنـا صـوت التصفيـق الصـادر مـن التلفزيون، وصيحـات الدكتـورة وهــي تقـول: "أحمــق!"، بينـما نحــن في طريقنــا للخــروج.

كان هنـاك ممرٌّ مـن المجمـع السـكني، يمتـد بطـول الشـاطئ الصخـري. هبَّــت الريــح القادمــة مــن البحــر، وطــيَّرت شــعري في عينــي، وظهـرت نجمــة أو نجمتــان عــلى ارتفــاعٍ منخفــضٍ. ســألت عــما إذا كان فيتوريــو قـد وعـد حقًّـا بالعـودة لاصطحـاب جينـا لولوبريجيـدا، لكـن مينـا أخـذت تتأمــل الســماء: "انظـري! أرواح أطفــال مــوتى". عــرج دوندولــو وترنَّــح خلفنـا في الوقـت الـذي اسـتغرقته مينـا لتدخـين سـيجارة، وبـدا الأمـر كـما لـو أن كوازيمـودو يتبعنـا. تعـالى هديـر البحـر مشـجعًا إيـاه، فاختـار صبـارة تـين شـوكي ليقـضي عندهـا حاجتـه، ثـم اسـتدار عائـدًا نحـو المنـزل.

كنَّـا سنشـاركه غرفـة نومـه، المفروشـة بوسـائد أرضيـة وسـجاد، وتعبـق برائحـة خمـيرة غنيـة. أخبرتنـا الدكتـورة أن اسـمه ليـس دوندولـو في الواقـع،

بـل أتاهـا اسـمه الحقيقـي منـذ زمـن بعيـد في واحـدٍ مـن أحلامهـا: جلـس والدهـا، الـذي لم يدخـن طـوال حياتـه، عـلى طاولـة بجانبهـا، وخـطَّ كلمـة في بعـض النبيـذ المنسـكب بجـذع غليونـه. لم يكـن لديهـا أي فكـرة عـن كيفيـة نطـق الكلمـة أو مـا تعنيـه: "لكـن بمجـرد أن قابلـت هـذا الكلـب، عرفـت أنـه اسـمه. يمكـن أن تكـون الصـلات الخفيـة هـي أعمـق نـوع مـن الصلات". هـل كانـت الدكتـورة فيلسـوفة؟ دكتـورة في الطـب؟ عالمـة أنثروبولوجيـا؟ لم يخطـر لنـا أن نسـأل عـن السـبب وراء لقبهـا. في أعيننـا الشـابة التـي تفتقـر إلى البصيرة، كانـت شـيئًا واحـدًا فحسـب: عجـوزًا.

فردنـا أنـا ومينـا أكيـاس نومنـا، وبدأنـا نبـدِّل ملابسـنا. قالـت لي مينـا: "لديـك ثديـان يشـبهان ثديـي حـواء في لوحـة كراناخ". بـدت في حالـة معنويـة مرتفعـة. كانـت الدكتـورة سـترينا فسـاتينها الثلاثـة التـي مـن تصميـم ماريميكـو صبـاح اليـوم التـالي، لتنتقـي مينـا مـن بينهـا واحـدًا لنفسـها. أعلنـت مينـا قائلـة: "أحبهـا!". مـررت إحـدى أذني دوندولـو بـين أصابعـي، مـما جعـل أنفاسـه تتباطـأ، حتـى بـات زفـيره نفثـات صغـيرة، وبـدا أن هـذا هـو كل مـا جـرؤ عـلى إظهـاره للتعبـير عـن السـعادة.

***

بعـد أن غادرنـا سردينيـا، سـافرت مينـا إلى إنجلـترا للانضـمام إلى نيـك، بينـما قضيـت بقيـة عطلتـي في فلورنسـا. في معـرض أوفيـزي، ذهبـت للبحـث عـن لوحـة كراناخ التـي تصـور حـواء.

عقـب عـودتي إلى مونبلييـه، وجـدت نـشرة إعلانيـة في صنـدوق بريـدي. كانـت نسـخة مصـورة عـلى ماكينـة تصويـر لكـف يـدٍ، وقـد بـرزت الخطـوط البيضـاء عـلى خلفيـة الكـف السـوداء. كُتِـب عـلى إحداهـما خـط الحيـاة، بينـما كُتـب عـلى الأخـرى خـط القـدر. كـما كانـت هنـاك رسـوم تصويريـة أيضًـا، عـلى راحـة اليـد وعـلى طـرف كل إصبـع: هـلال،

والرموز الدالة على المؤنث والمذكر، وظهرت عبارة في الجزء السفلي تقول: "أراك لاحقًا!".

فكرت على الفور في ثرثرة رينالدي بشأن القدر، لكن بدا أن المنشورات الإعلانية تفوق حدود قدراته، إذ إنها انتشرت في كل مكان لفترة من الوقت: معلَّقة على مصابيح الإنارة، ومبعثرة في المداخل، أو ألصقتها الريح في الأعمدة. كانت هناك كومة صغيرة منها ذات مرة على طاولة المقهى الذي اعتدتُ ارتياده، فسألت المالك عنها، ولم يكن المالك يشبه ساندرين، لكنه ذكَّرني بها: الشفاه الجافة، والأعين المرحة في وجه خبر الحياة.

قال لي إنه وجد المنشورات خارج الباب ذلك الصباح، "ربما كان إعلانًا". بدا من الواضح أنه قارئ للكف، لكن لماذا لا تحمل المنشورات عنوانًا أو رقم هاتف؟ دار تفكير المالك على مستوى أعلى، إذ رأى أن المنشورات تهدف إلى إثارة الاهتمام بحدثٍ طليعي قادم: ربما مسرحية، أو فيلم تجريبي. كان هذا ما تعنيه العبارة المكتوبة: "أراك لاحقًا!". أكد لي أن أحد العملاء المعتادين بالمكان سيظهر ومعه تفسير. "سنكتشف كل شيء". لكن في المرة التالية التي ذهبت فيها إلى المقهى، لم يكن أحدٌ قد تقدَّم ليعلن مسؤوليته عن المنشورات، وألقاها المالك بعيدًا، حيث بات يشعر الآن أنها لا بد وأن تكون "مزحة من قِبَل بعض طلاب المدرسة الثانوية".

توقفت المنشورات عن الظهور، وطرأت على عقلي فكرة: لا بد أن أيًّا من كان المسؤول عنها، كان يتتبعني ويعرف أين أذهب. ظهرت المنشورات في أماكن كان من المؤكد أن أعثر عليها فيها، بالقرب من سوق السلع المستعملة، وفي شارع مينا، وعند محطات الحافلات بالقرب من المدرسة الثانوية، لكني أدركت أن هذا كان غباءً، فبالطبع لم أرها إلا في الأماكن التي أرتادها.

أتـت عاصفـة، جالبـة معهـا ريحًـا فضيـة عاتيـة، تركـت الجـو وراءهـا متقلبًـا وعطـرًا، ورفرفـت بقايـا نـشرة إعلانيـة مهترئـة عـلى إحـدى لافتـات الطريـق. خـط الحيـاة، خـط القـدر، أراك لاحقًـا! لم أسـتطع أن أقـرر مـا إذا كانـت الرسـالة مرحـة، أم تنـذر بالشـؤم. بـدت اليـد صغـيرة ورشـيقة، يـد امـرأة باللونـين الأبيـض والأسـود، مثـل الغريـر. الليلـة التـي طبـخ فيهـا آل بـيرتي غريـرًا. وشـبدت المنشـورات مثـل تلـك الرائحـة: شـيئًا محـيرًا، مـن دون تفسـير.

***

لم يخطـر لي أن أيًّـا مـن هـذا لـه أهميـة كبـيرة. انشـغل تفكيري برسـالة، موقعـة باسـم لوسـيو، كانـت في انتظـاري في صنـدوق بريـدي في المدرسـة ذات صبـاح. بلغـة إنجليزيـة مهلهلـة، ذكّـرني لوسـيو بأننـا لعبنـا لعبـة سـكوبا عـلى مـتن عبّـارة، وكتـب أن لديـه "آمـالًا عظيمـة" للاشـتراكية، ويفكـر في المجـيء إلى فرنسـا للانتخابـات الرئاسـية في مايـو، وسـألني إذا كنـت أرغـب في رؤيتـه إذا جـاء بالفعـل.

سألتُ مينا: "هل تعتقدين أنه قاتلٌ متسلسلٌ؟".

"سيشـكّل مصـدرًا كبـيرًا للمتاعـب إذا كان كذلـك. كان بمقـدوره خنقـك عـلى مـتن العبّـارة فحسـب، ودفعـك إلى البحـر. لكـن كيـف عـرف العنـوان الـذي يراسـلك عليـه؟".

"يبدو أننا جميعًا تبادلنا العناوين".

"أنـت تعلمـين أنـه يريـد مضاجعتـك، وأعتقـد أنـه يمكـن أن يقتلـك بعـد ذلـك، أو قبـل ذلـك، إذا كان هـذا هـو مـا يفضّلـه. تذكـري فقـط أننـي لـن أكـون في الجـوار عندمـا تصرخـين".

كانت الجولة الأخيرة من التصويت في الانتخابات ستُجرى في عطلة نهاية الأسبوع التي استمرت ثلاثة أيام، بمناسبة ذكرى انتصار الحلفاء على ألمانيا في الحرب العالمية الثانية. خطَّط نيك ومينا لقضائها في ليون، حيث يعيش أحد أصدقائهما.

انتشر ملصق الحزب الاشتراكي الذي ينتمي إليه ميتران في كل مكان في ذلك الوقت: قبضة يد وردية بلون لحم الخنزير، ملتفَّة حول وردة حمراء. وكان من المقرر أن يصل لوسيو يوم الجمعة، وهو اليوم الأول من عطلة نهاية الأسبوع الطويلة. في طريقي لمقابلته، قبلت وردة طويلة الساق عديمة الرائحة من ناشطٍ وقف يوزعها على سلَّم المحطة. كنت قد أرسلت إلى لوسيو بطاقة بريدية تتألَّف من جملة واحدة، وأرسل إليَّ هو بطاقة بها موعد قطاره. وعندما وصل القطار إلى المحطة، لم أكن أعرف أي من الإيطاليين سأراه. الطويل أم ذا النظارات أم الخجول؟ أدركت أن الوردة تشكِّل عبئًا غبيًّا. هل سيتعرَّف لوسيو على الشعار الاشتراكي؟ ماذا لو أخطأ الظن واعتقد أنها لفتة رومانسية؟ سيكون ذلك محرجًا أكثر بكثيرٍ مما لو كنت قد حضرت لمقابلته عارية. تفاديت المسافرين، وهرعت للبحث عن سلة المهملات. وفي النهاية، ألقيت الوردة على أحد المقاعد. عندما خلا رصيف المحطة، بقي فتى أسود الشعر يحمل حقيبة ظهر واقفًا بجوار آلة بيع. كان لوسيو هو الخجول، لكنه لم يكن خجولًا على الإطلاق في فراشي، وخلال الأيام الثلاثة التي قضيناها معًا، تعلمت عددًا غير قليل من الكلمات الإيطالية.

***

أقامت السينما آخر عرض لها قبل العطلة الصيفية: "فرابيه نعناع" للمخرج كارلوس سورا. كانت الشوارع التي سادتها الاشتراكية

حديثًا مظلمة عندما انتهى الفيلم، لكن السماء بدت غريبة وجميلة بلون أزرق مائل إلى الخضرة. بينما أنا أسير عائدة في طريقي إلى المنزل، تظاهرت أن لوسيو ينتظر في شقتي. انقضى أكثر من أسبوع منذ رحيله إلى الأبد، لكن الدفء كان لا يزال يغمر ثدييَّ الصغيرين النافرين عندما أفكر فيه. اشترى لي باقة من زهور التوليب صباح يوم الانتخابات، وقد ذبلت وألقيتها بعيدًا بالفعل، لكنها بقيت متفتحة ويانعة في الذاكرة.

مرَّ نسيم هادئ بين الأشجار، وبدت رائحة الرطوبة في الجو. تمطعت خلايا جسدي كوحوشٍ تشعر بالرضا، وعندما اقتربت من التقاطع، ظهرت نجوم ضبابية على مبعدة. وصلنا أنا والشاحنة البيضاء عند إشارة المرور في نفس الوقت معًا. تحوَّلت الأضواء إلى اللون الأخضر، لكن لم تتحرك الشاحنة، ولم أتحرك أنا. كانت حقيبتي معلقة فوق كتفي بالعرض، فقبضت على سيرها المثبت به مشبك. كان داخلها مسدس أودري الجريئة: تلك اللعبة التي بلا فائدة. اركضي، أمرت نفسي، اركضي! لكنني وقعت في قبضة شعور عارم بالهدوء: كان ذلك الهدوء الذي يحلُّ بعد انقشاع الشعور بعدم اليقين مثلما ينقشع الضباب، حتى يلتمع بعدها بوضوحٍ الطريق إلى الأمام. بدا أن العام بأكمله كان يقود إلى هذه اللحظة، فكرت: ها هي الآن!

عادت الأضواء إلى اللون الأحمر، وحرَّرني ذلك التغيير، فهرعت عبر التقاطع، في مواجهة الأضواء، وحقيبتي تضرب فخذي. كان رينالدي خلف عجلة قيادة الشاحنة، والمرأة الشمعية متجمدة بجواره، ولم ينظر أيٌّ منهما نحوي، على الرغم من أنه كان من المستحيل ألا يلحظا وجودي. بدت أعينهما مثبتة إلى الأمام، كما لو أنها تتطلَّع إلى المستقبل. واصلت الركض، وفي أثناء الجري أدركت أن كوني جريئة ومثيرة وعصرية وذكية كلها أمورٌ لا صلة لها بالموضوع. الكلمة

الوحيدة المهمة هنا هي "امرأة". كان هذا هو السبب الذي اضطرني إلى الركض.

عندما سمعت أصوات آلات لعبة الكرة والدبابيس في المقهى الذي يعمل حتى وقت متأخر من الليل، توقفت عن الركض، ثم التفت خلفي نحو التقاطع وأنفاسي تمزق صدري، ولم يكن هناك شيء.

***

في المرة الأخيرة التي رأيت فيها ساندرين، دعتني إلى حفل زفافها، إذ وصلت أوراق رياض خلال ذلك الأسبوع. قالت: "الأوغاد يخشون العمال الآن، بعد أن وصل الاشتراكيون إلى الحكم، ويعتقدون أننا سنثور ونقطع أعناقهم". ثم ضحكت، وتابعت: "لا، أذهانهم أصغر من أن تتخيل ثورة، إنهم خائفون من أن نحرمهم من معاشاتهم التقاعدية".

أخبرتها بأنه في ليلة الانتخابات، كانت الأنوار مضاءة في كل غرفة في مقر الشرطة: صف فوق صف من النوافذ اللامعة، حتى السقف. قال شخص ما في الحشد: "لا بد أنهم يتصفحون جميع الملفات، ليتخلصوا من أي شيء يدينهم". تساءلت عمّا إذا كان السيد بيسيه في مكتبه، يمزق الرسائل التي خُتمت بطابع "ملعون إلى الأبد"، لأن من كتبها أشخاص لم يحظ حرف L الذي يخطونه بالقبول.

في مساء يوم الأحد ذاك، ارتدينا أنا ولوسيو ملابسنا، وخرجنا عندما تعالت الصيحات والألعاب النارية. أخذ الناس يتدفقون إلى وسط المدينة، ودوت الأبواق من دون توقف، علامة للنصر، واندلعت الموسيقى من السيارات والمقاهي. عقدنا أذرعنا بأذرع غرباء، وانضممنا إلى سلسلة بشرية تعبر الطريق. تعالى هتاف: "لن يُهزم الشعب المتحد أبدًا!". لمحت ديتر، الذي صعد فوق قاعدة تمثال وأخذ يلتقط

صـورًا للحشـد. التفـتَ عندمـا سـمع صيحتـي، لكـن كان هنـاك الكثـر مـن الأشـخاص الذيـن يحولـون بيننـا، حتـى انجرفنـا أنـا ولوسـيو في الطريـق.

تسـاقط المطـر في زخـات سريعـة، فانعطفنـا أنـا ولوسـيو إلى شـارعٍ ضيـقٍ، وصادفنـا أدالـبرت يحتمـي في أحـد المداخـل. كان قـد أقلـع عـن التدخـين هـذا العـام، وبـات وجهـه محاطًـا الآن بإكليـلٍ صغـيرٍ من الشـحم. بـدا أن المـلازم الوسـيم يفسـح المجـال لقائـد فرقـة في منتصـف العمـر، يداعـب ذقنـه المزدوجـة وهـو يوقـع أوامـر الإعـدام.

أخـرج أدالـبرت محفظتـه وأظهـر لنـا صـورة، وقـال إن رامـون مـات. كلَّـف إحـدى الجـارات بسـقايته في عيـد الفصـح، لكنهـا لم تفعـل، أو ربمـا أفرطـت في الـري، كان مـن الصعـب معرفـة أيهـما. حـاول أدالـبرت رعايـة رامـون حتـى يسـترد عافيتـه، لكـن بـلا جـدوى. بـدا صوتـه ثابتًـا، لكـن وجهـه أخـذ يتشـنج وهـو يتكلـم، ومـلأت الدمـوع عينيـه. خـفَّ هطـول المطـر، فحثثْتُـه عـلى القـدوم معنـا، لكنـه رفـض مغـادرة المدخـل الـذي يقـف فيـه. بعـد ذلـك بسـنواتٍ، ظهـر أدالـبرت أمامـي، وهـو فائـق الوسـامة ويثـير الإعجـاب بشـدة. أطـلَّ مـن إحـدى النوافـذ وهـو ينطـق عبارتـه الوحيـدة خـلال الفيلـم: "يـا لـه مـن خريـفٍ رائـعٍ، هـذا الـذي نتمتـع بـه"، بينـما كان اليهـود خلفـه يُسـحَبون مـن داخـل الخزانـات ومـن تحـت الأسِرَّة.

بـدت السـعادة عـلى ملامـح سـاندرين بدرجـة لا توصـف وهـي تخـبرني بأمـر زفافهـا. تقـرر أن يتـم في يونيـو، لكننـي شرحـت لهـا أننـي لـن أكـون موجـودة، إذ كنـت ذاهبـة بصحبـة أصدقـائي للتخييـم لمـدة شـهر، وسـأتوجه إلى باريـس للانضـمام إليهـم في غضـون أسـبوع، في نهايـة مايـو. قالـت سـاندرين: "لكـن سـيفوتك موسـم الفواكـه الحمـراء!"، وبـدا في نبرتهـا الشـعور بالصدمـة، كـما لـو أن الاحتـمال غـير واردٍ. بـدا الأمـر سـخيفًا، لكـن غمـرني إحسـاسٌ مـروعٌ بـأن شـيئًا مـا قـد فاتنـي. تزاحـم

في ذهنـي كل الوقـت الـذي قضيتـه في فرنسـا وكل مـا يحملـه، الوجـوه والشـوارع والانطباعـات والغـرف، وانزلـق أمامـي بـلا هـوادة كـما تُلمَـح الحيـاة مـن القطـار.

***

امتـلأت الأيـام المتبقيـة بالـوداع، وبـين كل وداع وآخـر، انشـغلتُ بحـزم أغـراضي وتنظيـف شـقتي. وفي يـوم الأحـد الأخـير مـن الشـهر، كنـت سـأذهب إلى سـيت مـع نيـك وميـنـا، ونويـت أن أسـتقل قطـارًا متجهًـا إلى باريـس في تلـك الليلـة، بينـما يتوجهـان بالسـيارة إلى إسـبانيا في اليـوم التـالي.

في مسـاء الجمعـة، عـدت إلى المنـزل في وقـتٍ متأخـرٍ بعـد عشـاء وداع تناولـتُ فيـه الكثـير مـن الـشراب مـع ديـتر ومعلمـين آخريـن من المدرسـة. حملـت مفاتيحـي في يـدي، وركضـت صاعـدة الـدرج بخفَّـة، مـرورًا ببـاب رينالـدي الصامـت. عبـق السـلم برائحـة دخـان السـجائر، لكننـي كنـت قد اقتربـت بالفعـل مـن المنعطـف الأخـير في الـدرج حينـما أدركـت مـا يعنيـه هـذا. نهـض رجـلٌ مـن عـلى سـلَّم دورة الميـاه. قـال نيـك: "ظننـتُ أنـك لـن تعـودي إلى المنـزل أبـدًا، أيـن هـي؟ مـاذا قالـت لـكِ؟". انطفـأ الضـوء. حتـى إذا بقيـت هنـاك إلى الأبـد، فلـن أعتـاد النـور عـلى ذلـك السـلم وتحولاتـه التـي تتسـبب في توقـف قلـب المـرء. واصـل نيـك الحديـث في الظـلام قائـلًا: "عليـك أن تخبرينـي أيـن ذهبـت".

بمجـرد دخولـه، طلـب كوبًـا مـن المـاء. جلـس عـلى طاولـة المطبـخ، والكلـمات تتسـاقط منـه، مـن دون أن يلمـس الميـاه. عـاد إلى المنـزل منـذ يومـين، ليجـد أن مينـا قـد رحلـت، وقالـت الرسـالة التـي تركتهـا إنهـا راحلة لتكـون بمفردهـا، ولتحـدد مـا تريـد أن تفعلـه في حياتهـا، ولم تكـن تريـد

رؤيته خلال الصيف، وعليه ألّا يحاول العثور عليها. سأل مرة أخرى "أين هي؟".

حاولت أن أفهم أن مينا قد رحلت، غادرت بلا كلمة أو إشارة إليّ. في عطلة نهاية الأسبوع، قمنا بزيارتنا الأخيرة لسوق السلع المستعملة، وارتدت مينا جوارب لامعة، وحذاء دوك مارتينز، وفستان طفلة بأكمام منتفخة، بعد أن خاطت في جوانبه أشرطة من قماش متنافر لتوسيعه. لفتت انتباهها في أحد الأكشاك صدرية طويلة رثّة، مخطَّطة باللونين الأزرق والبرتقالي، ولها أزرار معدنية. ارتدتها فوق فستانها، وكانت النتيجة قبحًا خالصًا، لكنها لم تشترِ الصدرية. عرفت السبب الآن: كانت ستمثّل شيئًا آخر إضافيًّا تضطر إلى تركه خلفها عند رحيلها. لماذا لم تسر إليّ بما انتوته؟ "أريدنا أن نبقى معًا دائمًا". ألم تكن هي التي قالت ذلك؟ محادثاتنا المطولة، وأودري الجريئة، وسردينيا، كل هذا انزلق وسقط من حافة الهاوية. قلت لنفسي إن أيًّا من ذلك لم يكن له أهمية بالنسبة إليها. تشوَّش عقلي بفعل النبيذ والشفقة على الذات، ولم يكن هناك أي نبيذ في متناول اليد... سهو غبي.

كانت هناك قطعة من خبز الباجيت القديم على الطاولة. مزَّق نيك قطعة وأكلها، ثم أكل قطعة أخرى. وجدت قطعة من الجبن البري في الثلاجة، ووضعتها أمامه مع سكين. عندما سألته لماذا استغرق الأمر يومين ليخبرني عن مينا، قال: "اعتقدت أنها ستعود، إذ لم تأخذ ملابسها". ثم أضاف بنبرة مختلفة: "ملابسها اللعينة!". حشر في فمه قطعًا ضخمة من الخبز والجبن، وبين كل قضمة وأخرى، تغيَّر صوته، كان الصوت يتهم مينا بالأنانية والكذب، ثم يتحدث عن الخسارة. بدا صوتًا متناقضًا، وقال: "إنها لا شيء بالنسبة إليّ، وهي كل شيء". وكان كلا التصريحين صحيحين.

تحدَّث الصوت عن رجل في ليون. كان بيت يُعِد فيلمًا وثائقيًا عن العمال المهاجرين هناك، واعتقد الصوت أن مينا ذهبت إليه، "لقد رأيت الطريقة التي تنظر بها إلى بيت. إنه من ذلك النوع الهادئ، وهو يتصف بالضحالة، لكنه وسيم، سأعترف بذلك".

إلى أي مدى كان يتعيَّن على مينا توضيح ما تريده، حتى يصدقها؟ قلت: "لقد أخبرتك بأنها تريد أن تكون بمفردها، لماذا تتخيل أنها مع شخص آخر؟ إنها ليست طردًا يتم تبادله". قبل أن أنتهي من الحديث، شرعت أتثاءب، وتداخلت كلماتي. مينا ونيك ... لقد سئمت من كليهما، لكن نيك على الأقل، يمكن الاستفادة منه. سرى نفس الطنين الخافت الذي سمعته في غرفة جمال: كان صوت دمائي وهي تجري في عروقي، فدفعت مقعدي إلى الخلف، وقلت: "من الأفضل أن تأتي معي، سأذهب للنوم".

***

لم تكن هناك ملاءات على سريري، إذ أعدتهم إلى مدام بيسيه ذلك الصباح. قبل ذلك، أخذتهم إلى المغسلة حيث تم غسلهم وتنشيتهم وكيهم، قبل ثنيهم ولفهم بورق أبيض كالثلج. أعلنت المديرة وهي تضع اللفافة على الطاولة: "سبعة وأربعون فرنكًا". سبعة وأربعون فرنكًا! كم كلَّفتني تلك الملاءات على مدار العام؟ حاولت استرداد بعض الأرباح، حتى ولو مجرد في صورة مجاملة لذوق امرأة ميتة، وقلت: "إنها رائعة، أليس كذلك؟".

كشَّرت المديرة، وبدت وجنتاها مخضبتين بالحمرة، لكنني أرجعت السبب في ذلك إلى الحرارة في المغسلة. أخبرتني أن العمال لا يمكنهم تحمُّل تكلفة الكماليات، لكن هناك من يلقون بالمال كما لو أنهم يلقون بالكلمات المنمقة. أدركت أن وجهها تخضَّب من أثر الانفعال.

كانـت تخاطبنـي مـن عـام 1789: صـار الباسـتيل عبـارة عـن أنقـاضٍ حديثـة، والدوقـات ترتجفـن في مخابئهـن داخـل خزائـن المكانـس. قالـت المديـرة: "أصبحـت الأمـور مختلفـة الآن، وسـيتعيَّن عـلى الأغنيـاء توخـي الحـذر". انتـشرت التصريحـات في كل مـكان بـأن العـالم انقلـب رأسًـا عـلى عقـب، في تلـك الأسـابيع المثـيرة التـي أعقبـت الانتخابـات، "لقـد تغـير كل شيء"، و"لم يعـد شيء مثلـما كان في المـاضي". وكانـت نـبرة الصـوت تتغـيَّر تبعًـا للمتحـدث: مرحـة، أو تحمـل التهديـد، أو تنـذر بالشـؤم. غـادرت المغسـلة في دوري الجديـد كعـدوة للشـعب، وتبعتنـي المديـرة إلى البـاب ووقفـت هنـاك عاقـدة ذراعيهـا. راقبتنـي وأنـا أصعـد إلى منصـة الإعـدام، ملفوفـة في مـلاءة مطـرَّزة بالأحـرف الأولى لاسـم أحدهـم.

نمنـا أنـا ونيـك عـلى مرتبـة عاريـة ليلـة الجمعـة، وكيـس النـوم في متنـاول يدنـا لنتغطـى إذا شـعرنا بالـبرد. رحـل في وقـتٍ مبكـرٍ مـن اليـوم التـالي، وحزمـت آخـر صندوقـين مـن أغـراضي، وأخذتهـما إلى مكتـب البريد. كانـت تحتـوي عـلى ملابـس شـتوية، وروايـات، وعلبـة "مطهـو مرتـين" منقوشـة بالزهـور، ودبـوس كُتـب عليـه: "نـووي؟ لا، شـكرًا"، مـع صـورة شـمس مبتسـمة. هنـاك واحـد مـن هذيـن الصندوقـين لم يصـل إلى سـيدني قـطُّ. فقـدت معطفـي الدافـئ، وبطاقـة رونيـس، والفسـتان ذا اللمسـة الفنيـة الـذي صنعتـه لي مينـا.

عـاد نيـك ليلـة السـبت ... بالطبـع عـاد. اسـتيقظت في وقـتٍ مبكـرٍ جـدًّا مـن يـوم الأحـد، وسـمعته يتمتـم في أثنـاء نومـه. في المطبـخ، شربـت كوبًـا مـن المـاء، وأنـا أشـاهد أول آثـار مـن الضـوء في السـماء، "لا حاجـة إلى العجلـة، لا حاجـة إلى التألّـق". تعلمـت ذلـك أيضًـا مـن المكتبـة الأمريكيـة، كهديـة أخـيرة. فكـرت أن مينـا كانـت مـن النـوع المتألـق. لم يكـن هنـاك سـبب يمنعنـا أنـا ونيـك مـن الذهـاب إلى سـيت مـن دونهـا لزيـارة قـبر فالـيري. عنـد التفكـير في المـاضي، تتضـح لي رغبتـي التافهة في إظهـار اختلافي عـن مينـا: أنـا التـي كنـت عـلى درايـة بـالأدب الفرنـسي، مثـل نيـك.

تباطأنا في النهوض من الفراش ذلك الصباح، كما تباطأنا في ارتداء ملابسنا. لكن النهار بدا ساطعًا كالقصدير، ولم تكن سيت بعيدة. حملت حقيبتي على كتفي، ونزلنا الدرج. صدرت جلبة من شقة رينالدي: أصوات رجال، وطرقات، وما يمكن أن يكون أبوابًا أو أدراجًا تُغلق بعنفٍ. بدا الأمر كما لو أن لصوصًا صاخبين يفتشون المكان. تمنيت ذلك، لكن ربما كان رينالدي سينتقل من سكنه أخيرًا، ولديه أشخاص للمساعدة.

في الردهة، أسقطت مفتاحي في صندوق بريد آل بيرتي وفقًا لتعليمات السيد لافال. بدا صمتهما مخيبًا للآمال، ألم يدركا أنها فرصتهما الأخيرة في الضحك؟ قلت لهما بتعجرفٍ: "لقد فاتتكما الفرصة".

توقَّف نيك خارج بنايتي السكنية لإشعال سيجارة. حتى في ذلك اليوم الصيفي، ظلَّت رائحة الأحجار الباردة واضحة. نظرت إلى شقتي من الجانب البعيد من الشارع، حيث أغلقت مصاريعي الزرقاء قبل دقائق، وكانت المرأة الشمعية تبتسم لي من الأعلى. رأيت وجهها في نافذة دورة المياه، التي كانت أعلى من أن يُركب فيها مصاريع أو يطل منها وجه. قال نيك: "ما الأمر؟"، وأمال رأسه إلى الخلف ليطل على شقتي. لكن لم يكن هناك أحد عند النافذة، بل مجرد بقعة من ضوء الشمس على الزجاج.

هبَّ نسيمٌ منعش خلال السيارة بينما كنَّا نسرع عبر الساحل، كما لو أن الإلهة تمرِّن رئتيها. التمع البحر كالبصاق، واكتست كل الأمواج الصغيرة بالدانتيلا. لا أستطيع أن أحدِّد متى تمامًا أدركت أن تلك النزهة كانت خطأ. غنَّى نيك "ذات صباح مخملي..."، نسي الكلمات، ثم صمت. كانت مينا هناك على أي حالٍ، تقضم أظافرها في المقعد الخلفي، وهي غير مرئية، مرتدية ملابس غريبة، وتطرح أوامر صامتة. لا بد أنها هي ونيك قالا لبعضهما تلك الأشياء التي

يقولها الأشخاص الواقعون في الحب. ولا بد أنهما ظنَّا أنهما فريدان، يختلفان عن أي عشاق آخرين في التاريخ. بعد يومين من رحيلها، تبعني إلى فراشي. وبينما هو يتأرجح بداخلي، قال إن هذا هو ما أراد فعله منذ أن رآني أول مرة، وكان لوسيو قد قال الشيء نفسه. تساءلت عمَّا إذا كانت فتاة إيطالية قد رحلت، ولم تترك له سوى رسالة، كما تساءلت عما إذا كانت تقضم أظافرها.

في سيت، ازدحمت المطاعم على طول الواجهة البحرية بالعائلات. في النهاية، وجدنا طاولة تحت المظلة. قال النادل، وهو يستعد لأخذ طلبنا: "سيدي، سيدتي، أنا مصغٍ إليكما". أحضر لنا قنينة من النبيذ الأبيض المثلج بينما كنَّا ننتظر طعامنا. ماذا سيحدث لو كتبت اسمينا في التكثيف الظاهر على الزجاج، وأحطتهما بقلبٍ به سهم؟ رأيت نفسي أهرع على رصيف محطة ممتد إلى ما لا نهاية، محاولة التخلص من وردة حمراء ذات دلالة. كان الجنس مجرد حجة بالنسبة إلى شخص مثلي، تخفي الرغبة في العواطف. شرع عازف أكورديون أشيب يتحرك ببطء عبر الشارع، ويتوقف عند الطاولات. أخذ يعزف "موسم الكرز"، وكانت تلك الأغنية، المرتبطة بكومونة باريس، شيئًا آخر سمعناه في كل مكان خلال تلك الأسابيع من شهر مايو. لا أعرف لماذا، لكن الكرز الذي تصفه الأغنية بدا كأنه قطرات من الدم. قيل إنها تلهم الأمل، لكنها بدت أغنية عن الهزيمة.

مدَّ نيك يده إلى أسفل المنضدة، وتسلَّلت أصابعه أعلى ساقي. صارت بشرته مسمرة من الشمس مرة أخرى، وبدا أنحف وأكثر صلابة. تناولنا الطعام في صمتٍ. سيدي، سيدتي، أنا مصغٍ، لكن لم يكن هناك شيء ليسمعه. صرنا زوجين منهكين بعد ستة وثلاثين ساعة من رفقتنا، من دون كلمات نتبادلها. كان أهم ما يشغل بالنا هو الجنس، ومينا: ولم يكن أولهما يتطلَّب الكلام، بينما لم نستطع الحديث عن ثانيهما. بدا ماضينا ملغمًا بالفخاخ، لذا فتشت في المستقبل، وسألت

نيك إذا كان سيعمل على روايته خلال الصيف. قال: "أوه، لقد أخبرتكِ عن ذلك إذن؟". بدا مسرورًا، كما لو أن ذلك يثبت أن مينا لطالما كانت خبيثة. ظهر الصوت المتناقض: لم تحترم مينا كتاباته قطُّ، وكان مفهومها عن الأدب هو مجلة "ذا فيس". كانت طفلة مدلَّلة نشأت أمام شاشة التلفزيون، وتضع الصور في مرتبة أعلى من الكلمات. كانت أفعى، وكانت طائر سنونو. بكى الصوت: "ماذا سأفعل من دونها؟". في الفراش، تحدَّث نيك عن عائلته، قائلًا: "نحن من الطبقة المتوسطة الآن، لكن جدي الأكبر كان صيادًا. ذهب إلى البحر عندما كان في التاسعة، وهناك صورة له واقفًا على صندوق خشبي: مجرد صبي خائف". أخبرتني الطريقة التي قال بها "صبي خائف" أنه يتحدث عن نفسه.

عندما مسحت نفسي في مرحاض المطعم، خرجت الورقة وبها كتلة خيوط بيضاء لزجة، كما كانت هناك بقع لامعة على فخذي، حيث جفَّت قطرات من السائل المنوي. استحممنا أنا ونيك ذلك الصباح، ثم اتفقنا: "مرة أخيرة".

بعد الغداء، توجهنا إلى "المقبرة البحرية"، المسماة على اسم قصيدة فاليري الشهيرة. في موقف السيارات عند سفح التل الذي تقع عليه المقبرة، تبادلنا القبلات مرة أخرى. اتكأت على الإلهة، وامتزج في فم نيك نكهات النبيذ والطماطم والسجائر، وعلى نحوٍ خافتٍ للغاية، بشكلٍ فائق الجمال، نكهتي أنا.

في كوخ الحارس، تسلَّمنا خريطة توضح مكان قبر فاليري، وانطلقنا في طريقنا في ممرٍّ صاعدٍ إلى الأعلى. انتشرت أشجار السرو الداكنة، أكثر الأشجار بسالة، تحرس المكان. كانت هناك مقبرة تطل على البحر في سيدني أيضًا، وكان للموتى هناك نفس المقابر البيضاء، كما للسماء نفس الزرقة الحادة. لكن الحشائش والأعشاب المزهرة تفجرت من

تلك القبور في سيدني، وقطعت الممرات بينها، بينما هنا، تآمر الطوب والأسفلت الذي لا تشوبه شائبة لسحق الحياة الأبدية. ظلَّت مينا تلاحقنا بهتافها الساخر: بول سيليري.

عثرنا على قبر فاليري عقب صعودنا إلى الأعلى ونحن نتصبَّب عرقًا. حتى تلك اللحظة، كنَّا نولي ظهرنا للمنظر، لكننا جلسنا الآن لبعض الوقت على حافة قبره الرخامي، نشاهد ما رآه هو: القوارب البيضاء مثل الحمائم، والبحر المتقلب. بينما كنت أستريح هناك والموت قريب في كل مكان، شعرت بالكبر لأن جسدي ينبض بالحياة.

أخذ نيك يحاول أن يتذكر كيف تبدأ قصيدة "المقبرة البحرية". تلا قائلًا: "هذا السقف الهادئ، حيث تسير الحمائم، بين أشجار الصنوبر..."، ثم بدا كما لو أنه علق. قال: "الجزء التالي هو بين القبور، لكنْ هناك فعل قبل ذلك". ضيَّق عينيه في وهج الشمس، وكرر قائلًا: "بين أشجار الصنوبر، بين أشجار الصنوبر...".

قلت: "الكلمة هي يختلج، يختلج بين أشجار الصنوبر".

وجَّه إليَّ نيك نظرة من الدهشة الخالصة، استمرت ثلاث ثوانٍ، بدت كما لو أنها دهرٌ. قال: "بالطبع"، ثم استدار ليواجه المشهد مرة أخرى. تابع قائلًا: "أحسنت". جفل البحر، وظل الضوء يتراقص. بدا كالضوء المنعكس من على سكين العربي عند ذلك الشاطئ في رواية "الغريب". من يستطيع القول ما إذا كان العربي حاصلًا على شهادة في الفرنسية، ويستطيع تلاوة فاليري عن ظهر قلب؟ المؤكد هو أن مورسو لم يكن يتوقع ذلك السكين، مثلما لم يتوقع نيك أن يجد شخصًا مثلي على دراية بخبايا القلب التاريخي.

بدأ كفُّه ينفرد وينغلق فوق ركبته، ينفرد وينغلق. ربما أخذ يحسب إذا كان هناك ما يكفي من الوقت لمرة أخيرة -لو اختبأنا خلف الشجيرات، أو على المقعد الخلفي الساخن بالسيارة- لكنه

على الأرجح كان منشغلًا بتوجيه الاتهامات إلى مينا. كانت موجودة بسروالها المصنوع من قماش الترتان، واقفة على سطح أحد المدافن وهي تتجاهله. همست إليّ وسط طنين حشرات الزيز: "لدينا عمل يجب القيام به، فنحن فتاتان في مواجهة العالم، أتذكرين؟". الشيء الذي ظلّت مينا تنساه هو أن واحدة منّا فقط تمتلك بشرة لها أجمل لون. يمكننا استعادة الليل، والسير جنبًا إلى جنب، وكان لهذا أهمية كبيرة، لكن هل يمكن أن يصبح ذلك كافيًا على الإطلاق؟

أما بالنسبة إلى نيك، فهنيئًا له القلب التاريخي: كان مكانًا باردًا ومخيفًا، وغير مناسب لشخص مثلي، لكنني سأستمر في تفتيشه رغمًا عن ذلك، بحثًا عن لوحات كراناخ، وآثار رواية "المدعوة"، وقصائد فاليري، وزقزقات الطيور ساعة الظهيرة، ولن يوقفني أي شيء، سواء مسدس أو نظرة. كنت جريئة ومثيرة وعصرية وذكية، وسيضطر التاريخ إلى الركض حتى يتمكّن من مواكبتي.

***

كنّا أربعة فقط في المقصورة، بالقطار المتوجه إلى باريس تلك الليلة. تمددت امرأة وابنتها الصغيرة على أحد المقاعد الطويلة المكسوة بالفينيل، بينما ارتحنا أنا ورجل عجوز قدر استطاعتنا على المقعد الآخر. نمت نومًا عميقًا ونحن نتمايل وسط الظلام، وعندما استيقظت، كنّا على مسافة أربعين دقيقة خارج حدود باريس. رحل الرجل، تاركًا وراءه نسخة من صحيفة "ميدي ليبر"، وتكوّمت المرأة بجوار النافذة، غارقة في النوم، كما كانت ابنتها نائمة أيضًا، ورأسها في حجر والدتها.

أخذت الحقيبة التي تحوي ما أحتاج إليه للاغتسال، وغادرت المقصورة. وعندما عدت، وجدت الطفلة قد اعتدلت جالسة. من

أسنانها الأمامية الضخمة، خمنت أنها في السابعة من عمرها. رأتني أنظر إليها، فدفعت كلتا يديها في شعرها ورفعته، بحركة تشبه امرأة بالغة. تحركت والدتها بجانبها وتثاءبت. مددت يدي نحو الصحيفة المهجورة وقلبتها، فأطلّت أجمل امرأة في فرنسا مبتسمة تحت أحد العناوين: "جريمة مروعة في كلارينساك". أخبرني الصحفي أن جثة ماريان ساجارا المشوَّهة عُثر عليها في أرض قاحلة بالقرب من قرية على بُعد أربعين كيلومترًا من مونبلييه، بعد أن ظلّت في عداد المفقودين منذ أكثر من أسبوع، واحتجزت الشرطة مشتبهًا فيه، ومن المتوقع حدوث تطورات أخرى.

علمت أن عائلة ماريان ساجارا هاجرت إلى فرنسا من مالي. كانت في الرابعة والعشرين من عمرها، ومخطوبة لجندي. ربما أكون مخطئة في هذه التفاصيل. كان كل ما يمكنني رؤيته وأنا أقرأ هو تقاطع طرق، ولافتة هناك تشير إلى الطريق المؤدي إلى كلارينساك، وشاحنة بيضاء مترددة عند إشارة المرور. بين الحين والآخر، أتساءل عمّا إذا كانت الطفلة ذات الشعر الأسود الكثيف تسأل والدتها: "هل تذكرين تلك الفتاة في القطار؟ التي بدت كأنها فقدت شيئًا حيويًا؟". لكن في تلك الأيام، كنت أومن أننا يمكن أن نترك الماضي وراءنا، مثلما نترك بلدًا من البلاد. اعتقدت أن هذا الصباح المشرق كان بداية حياة جديدة. ظهرت أولى بنايات سكنية ذات أسقف أردوازية بجوار شريط القطار. حملني القطار قدمًا، وتغيَّر كل شيء من اللون الياقوتي إلى اللؤلؤي.

***

وصلتني رسالة في أوكسفورد ذلك الشتاء. وصلت إلى سيدني، ثم أرسلتها والدتي عبر نصف الكرة الأرضية. كانت مينا تعيش في نيويورك، وقد أمضت الصيف في اليونان، حيث تعاونت مع مجموعة

من الأمريكيين الذين قابلتهم في جزيرة، واستأجروا منزلًا أبيض به شجرة توت. ثارت عاصفة عندما كانت مينا على متن عبَّارة، وعانت دوار البحر بشكلٍ لا يوصف. انقلبت العبَّارة، واعتقدت أنها ستموت، حتى أنقذها قارب صيد، وانسلخ جزء من جلد مقدمة ساقها خلال ذلك. حارب اليونان الفاشية بشجاعة غير مسبوقة، لكنهم اتصفوا أيضًا بالقسوة غير المبررة ضد الحيوانات. ولو كان بحوزتها مسدس، لدارت مينا تطلق النار على كل الكلاب المضروبة المقيدة بالسلاسل. دفعتها الأيقونات إلى الشعور بالرغبة في ممارسة الرسم، بينما جعلها نوع حلوى اسمه بوجاتسا تؤمن بالجنة. تألَّفت رسالتها من العديد من الصفحات الصفراء المسطرة، لكن في المجمل كان هذا ما يدور حوله حديثها.

ثم كتبت:

حملت خلال الصيف السابق لمونبلييه، حيث عملنا في فندق في تولون: كان نيك نادلًا، بينما أنا أساعد في المطبخ. وفي فترة ما بعد الظهيرة، بين نوبات العمل، كنَّا نستلقي في غرفتنا في العلية ونتجادل. لكن الأسوأ من ذلك هو عندما كان الصمت يشتد مثل الحرارة. كانت الحرارة أشد من أن يرتدي المرء ملابسه. أبقينا المصاريع مغلقة، لكنني أذكر وجود قضبان من الضوء والظلال على أجسادنا، كما لو أن هناك ستائر معدنية على النافذة. لا بد أن ذلك كان حلمًا. كنَّا في شهر أغسطس، وانتابني الشعور بالإعياء معظم الوقت. وفي أحد الأيام، أعطوني كومة من الخس كي أغسلها وأعدَّها للغداء. قطعت كل الحواف الداكنة، وألقيتها بعيدًا، إذ ظننت أنها تالفة، على الرغم من أنني كثيرًا ما أكلتها في السلاطات. قالت شارلوت بيرياند إنه في كل قرار مهم هناك خيار واحد فقط يمثِّل الحياة، وقال نيك إنها على حقٍّ، قال إننا يجب أن نختار حياتنا، لا أن نتخلى عنها بسبب خطأ.

في النهاية، زرت طبيبة لترتيب عملية إجهاض. ساورها القلق بشأن ضغط دمي، كما لم أكن أعرف فصيلة دمي، مما أصابها بالدهشة، فأرسلتني إلى عيادة لإجراء فحص دم. إنهم يعشقون فحوصات الدم في فرنسا، إلى درجة أنني أشعر بالدهشة أن الشعب الفرنسي بقيت لديه أي دماء. في العيادة، اضطررت إلى خلع كل ملابسي في غرفة مليئة بالنساء الأخريات، وارتداء رداء المستشفى. ثم اضطررنا جميعًا إلى الانتقال إلى غرفة مختلفة، حيث كانت هناك حواجز للسيطرة علينا وإبقائنا في طابور مثل الماشية. واحدة تلو الأخرى، مدَّت كل امرأة ذراعها من خلال فتحة في الحاجز، بينما شخص غير مرئي على الجانب الآخر يتولى سحب الدماء. عندما جاء دوري، تجاوزت الحاجز وغادرت المكان.

في تلك الليلة، تعرضت للإجهاض. لم تكن آلام التشجنات أسوأ بكثيرٍ من دورة شهرية مؤلمة. نظرت إلى الأسفل، ورأيتها هناك في الحمام: لم يكن الرضيع الذي قضيت تسعة عشر يومًا أتخيَّله سوى مجرد بضعة كتل حمراء متخثرة.

كُتِب عنوانها في شارع بليكر، من دون ذكر أي شيء عما تفعله مينا هناك، ومن دون كلمة واحدة للسؤال عني. لكنها أرفقت مع الرسالة صورة لأودري الجريئة. عندما أخرجت تلك الصورة منذ عدة أيام، رأيت وجه طفلة مترقبة. لست متأكدة ما إذا كنت سأتعرَّف عليها، إذا اقتربت مني في الشارع، حاملة مسدسها على أهبة الاستعداد، تواجه العالم بثوبٍ محكمٍ عند الخصر، له تنورة واسعة. استخدمت مينا فيلمًا باللونين الأبيض والأسود، لكنها لوَّنت ثوبي باللون الذهبي. احتفظتُ برسالتها طوال هذا الوقت، لكنني أسقطتها الآن في سلة المهملات. دومًا ما كانت مينا توقِّع اسمها وتستخدم دوائر صغيرة، بدلًا من النقاط. وعندما سألت السيد بيسيه عما يعنيه ذلك، قال إنه يدل على النرجسية والخيال الجامح والكرب الكامن.

أحيانًـا يدفعنـي صـوتٌ أو إيمـاءة مـا إلى التفكـير في مينـا، فـأرى غديرتيهـا أو معطفهـا البرتقـالي الهامـس. يمـرُّ ذلـك في ذهنـي في لحظـة، محمـول عـلى شريـط مـن الضـوء الأزرق الفاتـح. هـل أخبرهـا نيـك عنّـا؟ قـال وهـو جالـس فـوق قـبر إنـه مـلأ حقيبتـين بملابـس مينـا، وتركهـما في الشـارع مـع ماكينـة الخياطـة الخاصـة بهـا. لم يكـن الصـوت المتناقـض هـو الـذي قـال ذلـك، بـل صـوت متعـب وبـلا رحمـة. تـزوج نيـك مـن فتـاة قصـيرة وذكيـة ونبيلـة ورقيقـة، كانـت تحلـم بتوفـير ميـاه الـشرب النظيفـة للأفارقـة، أو إنقـاذ نـوع مـن القـوارض مهـدَّدة بالانقـراض، لكنهـا قنعـت في النهايـة بالعمـل في وظيفـة مكتبيـة. أسـعدها نيـك في الفـراش، وأصابهـا بالقلـق في كل مـكان آخـر. لكـن كل هـذه مجـرد أوهـام، إذ لم أسـمع منـه مـرة أخـرى عـلى الإطـلاق. مينـا هـي الشـخص الـذي أفتقـده: علَّمتنـي أن اللـون الـوردي السـاخن هـو في الواقـع لـون محايـد، كـما علَّمتنـي أن أظهـر وجهـي.

في صيـف عـام 1983، كنـت في باريـس بهـدف إجـراء بحـث. فتحـت الراديـو ذات ليلـة، فوجـدت كلاوس نومـي يغنـي "كسـوف كلي". عقـب انتهـاء الأغنيـة، أعلـن منسـق الأغـاني أن نومـي قـد مـات. دارت أحاديـث هامسـة متوتـرة في كل مـكان عـن مـرض يقتـل الرجـال المثليـين. كنّـا أنـا وديـتر قـد تبادلنـا بعـض البطاقـات البريديـة، لكـن مـرَّت شـهور منـذ آخـر تواصـل لنـا. شـعرت أن الفـترة التـي قضيتهـا في مونبلييـه كانـت منـذ زمـن بعيـد جـدًا، إلى درجـة أنهـا بـدت كـما لـو أنهـا تنتمـي إلى كتـاب قرأتـه ذات مـرة. في الشـقة المقابلـة لشـقتي، كان هنـاك طفـلٌ يـصرخ. انشـغل والـداه بحفـل غـداء عـلى شرفتهـما، وتجاهـلاه تمامًـا. تسـبَّب إحسـاس بالـبرد في وقـوف شـعر ذراعـي. كان ديـتر يحتـضر، وبـدا أن الطفـل يؤكـد ذلـك، وهـو يبـكي بمفـرده في الظـلام. في اليـوم التـالي، اتصلـت برقمـه الهاتفـي في برلـين الـذي كان بحـوزتي، لكـن المـرأة التـي أجابـت الهاتـف لم تسـمع عـن ديـتر مـن قبـل.

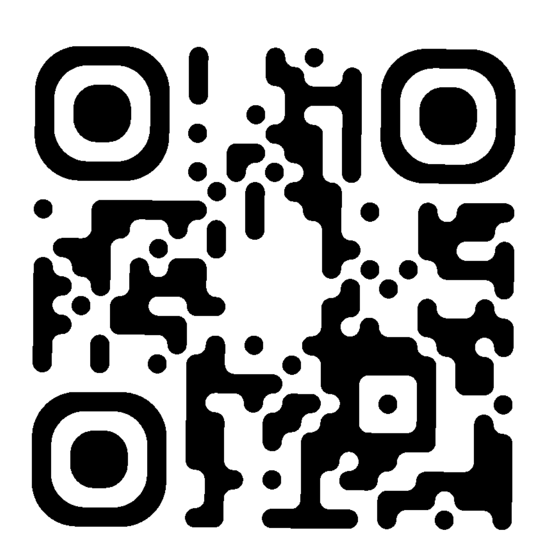
من على هذه المسافة، بدت صور لوسيو التي أحملها في ذهني تندمج مع صور نيك. يستلقي رجلٌ نحيلٌ على وسادتي، شاعرًا بالرضا، ولديه أذنان كالزهور ... أيهما يكون؟ كان لوسيو بالتأكيد هو من اشترى لي زهور التوليب. قال إن لونها الوردي المشوب بالأرجواني يذكِّره بفرجي. كلما رأيت تلك الدرجة من اللون الوردي، أرى الجو ممطرًا، ولوسيو بداخلي، ولو أدرت رأسي سأتمكَّن من رؤية إبريق مليء بزهور التوليب، وطبق زبدة.

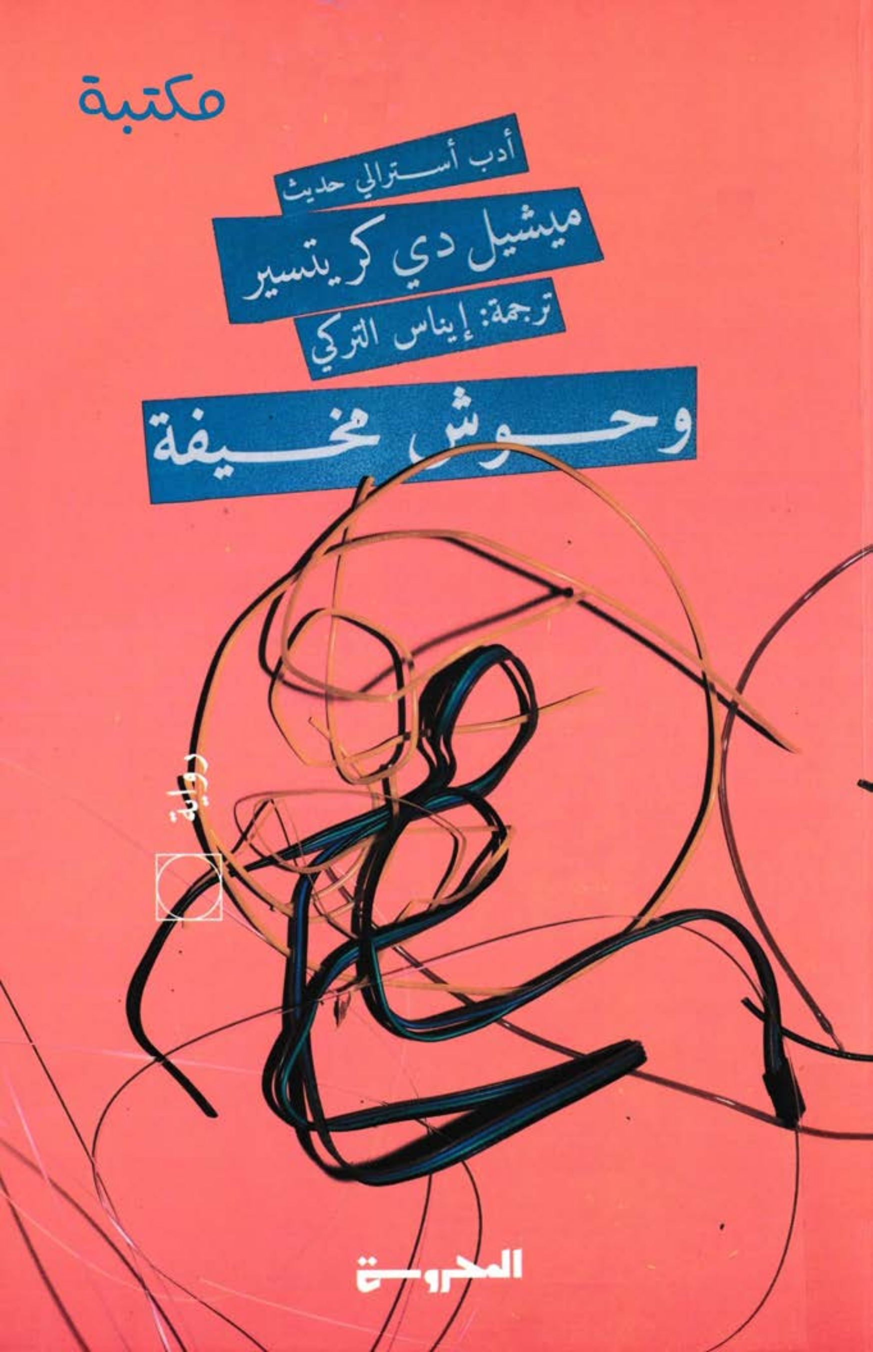
لم أذكر كيف أضفى المطر بريقًا على الشوارع المرصوفة بالأحجار في تلك الليلة في العاشر من مايو، عام 1981: الليلة التي منحت ميتران قصر الإليزيه. تحوَّلت مونبلييه إلى لوحة صينية، كلها ألوان رمادية شاحبة. سرت نسمة خفيفة لطيفة، وعلا صوت أغنية "منفعل تمامًا" من مقهى حيث كان الناس يرقصون، وامتد الراقصون إلى ساحة بها نافورة وشجرة. كانت واحدة منهم امرأة أحاطت رأسها ببتلات صفراء من قماش التافتاه، وطارت تنورتها كرذاذٍ من النافورة، وأخذ باسكال يقذفها ويجذبها ببراعة ويسرٍ. ما زالت ديب ترسل إليَّ في كل عيد ميلاد بطاقة مليئة بالأخبار. كما خططت تمامًا، حصلت على مهر، وأنجبت ثلاثة أطفال: اثنين من أنجوس، وواحدًا من أقرب صديق له. وهي تدير مزرعة عضوية في كنت الآن، ووجهت إليَّ الدعوة للإقامة هناك.

في وقتٍ متأخرٍ من ليلة الانتخابات، تجمَّع حشدٌ عند نقطة المراقبة في ممشى دو بيرو. عندما انضممنا إليهم أنا ولوسيو، نقر أحدهم على ذراعي. لا أعتقد أن فيليبي عرف اسمي على الإطلاق. في المرة الثانية التي تحدَّث فيها معي، كان صريحًا ومحايدًا، تمامًا مثلما كان في المرة الأولى. تصادف وجودي هناك فحسب، عندما انعكس أخيرًا ذلك الفيلم الذي ظل يدور خلف عينيه باستمرارٍ. طارت

شقيقته من البئر بأقدام ممدودة، ولم يولد فرانكو قط. قال فيليبي: "لقد انتظرت هذا اليوم طوال حياتي".

كان هذا ما بدا عليه العالم عندما كنت في الثانية والعشرين من عمري. هتفنا: "لن يمروا!"، واعتقدنا أن الوحوش قد هُزمت. في كل مكان حولي، أخذ الناس يشعلون أعواد الثقاب والقداحات التي رفعوها عاليًا، مئات من ألسنة اللهب الصغيرة المرتجفة. بدؤوا في غناء نشيد الأممية، وغنى لوسيو بالإيطالية، في نشازٍ تامٍّ. على مسافة بعيدة، ظهرت أضواء صغيرة كرؤوس الدبابيس وسط واجهة ضخمة: أمسك السجناء في القلعة بأعواد الثقاب أمام نوافذهم. عندما رأيت كل تلك الأضواء المرتعشة تجيب بعضها بعضًا وسط الظلام، فكرت في بستان تلبسته نفحة حياة جديدة، على شكل زهور بيضاء. كانت واحدة من تلك الروابط الغريبة التي تلائم الأحلام، لكنني لم أشك أبدًا في وجود البستان بالفعل.




مكتبة
أدب أسترالي حديث
ميشيل دي كريتسير
ترجمة: إيناس التركي
وحوش مخيفة
رواية
المحروسة


لايل

انشغلت بالتفكير مؤخرًا في يوم وفاة آلان. كبر في السن، وعثرنا ذات صباحٍ على قطراتٍ متناثرة فوق الأريكة. كان ما تعيَّن علينا القيام به مؤلمًا، لكن كما أشارت شانيل، فهذا من أجل آلان نفسه. شانيل هي التي تستشرف الأحداث، وتتولَّى وضع الخطط، وتأخذ زمام المبادرة في جميع قراراتنا، سواء كانت كبيرة أو صغيرة.

جاء آلان ليعيش معنا عندما كان سيدني في السادسة. بينما نحن عائدون إلى المنزل من الحديقة يوم السبت، رأينا فريزر يخرج من منزله الواقع على بُعد أربعة أبواب من منزلنا في سبومانت كورت، وقد رُفِعت عنده لافتة تعلن أنه للبيع، كُتِب على اللافتة: "هنا بيت يتسع لأفراح عائلتك وأحزانهم".

ركض نايكي وآلان خارجين إلى الفناء، وتجاوزا فريزر. كان سيدني في نفس الفصل الدراسي مع نايكي، وأخذ الاثنان يتسابقان، ويصدران أصواتًا كالسيارات على نحوٍ هامسٍ. تجاذبت أطراف الحديث مع فريزر، الذي حمل مضرب تنس، وظلَّ يسدد الضربات لكرة غير مرئية بينما نحن نتحدث.

خلال العشاء، ذكرت أن جيراننا سينتقلون للإقامة في بيرث. قال سيدني: "لن يذهب آلان، بل قال نايكي إنه سيذهب إلى المزرعة، حتى يتمكَّن من اللعب مع الحيوانات الأخرى".

أطلقتْ ميل ضحكة خافتة.

قال سيدني: "ماذا؟".

قالـت ميـل: "سـيدني غبـي. أنـت غبـي جـدًّا، يـا سـيدني، ولا تعـرف أي شيء".

قالت شانيل: "لا تتحدثي مع أخيك هكذا".

واصلـت ميـل قائلـة: "إنـه غبـي جـدًّا، فهـو لا يعـرف حتـى مـاذا يعنـي الذهـاب إلى المزرعة".

نظرنـا جميعًـا إلى ميـل، التـي غرسـت ملعقتهـا في البطاطس المهروسـة، ودفعتهـا إلى صلصـة الطماطـم، وبـدأت في نشرهـا بدوامـاتٍ حمـراء وصفـراء. لطالمـا كانـت مبدعـة للغايـة. أبقـت عينيهـا برموشـها الطويلـة كالسرخـس مصوَّبـة إلى الأسـفل، وقالـت: "سـوف يقتـل الطبيـب البيطـري آلان، وسـيدني هـو الشـخص الوحيـد في العـالم كلـه الـذي لا يعـرف ذلـك، لأنـه غبـي".

كان عشـاء سـيدني عبـارة عـن قطعتـين مـن الخبـز المحمَّـص بزبـدة الفـول السـوداني. رفـض تنـاول أي شيء ذلـك العـام، سـوى مـا أسـماه "الخبـز المحمـص مـع زبـدة الفـول السـوداني حتـى الحـواف". بينـما كنَّـا نراقبـه، حوَّلـت التجاعيـد جبهتـه إلى حقـلٍ صغـيرٍ محـروث، وسـقطت دمعـة عـلى المنشـفة تحـت ذقنـه. كان قـد بـدأ يزعجنـا للحصـول عـلى حيـوانٍ أليـفٍ بمجـرد أن تعلَّـم الحديـث.

كـما علقـت شـانيل عندمـا ناقشـنا الأمـر في الفـراش، فمـن المفيـد تعلُّـم تعبـير جديـد. كنَّـا نتحـدث الإنجليزيـة بطلاقـة بالفعـل عندمـا وصلنـا إلى أسـتراليا، ولكننـا لم نتمكَّـن دائمًـا مـن فهـم مـا يقـال هنـا. "الذهـاب إلى المزرعـة"، مـن كان يمكنـه تخمـين مـا يعنيـه هـذا حقًّـا؟

استطردت شانيل: "الجميع هذه الأيام لديهم حيوانات أليفة أنقذوها، وإيرين لديها كلب بودل بثلاث أرجل. هل لا يزال آلان يمتلك أرجله الأربع؟".

"كان يمتلكها عصر اليوم".

"سأرسل رسالة إلى فريزر على أي حال. يمتلك الكثير من الأستراليين كلبًا أو قطة، وكان علينا اقتناء حيوان أليف في وقتٍ سابقٍ قبل هذا".

وهكذا أصبح آلان جزءًا من عائلتنا. عندما كانت شانيل تعمل في "مؤسسة الآخر"، كانت إيرين هي مديرتها، التي تمثِّل دليلًا موثوقًا حول كيفية معالجة الأمور هنا. قالت إيرين إنه من المقبول جدًّا إطعام آلان في الصباح، وتركه بالخارج للترفيه عن نفسه في الفناء. قالت لشانيل: "هذا الأسلوب يُسمَّى أطلقه وانساه". لم ينبح آلان كثيرًا حينما كنَّا نخرج صباحًا ونتركه بمفرده، إذ أَلِف أسلوب الحياة هذا.

بعد ذلك، انضمَّت آيفي إلى أسرتنا. آيفي هي والدتي، وقد اعتادت إبقاء آلان في الداخل طوال الوقت. حاولتُ أن أشرح لها أسلوب "أطلقه وانساه". علا صوت نشرة الأخبار، وشرع المتحدث الرسمي للحكومة المختص بخطاب الكراهية يخبرنا لماذا كان من الضروري احتجاز طالبي اللجوء الذين يحاولون تخطي الدور في جزيرة بعيدة عن الشاطئ إلى الأبد. قالت آيفي: "أعتقد أن هذا أيضًا يُطلَق عليه أسلوب أطلقه وانساه".

لكنني استطردت في الحديث بعيدًا عن موضوعي بخصوص اليوم الأخير لآلان. بدأ عقلي يظهر هذا الميل إلى ممارسة الألاعيب. احترق مصباحٌ ذات مرة، وعندما جلبت مصباحًا جديدًا من الخزانة، وجدت مكتوبًا عليه "أبيض دافع"، وفكرت كم هذا غريب، قبل أن أدرك أنها "أبيض دافئ". لا بد أن هذا بسبب الإجهاد من كثرة العمل، إذ إنني بتُّ أبقى في القسم حتى وقتٍ متأخرٍ أكثر وأكثر هذه الأيام.

من الطبيعي أننا لم نقل شيئًا لميل وسيدني بشأن ما يتعيَّن علينا القيام به. حلَّ يومي المرن في العمل، وكان صباحًا شتويًا مشرقًا. كان الطفلان في المدرسة، لذا لم يتبقَّ في المنزل سوى آيفي. وجدتها جالسة في الجانب المشمس من الفناء ووجهها مرفوع نحو السماء، وبجانبها أنبوب كريم واقٍ من الشمس بمعامل حماية 73، وآلان على حجرها.

هذه ميلبورن: بلغت الحرارة ثلاث درجات في الخارج. ارتدت آيفي حذاء برقبة طويلة ماركة "أج"، وقبعة صغيرة، وسترة مبطنة بالريش، وقفازات. دائمًا ما كانت تشعر بالبرد، وتسبب ذلك في صعوبات عندما أتت للعيش معنا. بعد فاتورة الكهرباء الأولى لفصل الشتاء، اضطررتُ إلى الإشارة إلى أننا لا يمكننا الاستمرار في تشغيل التدفئة من أجلها فقط. كان عليها إطفاؤها عندما يتوجه الطفلان إلى المدرسة، ثم تشغيلها عقب عودتهما إلى المنزل. وعندما أقول "الإشارة"، أعني أنني كنت لبقًا في ذلك. تركت الفاتورة في مكان ظاهر، وتحدثت عن تكلفة التدفئة في العام السابق، وكيف ندفع الآن مبلغًا أكبر بكثيرٍ. حينها بدأت آيفي تخرج في أيام البرد، وتعبر المدينة على متن الحافلات والقطارات. ذهبت إلى أماكن لم يكن لدينا أي فكرة عنها: ألتونا، وبرونزويك! قبل خروجها، كانت تأخذ آلان في نزهة طويلة، حتى إنه أصبح ينام لساعات عقب العودة إلى المنزل، والآن بعد أن كبر وأصبح يئن عندما يُترك بمفرده، صارت تبقى معه مهما كان الطقس.

قلت لها: "حان موعد تطعيم آلان".

"هل أنت متأكد؟".

"لديَّ على هاتفي الرسالة التي تذكِّرني بالأمر".

مع تقدُّمها في السن، صارت آيفي تعاني ارتخاء في جفن إحدى عينيها، وبات نظرها غائمًا. حينها كانت عيناها لا تزالان واسعتين

ورماديتين، مما يعطي الانطباع بأنها تقضي وقتها وهي تتأمَّل الأفق. اعتادت شانيل القول إن عيني آيفي تجعلها تبدو كما لو أنها غبية، لكن آيفي يمكنها أن تكون في غاية الذكاء. للحظة، خشيت أن تصر على الذهاب إلى الطبيب البيطري معي، لكن آيفي لا تحب الأطباء البيطريين، فهم يشبهون الأطباء بدرجة أكثر من اللازم. بدا خوفها من مهنة الطب أمرًا غير منطقي على الإطلاق. تقول: "ماذا يعرف الأطباء؟ إنهم لا يعرفون إلا عن الدم، ومُقل الأعين، وما هو داخل رئتيك. ليس لدينا ما يقوله بعضنا لبعض". منذ فترة طويلة في وطننا الأم، عانت آيفي من حصوة في الكلى، وعندما أجروا الجراحة أخيراً، وجدوا الحصوة كبيرة جدًّا إلى درجة أنها عُرضت في متحف طبي. قال الجراح إن الألم كان لا يمكن تصوره، وقد تحمَّلته آيفي لمدة خمسة أشهر بدلًا من استشارة الطبيب.

قالت آيفي: "فتى شجاع"، ثم قبلت الفراء الأبيض الشبيه بالزنبرك فوق رأس آلان، وأنزلته عن حجرها.

عندما عدت إلى المنزل، وجدت آيفي في المطبخ. رأتني أحمل مقود آلان وقد تدلَّى من طوقه الخالي، فترنَّحت جانبًا كما لو أنها تلقَّت ضربة. أخبرتها بالحكاية المريحة التي أعددناها أنا وشانيل. قلت إن قلب آلان توقف في اللحظة التي رفعه فيها الطبيب البيطري على الطاولة. "كان الأمر سريعًا وهادئًا للغاية".

قالت آيفي: "كان يجب أن أعرف؛ أظهرت بطاقات اللعب هذا الصباح بطاقة الأربعة البستوني، الدالة على الخداع".

قلت لها: "كان هذا من باب الرحمة، وأنت نفسكِ تعرفين كم صارت حركة آلان ثقيلة. هكذا لم يطُل الأمر، ولم يعانِ من الألم. كل ما حدث هو لصالحه".

قالت آيفي: "تقصد لصالح أريكتك".

تحدثت كما لو أني لا أكنُّ أي مشاعر لآلان، لكنني لم أنسَ أبدًا تلك المرة التي تحدث فيها سيدني عنه في المدرسة. قالت معلمته: "أوه، لديكم كلب؟ لسببٍ ما، اعتقدت أن عائلتك مسلمة". شعرنا بالخوف عندما سمعنا ذلك، فماذا لو ارتكب الآخرون نفس الخطأ؟ اخترنا أنا وشانيل صورًا للطفلين وهما يحتضنان آلان لشاشات هواتفنا المحمولة، واشترينا لافتة لبوابتنا كُتب عليها "احذروا الكلب". عقب حظر الإسلام وما تبع ذلك من اعتقالات، من يدري ما هي الصعوبات التي كان من الممكن أن نتعرض لها، لولا آلان؟ بالطبع حزنت عندما آن أوان رحيله.

تذكرتُ للتوِّ أنه عقب صدور الحظر، أخبرت آيفي الطفلين أن لا أحد يمكنه حظر الهلال، وقالت إن المسلمين سيتمكّنون من النظر إليه ليستمدوا الشجاعة من رمز إيمانهم. اضطررنا إلى تحذير الطفلين من تكرار هذا الهراء لأي شخص. هذا هو نوع الأشياء التي تعيَّن علينا أن نتحمَّلها من آيفي على مرِّ السنين.

كان ما أخبرتها به عن آلان صحيحًا تمامًا، إذ كان الأمر هادئًا جدًّا عند النهاية، وتفهَّم الجميع في العيادة شعوري، وشغلت الممرضة موسيقى ناعمة مهدئة للأعصاب. أخذت الطبيبة البيطرية آلان بعيدًا لتركيب الكانيولا من دون أن تزعجني. وبعد أن انتهى الأمر، قالت إنه يمكنني الجلوس مع آلان بقدر ما أحب، وقدَّمت لي الممرضة كوبًا من الشاي.

الشيء الذي ما زال عالقًا في ذهني، حتى بعد كل هذا الوقت، هو عودة آلان إلى الغرفة والكانيولا في ساقه القصيرة، بعد تثبيتها في مكانها بشريطٍ متعدد الألوان، أحمر، وأصفر، وأخضر، بدا زاهيًا بجانب فرائه. لا بد أنه اعتقد أنه سيقضي اليوم في العيادة عندما اقتادوه بعيدًا، كما حدث مرة أو مرتين من قبل عندما لم يكن على

مـا يـرام. عندمـا وجـدني في انتظـاره، خفـض أذنيـه عـلى سـبيل التحيـة، ورفـع رأسـه وأسرع في خطـوه، وبـدا شـجاعًا للغايـة، وهـو يهـرول نحـو المـوت بألوانـه المبهجـة المعلَّقـة عـلى سـاقه.

***

كان صبـاح يـوم الاثنـين، وأنـا في مقهـى "ذا كـوفي سـبوت"، الكائـن في مركـز التسـوق الـذي نرتـاده، عـلى بُعـد مسـافة قصـيرة سـيرًا عـلى الأقـدام عـلى الجانـب البعيـد مـن طريـق بلـو نـون. اعتـدتُ المجـيء هنـا في أيـام العمـل المرنـة منـذ سـنوات. بـدأ الأمـر عندمـا صمَّمـت شـانيل أن عـليَّ الانضـمام إلى صالـة الألعـاب الرياضيـة. جادلتُهـا أن الكثـير مـن الرجـال الأسـتراليين لديهـم كـروش، لكـن شـانيل قالـت إن ذلـك أكـثر نـدرة في مسـتويات الإدارة العليـا. إنهـا أكـثر طموحًـا مني، وهـذه هـي النقطـة الوحيـدة التـي لدينـا فيهـا وجهـات نظـر مختلفـة. قالـت لي: "روس أحمـق، وأنـت بنفسـك تقـول ذلـك، كيـف إذن يكـون مديـرك، وليـس العكـس؟". إنهـا تعـرف الإجابـة كـما أعرفهـا أنـا: صهـر روس هـو وزيـر في الحكومـة، لكـن هـذا لا يهمنـي، لأننـي أعتقـد أنـه مـن الأفضل بالنسـبة إلى الأشـخاص الذيـن مثلنـا ألَّا يطمحـوا للوصـول إلى مراتـب عاليـة. فهـذا يتسـبَّب في إثـارة الأحقـاد، وجـذب الانتبـاه غـير الـضروري. كانـت نصيحتـي الدائمـة للولديـن هـي: ادرسـا بجـدٍّ كافٍ للوصـول إلى المراكـز العـشرة الأولى، لكـن ليـس بدرجـة زائـدة عـن الحـد بحيـث ينتهـي بكـما المطـاف في المراكـز الثلاثـة الأولى. هـذه هـي وصفتـي للسـعادة. في العمـل، أسـعى جاهـدًا لأكـون غـير مميـزٍ، ولا غنـى عنـي. إن كفـاءتي المتواضعـة التـي لا تشـكِّل تهديـدًا لأحـدٍ تحظـى بالتقديـر مـن قِبَـل الإدارة، ولا أطمـح فيـما يزيـد عـلى درجـة إداريـة متوسـطة، حيـث صنعـت لنفـسي مكانًـا. في أثنـاء مراجعـة الأداء في العمـل، قالـت لي مديـرتي السـابقة ذات مـرة: "أتـدري يـا لايـل، أنـت تفتقـر إلى الرغبـة في التنافـس". كانـت تحـاول تحفيـزي، لكننـي

اعتبرتها مجاملة. ففي أثناء عمليات إعادة الهيكلة، يتم الاستغناء عن أولئك الذين يتسمون بالرغبة في التنافس. تتفهَّم شانيل حذري هذا، لكنه يثير سخطها، فهي من ذلك النوع من الأشخاص الذين يرفعهم ذكاؤهم وحماسهم إلى مراتب عليا. كما يدخل في الأمر أيضًا عامل الشركة التي تعمل بها، وهي شركة متعددة الجنسيات، تكافئ موظفيها على الإبداع وانعدام المبادئ، والاهتمام بالصحة الجسدية والرشاقة، وطعن الزملاء في ظهورهم.

لإرضاء شانيل، اشتركتُ في صالة الألعاب الرياضية المحلية. لكنني دائمًا ما كنت أتجاوزها في طريقي وأتوجه مباشرة إلى الجلوس في "ذا كوفي سبوت" بدلًا من ذلك. تقع طاولتي المفضَّلة في الركن الأيمن، بالقرب من حوض العصاريات البلاستيكية، وإذا وجدتها مشغولة، آخذ الطاولة المقابلة لها جهة اليسار. لكن في صباح يوم الاثنين، من المرجح أن يكون العملاء الآخرون القليلون أمهات شابات ومعهن أطفال في سن ما قبل المدرسة، وهن يفضِّلن الطاولات الأكبر حجمًا في المنتصف، حيث يمكنهن الالتقاء معًا، وهناك مساحة لعربات الأطفال والمقاعد المرتفعة. وإذا تصادف أن لم يكن أيٌّ من الطاولتين المفضَّلتين لي متاحًا، كنت أعتبر ذلك إشارة إلى وجود متاعب قادمة في طريقي.

إبَّان طفولتي، أحببتُ إحصاء عدد طيور المينا التي تنقر العشب أمام منزلنا: "واحد للترح، اثنان للفرح"... يغني الأستراليون هذه الأنشودة لطيور العقعق، لذا أفعل الشيء نفسه الآن. هذا الصباح، كانت هناك سبعة طيور عقعق في طريق بلو نون، "سبعة لسرٍّ لا يُباح به البتة". كان هذا فألًا حسنًا، علاوة على أن طاولتي في "ذا كوفي سبوت" كانت شاغرة. رفعت دلما حاجبيها عندما رأتني، وهززتُ لها أصابعي في المقابل. جلبت لي اللاتيه والكرواسون باللوز بمجرد جلوسي تقريبًا. سألتني: "كيف حالك اليوم؟ بخيرٍ؟"، ولم يكن الرد مطلوبًا، وهذا هو ما أقدِّره في دلما. يشعُّ منها الدفء، ويستمتع المرء بالقرب

منها مـن دون الاضطـرار إلى تقديـم أي كشـف حسـاب. قـد تكـون دلمـا أصغـر منـي بعـشر سـنوات، أو أكـبر بعـشر سـنوات. تتحـرك في المـكان بكفـاءة، لكـن مـن دون تعجُـلٍ. قـد يحـدث أحيانًـا أن يقلـب طفـل كوبًـا مـن العصير، أو يـضرب طفـلًا آخـر في عينـه، فتـأتي دلمـا عـلى الفـور وهـي غايـة في الهـدوء، تمسـح مـا انسـكب، وتهـدئ الموقـف، وسرعـان مـا ينتهـي الاضطـراب مـن قبـل أن يبـدأ حتـى.

كان هنـاك رجـلٌ عجـوزٌ اعتـاد المجـيء هنـا كثـيراً، يحـب الجلـوس بالقـرب مـن ماكينـات القهـوة، وعصـاه معلقـة عـلى ظهـر كرسـيه. اعتـاد الجلـوس هنـاك فحسـب، وفنجانـه أمامـه، محدقًـا إلى الأمـام مبـاشرة. لا تسـتعجل دلمـا أحـدًا بالرحيـل، لذلـك كان مـن الممكـن أن يجلـس هنـاك طـوال اليـوم. أشـعرني منـذ البدايـة بعـدم الارتيـاح، وكلـما فكـرت فيـه، تخيَّلتـه مرتديًـا روبًـا منزليًـا مـن قـماش بنـي منقـوش بالمربعـات، بـه بقـع مائلـة إلى الاصفـرار، وبـدا الأمـر بمنزلـة صدمـة صغـيرة دائمًـا، حينـما كنـت أراه مهندمًـا ويرتـدي سروالًا وسـترة صوفيـة.

فَقَـدَ السـيطرة عـلى نفسـه ذات يـومٍ، وبـدأ الأمـر بأنـين منخفـض تحـوَّل إلى نـوعٍ مـن العـواء، ثـم صرخ قائـلًا: "هـذا مجـرد مسـمًّى آخـر للقتـل!". ثـم أمسـك بعصـاه وبـدأ في ضرب مهاجمـين غـير مرئيـين. عَلِقَـت العصـا عـلى كـرسي، وقلبتـه. حـضرت دلمـا في الحـال، ولمسـت مرفقـه، فألقـى بعصـاه، وبإشـارة منهـا، أحـضر النـادل فنجانًـا جديـدًا مـن القهـوة. همهـم العجـوز بسـيلٍ مـن الكلـمات، فرفعـت دلمـا الكـرسي الـذي سـقط وجلسـت عليـه. وعندمـا رحلـتُ، كانـت لا تـزال تمسـك بيـده عـبر الطاولـة، وسـمعتها تقـول لـه: "لقـد حـان الوقـت كي تتألـق". هـذا هـو نـوع الأشـياء التـي تتفـوَّه بهـا.

قبـل أن يصبـح كل شيء إلكترونيًـا، كانـت الإدارة تقـدِّم لي تقويمًـا مكتبيًّا بـه عبـارات تحفيزيـة. كان أول مـا أفعلـه عنـد وصـولي إلى العمـل هـو

قلب الصفحة وقراءة رسالتي لهذا اليوم، كما يقرأ موظفو المكاتب في جميع أرجاء البلاد تلك الرسائل، ومع ذلك بدا أن كل واحدة تخاطب القلب الفردي. تحيا في دلما روح تلك الرسائل. تقول لامرأة شابة: "لقد قمت بعملٍ رائعٍ"، لأنها على وشك الإصابة باليأس بسبب طفلها الذي ألقى أكياس السكر على الأرض. نعود جميعًا من عند دلما شاعرين بالاطمئنان والانتعاش، ومسلحين للنضال بكلماتها.

وقعت حادثة الصراخ تلك قبل عدة أشهر، ولم أرَ الرجل العجوز منذ ذلك الحين. أتوق إلى سؤال دلما عمّا قاله لها، أو إذا كانت تعرف ما حدث له، لكنني متأكد أنها لن تفصح عن شيء. إذا حصلتُ على أمنية، فسوف أطلب أن تجلس دلما قبالتي ممسكة بيدي، بينما أتخفّف من كل ما يثقل ذهني، وفي النهاية، ستقول: "كل شيء يحدث، له سبب"، أو "لقد قمت بعملٍ رائعٍ": أي شيء أحتاج إلى سماعه، شيء عادي ولطيف.

***

أذكر عندما انضمّ ماركوس إلى القسم، حيث عُيِّن لرئاسة فريق التكنولوجيا. كان ماركوس دنماركيًّا، وصل لتوِّه إلى أستراليا، من كان ليخمن ذلك؟ بدا ماركوس طويل القامة للغاية، ولديه شعرٌ أشقر غزير، ويتحدث الإنجليزية بطلاقة. طوال الطريق على متن القطار وأنا عائد إلى المنزل، شعرت بالحقد على الدنماركيين، فهم يمتلكون ما يتوق إليه كل مهاجر: الخفاء. لن يبصق أحدٌ على ماركوس في الشارع، أو يصرخ في وجهه من السيارة. وإذا انتشر وباء قادمٌ من الدول الاسكندنافية، فلن يرمي أحد حجرًا عبر نافذته، أو يضربه في القطار. ولن يضطر إلى إبقاء نظرته على الأرض في السوبر ماركت، لأن التواصل البصري يمكن اعتباره نوعًا من الغطرسة. يمكن أن يصبح

الدنماركي قائدًا لفرق كرة القدم، ويقرأ نشرة الأخبار المسائية، ويدير نُزلًا في إحدى الطرق النائية، ولن يشك أحد في أي شيء.

لن يصبح الأشخاص الذين هم على شاكلتنا غير مرئيين أبدًا، لذلك يتعيَّن علينا بذل جهدٍ هائلٍ للتأقلم. استوعبت شانيل هذا قبلي بوقتٍ طويلٍ، وكما قلت، فأنا أحذو حذوها فحسب. فلتأخذ أسماءنا على سبيل المثال: لم نكن دائمًا شانيل ولايل. اختارت شانيل أسماء جديدة لنا بمجرد أن حظينا بالموافقة على طلب الهجرة، وهي ليست بعيدة عن أسمائنا الأصلية، التي بالكاد يمكننا تذكُّرها الآن. أوضحت شانيل أن الطريق للمضي قدمًا هو نسيان كل ما نتركه خلفنا. قالت: "لا تنظر إلى الوراء، هذا ليس أسلوب الحياة المتبع في أستراليا، إنها دولة حديثة تتطلَّع إلى المستقبل". لم أقدِّر قوة نصيحتها حتى رحلتي الثانية للعودة إلى الوطن. مكتبة سُر مَن قرأ

انتقلت أخت شانيل إلى العيش في الولايات المتحدة، واستقر والدها أيضًا هناك مؤخرًا. وكانت آيفي هي السبب الوحيد لعودتي أنا وشانيل إلى وطننا الأم في تلك المرة الأولى. كنَّا نفضِّل استكشاف أستراليا في إجازتنا، لكن آيفي أرادت رؤيتنا، ورفض زوج والدتي السفر. كان مريضًا بالفعل، ورفضت آيفي تركه. (لطالما كان يُطلق على آيفي هذا الاسم، بالمناسبة، إذ إن لديها أسلافًا مختلطون للغاية).

عقب وفاة زوج والدتي، عدتُ للمرة الثانية. كانت شانيل حاملًا بميل حينها، ولم يكن سفرها آمنًا. في اليوم التالي للجنازة، سمعت آيفي تنادي من الحديقة، "تعال إلى هنا، أيها الأمير الصغير!". لمسني بشدة استخدامها لاسم التدليل ذاك الذي يعود لأيام طفولتي، فابتسمتُ، ومشيت إلى الخارج، ووجدت آيفي تداعب قطة.

لا يمكن الجمع بين الماضي والحاضر، رأيت ذلك حينها. كانت شخصيتي القديمة الكاملة قد غابت إلى الأبد. تؤدي الهجرة إلى كسر

الناس، ونحاول إعادة تكوين أنفسنا في بلداننا الجديدة، لكن ثمة أجزاءً منّا اختفت. المهاجرون هم أشخاص يعانون فقْدَ بعض الأجزاء. وأولئك منّا الذين يفترضون أنه لا يزال من الممكن العثور على تلك القطع، ملقاة في الأماكن التي غادرناها، يصبحون أشخاصًا يحملون الحقائب، ويواصلون العودة بحثًا عن طرقٍ لسد الفجوات.

أما أنا، فلا أرتكب نفس خطئهم. أسدت إليَّ آيفي معروفًا، من هذه الناحية. عندما رأيتها تدلِّل تلك القطة، أدركت أن الماضي لم يعُد دليلًا موثوقًا به للمستقبل. حينها أصبحت إنسانًا عصريًّا. بدا الأمر مخيفًا، ثم فكرت، أيهما يأتي أولًا، المستقبل أم الماضي؟ من المؤكد أن الماضي لا يكشف عن نفسه بالكامل إلا عندما ننظر إليه من اللحظة الحالية. لهذا فأنا جالس في "ذا كوفي سبوت" اليوم، أستعرض كل شيء، على أمل أن تصبح رحلتي حتى هذه اللحظة واضحة.

***

كان والدي صحفيًّا، كما كان يكتب أيضًا مسرحيات عن العمَّال المضطهدين. التقت به آيفي عندما تقدَّمت لاختبار أداء دور في إحدى هذه المسرحيات، إذ إنها نشأت على مشاركة تلك القناعات السياسية. وقد تُوفي والدي عندما انزلقت سيارة لتصطدم بدراجته النارية في صباح يومٍ ممطرٍ، وكنت رضيعًا، ولا أتذكره. بعد ذلك بعامين، تزوجت آيفي من رجلٍ أنتج بعض مسرحيات والدي، وينتمي إلى نفس المجموعة الليبرالية ذات التفكير التقدمي مثل والديَّ. كان زوج والدتي يفوق آيفي في السن بكثيرٍ، وهو أرمل ثري لديه ابنتان مراهقتان. كنَّا أسرة هادئة، وعاملني زوج والدتي مثل ابنه، وأظهر لي كل احترام. لاعبتني أختاي غير الشقيقتين ودلَّلتاني، وصبَّتا في أذن آيفي كل الحكايات الدرامية من المدرسة، وحكايات الحب.

بعـد وفـاة زوج والـدتي، قُسِّـم الجـزء الأكـبر مـن ممتلكاتـه بـين الفتاتـين، لكنـه تـرك في وصيتـه نصيبًـا وافـرًا لآيفـي أيضًـا. حصلـت عـلى مبلـغٍ كبيرٍ، ومحفظـة اسـتثمارية صغيرة جيـدة للغايـة، عـلاوة عـلى راتـب شـهري. كـما تـرك لهـا زوج والـدتي أيضًـا منـزلًا عـلى قطعـة أرض كبـيرة في جـزءٍ مختلـفٍ مـن المدينـة، وعنـد وفاتهـا، كان مـن المقـرر أن تـؤول تلـك الممتلـكات إليَّ.

أبلغنـا زوج والـدتي بهـذه الترتيبـات قبـل سـنوات. كنـت صبيًّـا حينهـا، وبـدت لي ترتيباتـه معقولـة وعادلـة، لكننـي تسـاءلت لاحقًـا مـا إذا كنـت أسـتحق المزيـد. عندمـا ذكـرت ذلـك لآيفـي، أجابـت بـأن زوجهـا دائمًـا مـا أنفـق عـليَّ بكـرمٍ، وكان ذلـك صحيحًـا. لقـد أحزنـه قرارنـا بالهجـرة، لكنـه دفـع أجـر السـفر، وأتعـاب وكيـل الهجـرة، ووقـف في صفنـا ضـد آيفـي، التـي كانـت حانقـة بشـدة. أقـول "قرارنـا"، لكنهـا كانـت فكـرة شـانيل بالطبـع.

وعندمـا صـارت آيفـي أرملـة للمـرة الثانيـة، كانـت تـرى أختـيَّ غـير الشـقيقتين كثـيراً في البدايـة. ثـم انتقلـت الكـبرى إلى مدينـة في الشـمال حيـث ذهـب زوجهـا للعمـل، ولم يـترك هـذا لآيفـي سـوى الفتـاة الصغـرى، التـي تزوجـت مـن رجـلٍ لم نحبـه جميعًـا، وأخـذ يشـتبك مـع آيفـي في كل مناسـبة. وبدافـع مـن الـولاء والكبريـاء، أخـذت أختـي غـير الشـقيقة صـفَّ زوجهـا، وبـردت علاقتهـا مـع آيفـي. في هـذا الوقـت تقريبًـا أجـرت آيفـي العمليـة الجراحيـة لإزالـة حصـوة الـكلى، وبعـد ذلـك، ومـن دون سـابق إنـذار، بـدت عجـوزًا. ذات يـومٍ، بـدا ذلـك واضحًـا في صوتهـا وهـي تنـادي. وخـلال فـترة نقاهتهـا، سـاورها القلـق بشـأن المسـتقبل، مـن سـيتولى رعايتهـا؟ حثَّتهـا أختـي الكـبرى غـير الشـقيقة عـلى الانضـمام إليهـا، لكـن آيفـي رفضـت العيـش في الشـمال لأن التلـوث هنـاك كان بشـعًا. وأظهـر الزمـن أن آيفـي كانـت محقَّـة، فقـد توفيـت أختـي غـير الشـقيقة في سـن الخمسـين بمـرض في الجهـاز التنفـسي، وتبعهـا زوجهـا بعـد فـترة وجيـزة.

كانا قد هربا من الشمال قبل بضع سنوات، لكن بعد وقوع الضرر بالفعل.

على أي حالٍ، كانت النتيجة أن آيفي جاءت إلى أستراليا للعيش معنا، وبدا هذا الترتيب مرضيًا للغاية في الواقع، إذا كانت تلك الأوقات عصيبة، حينما كنّا أنا وآيفي نتعامل مع طفلين صغيرين، في أثناء محاولة ترسيخ مستقبلنا المهني. وبالإضافة إلى المساعدة في المهام المنزلية، اعتادت آيفي توصيل الطفلين إلى المدرسة كل صباحٍ، وجلبهما إلى المنزل عصرًا. وبعد انتقالهما إلى مدرسة أبعد، كانت شانيل توصِّلهما في الصباح، واضطرًا إلى ركوب حافلة للعودة إلى المنزل، لكننا ظللنا نعتمد على آيفي، إذ كانت تلتقي بالطفلين عند محطة الحافلات، وتتولى رعايتهما عند نهاية كل يوم.

صار الولدان في الحادية عشرة والتاسعة من عمرهما، عندما قررنا أنا وشانيل إرسالهما إلى مدرسة خاصة. أوضحت شانيل لآيفي: "نريد أن نوفِّر لهما أفضل تعليم ممكن، لهذا السبب أتينا إلى هذا البلد: كي نتمكن من منح أطفالنا الأفضل في كل شيء".

قالت آيفي: "ظننت أن هذا كان كي توفِّرا لأنفسكما الأفضل في كل شيء".

تتمتع شانيل بمخزون هائل من الصبر والمثابرة، فأجابت: "أنت على حقٍّ، هذا هو الأسلوب المتبع في إنجاز الأمور هنا، فلا يقنع الأستراليون أبدًا بما في حوزتهم، ودومًا ما يريدون -نريد- المزيد. نحن نطمح إلى ما هو أعلى، ونكافح، ويُطلق على هذا مسمى الطموح".

"كان يُطلَق عليه مسمى الجشع".

تتمسَّك آيفي بفكرة أن المشقة تمنح المرء ميزة أخلاقية، وهو موقف شائن بالنظر إلى أسلوب حياتها بعد زواجها من زوجها الثاني: منزل مليء بالأثاث الثمين الذي بدا كأنه ينظف نفسه بنفسه،

والوجبات التي تصل ثلاث مرات في اليوم بعد أن تحضرها أيدٍ خفية. وعندما انتقلت آيفي للإقامة هنا، سلمتها مفتاحًا للباب الأمامي، حدقتْ إليه بتعجبٍ. بدا الأمر غريبًا بالنسبة إليها، لأنه حتى ذلك الحين، كان هناك من يفتح لها الباب دائمًا. لكن آيفي أكثر ترفعًا من أن تكترث بالاتساق في المبادئ. في وطننا الأم، دومًا ما كانت تصوِّت لصالح الشيوعيين، وذلك على سبيل إظهار التقدير للموتى فحسب، ولا شيء أكثر من هذا. وليس لديها أدنى فكرة عن الحواجز الاقتصادية أو الاجتماعية، ويمكنها تبادل الحديث مع أي شخص. أما فكرتها عن الشيوعية، فهي غرفة كبيرة مبهجة مطلية باللون الأزرق السماوي أو الأخضر الباهت، حيث يتشارك الناس الطعام، ويتبادلون مناقشة الأفكار المثيرة والغزل. عندما كنت مراهقًا، سألتُ آيفي ذات مرة: "هل تعتقدين حقًّا أن الجميع متساوون؟"، فنظرت إليَّ متحيرة، وردَّدت لي نظرتها نفس ما يدور في تفكيري: "هل أنت أحمق؟".

على مرِّ السنوات، أعادت آيفي تشكيل صورة شبابها لتظهره كما لو كان عصرًا ذهبيًّا من التقشف والمثالية، "حينما كنَّا نقنع بالأشياء البسيطة، ولا نهتم إلا بالفن". وتعني بكلمة "الفن" مسرحيات والدي، التي عُرضت في مسرحٍ صغيرٍ خانق، مليء ببق الفراش، أما "الأشياء البسيطة" فيمثِّلها الفستان الأزرق الذي ارتدته عندما لعبت دور البطولة في العرض الأول. لعبت آيفي دور الوريثة التي طردتها عائلتها إلى الشارع، لقيامها بتشكيل نقابة للعمال في مصانع والدها. لاحقًا، وجدت الوريثة الحب الحقيقي مع ميكانيكي، وألقت خطبة في الجماهير حول المراحيض في الأحياء الفقيرة. وتحتفظ آيفي بجوار فراشها بصورة لها مرتدية الفستان الأزرق، ولن يصدق أي شخص يطالعها لمدة نصف دقيقة أنها تعرف أي شيء عن المصانع أو المراحيض أو الأحياء الفقيرة.

قلت لها: "في المدرسة المحلية، لا يتعلق الأمر فقط بنسبة الطلاب إلى المدرسين، ووجود عشرة دورات مياه لخمسمائة طفل. هل تعرفين ذلك الصبي الجديد في فصل ميل الذي يطلقون عليه اسم "حطة"؟ اسمه الحقيقي هو محطة الحافلة رقم 83. حملت به أمه هناك، على ما يبدو. لقد جاء من منطقة الإسكان الاجتماعي بالقرب من الطريق السريع، ولن تجدي أطفالًا من هذا النوع في المدرسة التي نفكر فيها".

قرأت شانيل من النشرة الدعائية بصوتٍ مرتفعٍ: "تقدم "فورتوناتاس كوليدج" ساحات عشبية خضراء، ومباني ذات أعمدة، تشجع على أفضل ممارسة للهدوء والفردية. وتستفيد الهيئة الطلابية المختلطة لدينا من مدرستنا التنفيذية (ميدان الرماية)، والمعمل الإبداعي (فن تخطيط الاستثمار)، ومركز التكنولوجيا (محطة طقس على السطح)، وحمام سباحة أوليمبي، وخمسة ملاعب كرة قدم مطابقة لمواصفات منظمة الفيفا، وملعبين لكرة القدم الأسترالية. في هذه البيئة الملهمة، يتحقق أفضل إنجاز في أحسن صورة ممكنة".

شغلتُ الفيديو الدعائي لمدرسة فورتوناتاس على جهاز الكمبيوتر المحمول الخاص بي. عندما تتحدث عن أيامها على خشبة المسرح، تقول آيفي بصراحة: "لم أكن بارعة بدرجة كبيرة"، فيعتقد الناس أنها متواضعة، لكنها تذكر الحقيقة فحسب. طُلب من والدي ذات مرة كتابة سيناريو فيلم. بدأ التصوير، لكن بعد ذلك انهار الأمر برمته، وهي واحدة من تلك الإخفاقات الشائعة في وطننا الأم. تمكَّن زوج والدتي من إنقاذ اللقطات التي تم تصويرها، وبعد سنوات شاهدناها معًا عصر أحد الأيام. بدت آيفي رائعة وفعلت كل شيء: استقلت قطارًا، ومسحت أنفها، وصفعت حبيبًا بمتعة كبيرة. كانت تمثِّل، وبدا من الواضح أنها تستمتع بالأمر.

لـذا كان كل مـا احتجـت إلى أن أفعلـه هـو أن أعـرض عـلى آيفـي ذلـك الجـزء مـن الفيديـو الـذي يظهـر صالـة العـرض متعـددة الأغـراض في فورتوناتـاس. تراجـع السـقف إلى الـوراء، وغمغـم صـوت المعلـق معلنًـا وجـود التكنولوجيـا المتطـورة، واختفـت حفـرة الأوركسـترا تحـت الأرضيـة المتحركـة. كاد أنـف آيفـي يلامـس شاشـة جهـاز الكمبيوتـر المحمـول. خمنـتُ أنهـا بدَّلـت ملابسـها وارتـدت فسـتانها الأزرق، ووضعـت نفسـها عـلى المسـرح. كان شـعرها أسـود حريريًّـا، وتتحـرك بخفَّـة طائـر في الهـواء، وقـد أخبرهـا الكاتـب المسرحـي أنهـا تشـبه ليـز تايلـور. شـبكت يديهـا، وألقـت سـطورها كـما لـو أنهـا تخطـب في مظاهـرة: "فكـروا فقـط في طفـح تلـك المراحيـض! ألا تـرون أن هـذا القـذارة تشـبه حالـة قلوبكـم؟". وطـوال الوقـت، ظـلَّ كل رجـل في الجمهـور يفكـر في شيء واحـد فقـط: ثـوب أزرق ملقـى عنـد قـدم فراشـه.

مـن الأشـياء الرائعـة في أسـتراليا مقـدار المـال العـام الـذي تتلقَّـاه مدرسـة مثـل فورتوناتـاس. يحصـل الطالـب في المدرسـة الخاصـة عـلى تمويـلٍ حكومـي يبلـغ عـشرة أضعـاف مـا يحصـل عليـه الطالب في المدرسـة العامـةِ! لا يمكـن أن يحـدث ذلـك في وطننـا الأم. لكـن أسـتراليا مـكان يتسـم بالمسـاواة، فـلا يعـاني الأثريـاء التمييـز ضدهـم، ولا يُتركـون لتدبُّـر أمورهـم بأنفسـهم هنـا.

لكننـا لسـنا أثريـاء، للأسـف، بـل نحـن أسرة عاملـة عاديـة، ولا تـزال رسـوم المـدارس الخاصـة فادحـة التكلفـة. أعـدت تشـغيل الفيديـو، وعندما انتهـى، قلـت: "بالطبـع فـإن المدرسـة التـي لديهـا مثـل هـذه المرافـق باهظـة للغايـة، وسـنضطر إلى البحـث عـن مدرسـة أرخـص. ففـي النهايـة، تعتـبر دروس الدرامـا تشـتيتًا للانتبـاه عـن الدراسـة الجـادة". عـثرت عـلى ذلـك الجـزء مـن الفيديـو الـذي لـه صلـة بالموضـوع، وأعـدت تشـغيله مـرة أخـرى.

"كم يتكلف الأمر؟".

"أوه، لا يا آيفي، هذا غير مطروح للنقاش!".

"وما فائدة تلك الأساور والأشياء وهي موضوعة داخل درج؟".

كانت الأساور والأشياء هدايا من زوج والدتي، وأصرَّت آيفي على بيعها جميعًا. لم تحتفظ إلا بخاتم به نصف دائرة من الزمرد، كان من المقرر أن تمنحه لميل يوم زفافها. الشيء الغريب في مثل هذه المواقف هو أنني ما إن أكسب آيفي في صفي، حتى أشعر بالضيق، فقد جعلتني في موضع لوم. تفعل ذلك بشكلٍ غامضٍ، من دون نظرة أو كلمة. أطلقُ عليها في هذه المواقف آيفي السامة. ها هي تدفع نحوي عبر الطاولة صناديق جلدية وأكياسًا حريرية صغيرة، وأقسم إنها كانت تبتسم. لا تتمتع بأي عقل على الإطلاق! فابتسامتها هذه سلاح، تتوقع مني الأفضل.

خلال الوباء، أدرك مديرو مدينة ملاهي يابانية أن الصراخ على القطار الأفعواني يزيد خطر نشر العدوى، فطلبوا ممن يركب اللعبة: "رجاء، اكتفِ بالصراخ داخل قلبك". هذا ما يحدث عندما أواجه آيفي: تبتسم، وأبدأ بالصراخ داخل قلبي.

غطَّت مجوهراتها رسوم سنة واحدة، لطفلٍ واحدٍ، إلا أن آيفي تعتقد أنها تكفَّلت بتكاليف تعليم الولدين طوال فترة الدراسة، وتركناها تصدق ذلك، إذ إننا نتسامح معها دائمًا إذا استطعنا ذلك.

***

لم يكن اليساريون الذين قاموا بتربية آيفي يمتلكون الموارد المالية اللازمة لإرسالها إلى مدرسة مرموقة، ولا الشجاعة اللازمة كي يوكلوا تعليمها إلى الدولة. لذا انتهى بها الأمر في مدرسة الراهبات منخفضة

التكاليـف، التـي تديرهـا الراهبـات الأنجليـكان، وكان الـشيء الوحيـد المفيـد الـذي فعلـوه هـو تعليـم آيفـي الخياطـة. وبعـد أن أتقنـت الخياطة اليدويـة، سُـمِح لهـا باسـتخدام ماكينـة الخياطـة الوحيـدة في الديـر، وهـي ماكينـة تعمـل بالدواسـة. قالـت آيفـي إنهـا كانـت تفضـل تعلُّـم النجـارة، لكـن ذلـك لم يكـن متاحًـا. اضطـرَّت إلى تـرك المدرسـة في الخامسـة عـشرة مـن عمرهـا لأن والديهـا لم يعُـد في إمكانهـما إعالتهـا، وكسـبت عيشـها مـن خـلال العمـل بالخياطـة. أعتقـد أنني كنـتُ آخـر رضيـعٍ عـلى وجـه الكوكـب صُنعـت لـه لـوزام مخيطـة يدويًـا: قمصـان صغـيرة مطـرزة، ومرايـل مطـرزة، ومـلاءات طُـرزت عـلى حوافهـا بـط صغـير.

عندمـا انتقلـت آيفـي للإقامـة معنـا، صنعـت كل ملابـس الطفلـين. كانـت الرائحـة الكامنـة في منزلنـا دائمًـا هـي رائحـة القـماش المقصـوص حديثًـا. واعتـادت آيفـي أن تأخـذ ميـل للتسـوق، وتتوقـف عنـد متاجـر الأقمشـة أولًا. بعـد ذلـك، في قسـم الأطفـال في متاجـر ديفيـد جونـز أو مايـر، كانـت ميـل تنتقـي الملابـس التـي تعجبهـا، وتجرِّبهـا في غرفـة القيـاس، حيـث تخـرج آيفـي شريـط القيـاس مـن حقيبتهـا.

هـذه الأيـام، صـار لـدى ميـل قنـاة خاصـة بهـا عـلى يوتيـوب. فهـي تـدرس الهندسـة المعماريـة في شـيكاجو، وتشـكِّل مقاطـع الفيديـو خاصتهـا جـزءًا مـن مـشروع إبداعـي جـارٍ. يبـدأ كل فيديـو بميـل وهـي توضـح التزامهـا بمـا تسـميه "هندسـة الوجـه". وعندمـا تتصـل، تنشـغل هـي وآيفـي بتحليـلٍ آخـر حلقاتهـا مـن "الجـمال مـع ميـل". كانـت "ملامحـك الكلاسـيكية: مربعـات الوجـه التسـعة"، هـي أكـثر حلقـة اسـتقطبت مشـاهدات حتـى الآن، لكـن الحلقـة المفضَّلـة لـدى آيفـي هـي تلـك التـي تـدور حـول الحواجـب. تـلاشى حاجبـا آيفـي وصـارا خفيفـين، لـذا ترسـل إليهـا ميـل أحـدث المنتجـات الأمريكيـة اللازمـة لملئهـا، ثـم تقيِّـمان النتائـج معًـا.

كان حاجبا شانيل رائعين في بداية زواجنا، لكنها اعتادت نتفهما في أستراليا حتى باتا أشبه بخطٍّ رفيعٍ رُسِم بالقلم. وقالت إن النساء المهاجرات فقط هن من لديهن "تلك الحواجب الكثيفة الفظيعة". والآن، لم يعُد حاجباها ينموان مرة أخرى، وأشارت آيفي إلى أن الحواجب الكثيفة صارت هي الموضة. تحدثت عن "رسم شعر الحواجب"، وعرضت مشاركة قلم رسم الحواجب خاصتها مع شانيل. قالت: "قد يكون "المايكروبليدنج" هو الخيار المناسب لك".

في الفراش، قالت لي شانيل: "خمِّن من الذي أتخيل أنني أضربه، عندما أمارس تمارين الملاكمة".

هذه مزحة، فلا توجد خلافات في عائلتنا، ونهتم جميعًا بصالح بعضنا. على سبيل المثال، تجاوزت آيفي الستين عندما أرادت الهجرة، لذلك كانت في حاجة إلى احتياطي من رأس المال لإثبات أنها لن تشكِّل عبئًا على دافع الضرائب الأسترالي. لذا باعت الأسهم التي تلقَّتها من زوجها، بالإضافة إلى العديد من قطع السجاد والأثاث وما إلى ذلك لجمع المبلغ اللازم. وفي اليوم التالي لنزولها من الطائرة، أصرَّت على تحويل كل هذه الأموال إليَّ. قالت: "خذها، فأنت توفر لي سكنًا". اعترضتُ، لكنني استسلمت في النهاية. فقد كان الرهن العقاري لمنزلنا كالبالوعة، كما كان من الواجب وضع تعليم الولدين في الاعتبار.

لا تنس أنه بعد ذلك التحويل، كان لا يزال لدى آيفي مصدر للدخل، إذ ظلَّت تركة زوجها تدفع لها مبلغًا شهريًا، كما كان هناك أيضًا الإيجار الذي تحصل عليه من المستأجرين المقيمين في منزلها. كان الدولار الأسترالي قويًا في ذلك الوقت، لذلك لم يكن سعر الصرف في صالح آيفي، لكنها قالت: "لديَّ ما يكفي لاحتياجاتي".

احتياجات آيفي! ماذا كانت، تحديدًا؟ وفَّرنا لها المأكل والمسكن. كنت أعود إلى المنزل منهكًا بعد يوم في القسم، لأجد مزهرية بها

زهـور النرجـس أو زهـور الخشـخاش عـلى طاولـة المطبـخ. مـا الفائـدة منهـا؟ كانـت تذبـل وتمـوت، معلنـة أن الحيـاة قصـيرة، ولا وقـت لدينـا لنضيعـه. هـل كنـت في حاجـة إلى مـا يذكّـرني بذلـك؟ كان عـليَّ الاسـتيقاظ صبـاح اليـوم التـالي، وارتـداء بدلـة تفـوح منهـا رائحـة سـائل التنظيـف الجـاف، كي أسـلم نفـسي بعدهـا إلى بيئـة خاضعـة للتحكـم في درجـة الحـرارة، لأفعـل نفـس نـوع الأشـياء التـي فعلتهـا في اليـوم السـابق. بـدت حيـاتي طريقًـا يمتـد أمامـي مسـتويًا مـن دون أي ملامـح. وفي حـال مـا إذا كان هـذا يبـدو جذابًـا -يمكـن أن يظهـر أي شيء عـلى الطريـق- دعنـي أخـبرك أن نقطـة التـلاشي بـدت عـلى بُعـد سـت بوصـات مـن أنفـي. في هـذه الأثنـاء، كيـف تقـضي آيفـي يومهـا؟ كانـت تختـبر صبر بائـع الزهـور، وهـي تتحـدث بحـماسٍ عـن زهـور الزنبـق والفاوانيـا، قبـل أن يسـتقر اختيارهـا عـلى باقـة مـن زهـور التوليـب المخفضـة لسرعـة البيـع، تسـقط نصـف بتلاتهـا في الحافلـة.

يجـب أن يكـون مـن الواضـح الآن أن آيفـي ليـس لديهـا أي حـسٍّ بقيمـة المـال. فلتطلـق عـلى ذلـك مسـمى السـذاجة، أو أطلـق عليـه خللًا في النظـام، أو أطلـق عليـه التاريـخ أو الحـظ. كانـت تحتفـظ ببرطـمان مـليء بعمـلات معدنيـة قـذرة، وتمنـح المتسـولين تلـك العمـلات، عـلى الرغـم مـن أننـي أخبرتهـا أنهـم بيـادق يسـيطر عليهـا أباطـرة المخـدرات مـن تايـوان. كان الـرد الصحيـح الرحيـم بهـم هـو الإشـارة إلى الطريـق إلى أقـرب بنـك طعـام. وإذا بقـي المتسـول عـلى الرصيـف خلـف قطعـة مـن الكرتـون كتـب عليهـا أكاذيـب، فمـن واجـب المواطـن الصالـح تنبيـه الشرطـة.

تحـب آيفـي القـول بأنهـا نشـأت بـين أنـاس يعتقـدون أن المـال شيء مخـزٍ، "إلا أن هـذا هـو مـا يتحـدث عنـه الجميـع الآن". أود الإشـارة إلى أنهـا لطالمـا كانـت محاطـة بأشـخاصٍ يفكـرون في المـال عـلى الـدوام. في

وطننـا الأم، اصطـفَّ الفقـراء والمشـوَّهون في الشـوارع، وقلـت لآيفـي: "كنـت تمرِّيـن أمامهـم بالسـيارة".

إن الكـرم مثـيرٌ للإعجـاب، لكـن فقـط عندمـا يُوجَّـه بحكمـة. مـاذا كان سـيحدث لأمـوال آيفـي لـو لم تحوِّلهـا إلينـا؟ كان محتـال مـا سـيأتي إلى البـاب وبحوزتـه صـور لملاذٍ مخصـصٍ لآخـر مجموعـة متبقيـة مـن حيـوان الكـوالا، أو أطفـال أجانـب ذوي هيئـة رثَّـة يقيمـون في الخيـام، وسـتتوقع آيفـي منـا أن نسـعد بقرارهـا.

بعـد التحويـل، أكدنـا لآيفـي أننـا سـنتولى العنايـة بـكل شيء نيابـة عنهـا. قالـت شـانيل: "إنهـا حكمـة بالغـة منـك، ألا تزعجـي نفسـك بـإدارة الأمـوال، سـنتولى أمـر أي شيء تحتاجـين إليـه".

***

ذات مسـاء، لفتـت انتباهـي كلمـة في أحـد العناويـن الرئيسـية: "جثـة"، وعندمـا رمشـت بعينـي، تحوَّلـت إلى "جـدة". كان يومًـا طويـلًا آخـر في القسـم، بقيـت فيـه حتـى وقـت متأخـر لتحليـل جـدول بيانـات لـروس. أُصيبـت عينـاي بالإرهـاق عندمـا رحلـت، وكان الدخـان سـيئًا. لم أطالـع أي شاشـات عـلى مـتن القطـار في طريـق العـودة إلى المنـزل، وأفرطـت في اسـتخدام قطـرة العـين المرطبـة المجانيـة التـي توزعهـا الحكومـة، لتهدئـة عينـي.

بعـد أن ترجَّلـت مـن القطـار، كان أمامـي خمـس عـشرة دقيقـة سـيرًا عـلى الأقـدام حتـى أصـل إلى سـيارتي. هنـا عـلى أطـراف المدينـة المتداعيـة، لا تسـتطيع البنيـة التحتيـة اسـتيعاب كل القادمـين الجـدد الذيـن يتدفقـون مـن المناطـق الريفيـة. مهـما أتيـت مبكـرًا في الصبـاح، كنـت أجـد موقـف سـيارات المحطـة ممتلئًـا عـن آخـره. كـما أن هنـاك تقاريـر عـن تعـرُّض بعـض الـركاب للسرقـة عنـد عودتهـم إلى سـياراتهم بعـد حلـول الظـلام.

ومـن المتفـق عليـه أن الريفيـين هـم المسـؤولون، إذ إن الكثـير منهـم بـلا مـأوى، ويتجولـون في الشـوارع بمظهـرٍ قـذرٍ وشـعر مشـعث. كان أحدهـم يقـف تحـت الغطـاء البلاسـتيكي لهاتـفٍ عمومـي عندمـا غـادرت المحطـة. فلتعطنـي سـببًا واحـدًا يدفعنـي إلى الثقـة في شـخصٍ لا يسـتطيع تحمُّـل تكلفـة شراء هاتـف محمـول. حملـت مهـماز الماشـية في وضـع الاسـتعداد، حتـى وصلـت إلى السـيارة بأمـان، وأطلَّـت عـليَّ عينـاي الحمـراوان المسـكينتان مـن مـرآة الرؤيـة الخلفيـة بينـما أنـا أقـود السـيارة عائـدًا إلى المنـزل في سـبومانت كـورت.

في المـاضي، كنـت أقـف ويـدي عـلى البـاب لأسـتمتع بلحظـة دخـولي إلى منزلنـا، وسـط الظـلام والهـواء البـارد لا يـزال يلفـح وجهـي، حتـى أدخـل إلى الغـرف المضـاءة. سـيكون الولـدان في الطابـق العلـوي يعمـلان عـلى حـلِّ واجباتهـما المنزليـة، بينـما شـانيل وآيفـي منشـغلتان بإعـداد العشـاء. وإذا تأخـرت أكـثر مـن المعتـاد، سـأجدهم يشـاهدون التلفزيـون، وربمـا كانـت آيفـي منشـغلة بحبـك الصـوف، لكـن هـذا لا يعنـي مـا قـد توحـي بـه الكلمـة مـن نشـاطٍ تمارسـه عجـوزٌ لطيفـة بصـوفٍ ذي ألـوان باسـتيل مبهجـة. إذ إن الجـوارب والأوشـحة والسـترات الصوفيـة السـميكة التـي قدمتهـا لنـا آيفـي عـلى مـرِّ السـنين لم تكـن ملابـس، بـل كانـت بمنزلـة إعلانـات زاعقـة الألـوان تضمـن اجتـذاب النظـرات المحدقـة مـن الآخريـن. حرصنـا عـلى عـدم ارتدائهـا في الأماكـن العامـة أبـدًا، وبعـد فـترة، كانـت شـانيل تتخلـص منهـا بهـدوء، بعـد أن تتوقـف عنـد صناديـق التـبرع بالملابـس في طريقهـا إلى العمـل، وكانـت آيفـي تنشـغل بهديتهـا البشـعة التاليـة، فـلا يبـدو أنهـا تلاحـظ اختفـاء سـابقتها.

حبـك الصـوف شيء آخـر تعلَّمتـه آيفـي مـن الراهبـات. وإذا سـأل أي شـخص لمـاذا اعتـبروا هـذه مهـارة مفيـدة للأطفـال الذيـن يعيشـون في المناطـق الاسـتوائية، فسـتقول آيفـي: "كانـت الأخـت بيربيتـوا تتمتـع بموهبـة الرؤيـا". وهـي تعتقـد أن الأخـت بيربيتـوا نظـرت إلى المسـتقبل،

ورأت آيفـي وجميـع الفتيـات الأخريـات ذوات الأذرع النحيلـة يـسرن في شـارع رمـادي كئيـب، بـلا مـأوى وبـلا نهايـة، ولا يمتلكـن سـوى ملابـس المنـزل الخفيفـة غـير المجديـة لتدفئـة أجسـادهن البائسـة.

كثـيرًا مـا تقـول لنـا آيفـي: "كنـتُ أنـا المفضَّلـة لـدى الراهبـات"، وتتحـدث مـن دون أي أثـرٍ للكـبر أو العجرفـة، معتـبرة إعجابهـن حقًّـا مكتسـبًا لهـا. لطالمـا اجتذبـت آيفـي النسـاء اللـواتي تفتقـر حياتهـن إلى الإنجـاز. وهـي تسـتمتع بصحبتهـن، لكنهـا لا توليهـن أي أهميـة، إذ إن الأهميـة بالنسـبة إلى آيفـي حكـرٌ عـلى الرجـال الوسـيمين. أمـا أكـبر معجبيهـا، فهـي فانتـا، مصفِّفـة شـعرها. في المـاضي، فـازت بهـذا الـشرف بالتنـاوب، امـرأة قابلتهـا آيفـي في درس الرقـص الخـاص بكبـار السـن، والمـرأة التـي تـشرف عـلى تنظيـم مجموعـة المـشي المحليـة، والمـرأة التـي كانـت شريكـة آيفـي في لعـب البريـدج. مـضى وقـتٌ منـذ أن ذهبـت آيفـي في نزهـة منظمـة، أو ذهبـت للرقـص أو لعـب البريـدج، لكـن هـؤلاء النسـاء ظللـن عـلى اتصـالٍ بهـا، وتعتقـد آيفـي أن معرفتهـا تجلـب لهـن السـعادة، ويبـدو أنهـن يعتقـدن نفـس الـشيء.

لكـن هـا أنـا قـد اسـتطردت بعيـدًا عـن الموضـوع مـرة أخـرى. أحـاول أن أنقـل الشـعور الهـادئ بالفرحـة الـذي كان ينتابنـي عنـد العـودة إلى المنـزل: وأنـا واقـف وبـشرتي بـاردة كالمدينـة، بينـما النسـاء في المنـزل في الضواحـي، وأضـواء الهالوجـين المثبتـة في السـقف تضفـي وهجًـا عـلى المشـهد. كانـت متعـة تقتـصر عـلى تلـك اللحظـات القليلـة، وصرتُ أفتقدهـا. ومـع رحيـل الولديـن، تغـيَّر كل شيء. أجـد المنـزل مظلـمًا عنـد دخـولي، والتلفزيـون يحـدق شـاحبًا. يلتمـع شيء عـلى طاولـة المطبـخ الرخاميـة: علبـة صـدور الدجـاج التـي سنشـويها عـلى العشـاء. باتـت أسرتنـا التـي انكمشـت تسـتهلك كميـة أكـبر مـن اللحـوم الخاليـة مـن الدهـون، والقهـوة الخاليـة مـن الكافيـين، والكرنـب المجمـد، وكميـات أقـل مـن الحليـب كامـل الدسـم والمكرونـة والجـبن.

في هـذه الأيـام، صـارت آيفـي تتنـاول المكرونـة أو الحسـاء على العشـاء، وتنسـحب إلى غرفتهـا بحلـول موعـد عـودتي إلى المنـزل. تقـول إن المنـزل "يشـبه المشرحـة"، لـذا تشـغل بطانيتهـا الكهربائيـة وتـأوي إلى الفـراش في السـاعة السـابعة. تسـلي نفسـها هنـاك لبقيـة المسـاء عـن طريـق ... مشـاهدة قنـاة ريتروفليكـس؟ حـل السـودوكو؟ ممارسـة الفـودو؟ في الحقيقـة، صـار مـن المريـح عـدم رؤيتهـا مؤخـرًا.

في حـال مـا إذا عـادت شـانيل إلى المنـزل أولًا، سـأجدها تمارس التماريـن عـلى بسـطة السـلم، حيـث تحتفـظ بجهـاز التماريـن الرياضيـة والأثقـال. كانـت تحتفـظ بهـم في الغرفـة الاحتياطيـة، لكننـا نسـتغل هـذا المـكان الآن لتخزيـن الطعـام والأدويـة وورق التواليـت، اسـتعدادًا للوبـاء القـادم. اشـتركت شـانيل في قنـاة يوتيـوب لمـدرب أمريـكي، ولا تنتبـه حتـى لعـودتي. أصعـد الـدرج، وأسـمعها تقـول: "هيـا يـا ركبتـيَّ، فلتمنحـاني تمرينًـا صحيًّـا رائعًـا اليـوم!". أتسـاءل أحيانًـا، كيـف وصلنـا إلى هـذا الحـال؟ متـى أصبحـت زوجتـي امـرأة تتحـدث إلى ركبتيهـا؟

عندمـا انتقلنـا للإقامـة في سـبومانت كـورت، بـدا لنـا كمـكان مـن دون تاريـخ، ووفَّـر صـوت حركـة المـرور عـلى الطريـق السريـع موسـيقى تصويريـة حديثـة لأيامنـا. كانـت جميـع المنـازل المنفصلـة المؤلفـة مـن خمـس غـرف نـوم، والمطليـة بلـون أبيـض كمعجـون الأسـنان، أكـثر ارتفاعًـا مـن الأشـجار، ولا تـزال كذلـك، إذ إن الأشـجار في شـارعنا لم تزدهـر أبـدًا في الواقـع. شـعرنا بالفخـر الشـديد بحيِّنـا الجديـد، وبامتـلاك منـزل أخـيرًا. كان الرهـن العقـاري الباهـظ بمـا يكفـي لإصابـة المـرء بنوبـة قلبيـة خطـوة أساسـية إلى الأمـام في رحلتنـا نحـو الانتـماء، حيـث إن الإيجـار ليس أسـلوب الحيـاة المُتبَـع في أسـتراليا، بـكل تأكيـدٍ.

اشـترينا منزلنـا مـن المـلَّاك الأصليـين، وهـم مهاجـرون مسـيحيون مـن الـشرق الأوسـط. ولـو كانـوا مسـلمين، لأدى ذلـك إلى انخفـاض السـعر،

لكـن وكالـة العقـارات قدمـت لنـا ضمانًـا. كان الملّاك زوجـين مـن كبـار السـن رحـل أبناؤهـما منـذ فـترة طويلـة، وعرضـا أن يبيعـا لنـا أثاثهـما، لأنهـما سـينتقلان إلى منـزل أصغـر، لكننـا رفضنـا. فالأشـياء المسـتعملة لهـا حكايـات، وروائـح، وتشـجع عـلى الحنـين إلى المـاضي. وعندمـا كنّـا أنـا وشـانيل نسـتعد للهجـرة، عـرض زوج والـدتي شـحن أي شيء قـد نـود الحصـول عليـه مـن منزلـه. رأت شـانيل الخطـر في الحـال: بـدء الحيـاة في بلـدٍ جديـدٍ بأثـاثٍ مـن البلـد القديـم، يمكـن أن يـؤدي إلى تضـارب في الـولاء. تلـك الطـاولات الجانبيـة الداكنـة الضخمـة، وتلـك الأسِرَّة، سـتخيم فـوق حياتنـا كأسـلاف متجهمـي الملامـح. يجـب أن يـزن المـاضي أقـل مـن صـورة، وقـد تخلينـا عـن معظمهـا أو حذفناهـا أيضًـا.

نسـتبدل أثاثنـا كل ثمـاني سـنوات. في البدايـة، ذهبنـا إلى متجـر "فانتاسـتيك فرنتـشر"، ثـم ارتقينـا لمسـتوى أفضـل وذهبنـا إلى متجـر "فريـدوم". بعـد ذلـك، عقـب ترقيـة شـانيل الأخـيرة، دعانـا أحـد كبـار مديـري المؤسسـة إلى تنـاول العشـاء. كـدت أرى المـال يقطـر مـن كل زاويـة مـن زوايـا ذلـك المنـزل، حيـث كان كل الأثـاث مـن طـرازٍ حديـثٍ، يعـود إلى منتصـف القـرن، لـذا سـلكنا نحـن أيضًـا نفـس الطريـق، وصـار جميـع أثـاث منزلنـا مستنسـخ، ابتعنـاه مـن متجـر "مـات بـلات"، وهـو الحـل المثـالي: أثـاث جديـد مصمـم عـلى طـراز قديـم. كـما أننـا نجـدد الحـمام كل سـبع سـنوات، والمطبـخ كل عـشر سـنوات. وهـذه النفقـات ضروريـة، إذ تعـد الديـون الأسريـة وتحسـينات المنـزل مـن القيم الأسـترالية الرئيسـية. لا نشـعر أنـا وشـانيل بالاندمـاج أكـثر مـما نشـعر بـه في تلـك اللحظـات التـي نسـتيقظ فيهـا ونحـن نعـاني الصـداع مـن أثـر رائحـة الطـلاء، أو عندمـا يعمـل سـباك متـدرب عـلى التأكـد مـن أن الـصرف في حوضنـا الجديـد لـن يعمـل.

في المـرة الأولى التـي أعدنـا فيهـا تجديـد مطبخنـا، عـثر عامـل البنـاء عـلى رزمـة صغـيرة مخفيـة خلـف الفـرن المثبـت في الحائـط. فتحنـا

القماش المشمع، فظهرت صورة مسيحية. ربما كان هناك تقليد في الوطن الأم للملَّاك السابقين يقتضي الاحتفاظ بأيقونة في الموقد، وكان إخفاء أيقونة خلف الفرن الكهربائي هو أقرب تصرف ممكن يشابه تلك الطقوس. كان الدين أحد الأشياء التي اخترنا أنا وشانيل تركها وراءنا، لكن آيفي أخذت الصورة ووضعتها في غرفتها، ولا تزال هناك، في إطارها المعدني الأسود. كما أن لديها أيضًا صورة منسوجة للمسيح على غطاء وسادة، وتمثالًا بلاستيكيًّا لجوان يين إلهة الرحمة، وصورة لبوذا محاطة بإطارٍ من المصابيح الكهربائية الصغيرة. لم تتخلص آيفي أبدًا من الممارسات الرجعية التي غرستها فيها أولئك الراهبات، لكن غرائزها الطبيعية أقوى، هذا هو كل ما في الأمر. وفي كل صباح تخلط مجموعة من أوراق اللعب، وتسحب واحدة منها، للتنبؤ بما يحمله اليوم.

يتحدث الناس إلى آيفي بسهولة، فهي تبدو مسالمة على ما أعتقد. وفي الماضي عندما كانت صحتها تسمح لها بالتحرك، اعتادت التطوع في بنك الطعام. يا للحكايات التي كانت تعود بها إلى المنزل! كانت هناك فتاة تعيش في وحدة تخزين تابعة لشركة موراباين، لأنها لم تكن تستطيع تأجير سكن سوى ذلك. وفي مرة أخرى، كان هناك رجل عجوز يطبخ من العصيدة ما يكفي لمدة أسبوع، ويحتفظ بها في الدرج. هكذا اعتادت والدته أن تفعل في أبردين، ولم ير أي سبب للتغيير.

كانت آيفي تعطي كلَّ من تتبادل معه الحديث رقم هاتفها، ورتب معها رجل العصيدة لمقابلتها، ثم التقيا في المدينة، وذهبا إلى أحد مطاعم "هير كريشنا" في شارع سوانستون لتناول الغداء. بعد ذلك، صارا يلتقيان كل أسبوع. شعرنا أنا وشانيل بالذعر، إذ كانت آيفي ترتدي خاتمها المرصع بالزمرد في تلك اللقاءات. ماذا لو انتزعه من إصبعها؟ ومن كان يدفع ثمن غدائه؟ عندما سألنا آيفي عمَّا

يتحدثان، قالت "جمال الجبر". علمنا أنه كان طفلًا بارعًا في الرياضيات، وعانى انهيارًا عصبيًّا في سن العشرين، ولم تعُد حياته إلى مسارها الصحيح أبدًا. تساءلنا عما إذا كانت آيفي ستعطيه المال اللازم لشراء ثلاجة. لكن لحسن الحظ، فُرض الحظر بسبب الوباء، فتحوَّلا إلى الاتصال ببعضهما، حتى أخبرها ذات يوم، بين نوبات السعال، أنه يشعر بالحرارة في جسده كله، وقد تمكَّن بالكاد من استجماع قواه لرفع سماعة الهاتف. وبعد ذلك، لم يعد أحد يجيب حينما حاولت آيفي الاتصال. أخبرتنا أنه عند نهاية غدائهما الأخير، نزل على ركبتيه المتورمتين اللتين تصدران صريرًا، وعانق قصبة ساقها، حيث كان ذلك أكثر أمانًا من المصافحة أو تقبيل وجنتها. أشرنا، بلطفٍ شديدٍ، إلى أن الوباء كان بمنزلة رحمة لشخص مثله، فأي حياة تلك التي يعيشها، في غرفة مستأجرة مع عصيدة في الدرج؟

***

تصاب آيفي بالتعب بسهولة هذه الأيام، والخمول هو أحد الأعراض التي تعانيها، لكنها مرتاحة تمامًا، ويعمل برام على التأكد من ذلك. برام هو ابن عم شانيل، وكانا مقربين من بعضهما في طفولتهما، حتى انتهى الأمر ببرام بأن تبعنا إلى هنا. في وطننا الأم، كان يُعَد شابًّا متهورًا -يقود السيارة بسرعة، ويبدِّل الفتيات بمعدل أسرع- لكنه مع ذلك تخرج في كلية الطب. أتى هنا كي يتخصص في مجاله، وصار الآن طبيبًا متخصصًا في أمراض الجهاز الهضمي. يكسب برام الكثير من المال، وينفقه بغير حكمة. ولفترة من الوقت كان يمتلك "ساقًا واحدة من حصان سباق"، كما كان يحب أن يقول.

سرعان ما صارت آيفي تعتمد على برام. وعندما علم بإحجامها عن استشارة الطبيب، شجعها على استدعائه كلما شعرت أنها ليست

على ما يرام. لقد كتب لها وصفات طبية، وأعطاها لقاحات، وجمع عينات، واستمع إلى رئتيها، وهو يمازح آيفي ويشاكسها، ويقبِّل يدها. ويساعد هذا آيفي على التظاهر بأنه لا يزورها بصفة مهنية. يحكي برام عن النساء اللاتي تبدين الاهتمام به، ويسأل عن رأي آيفي في هذه أو تلك. وهو ضئيل القامة ومهندم، قبيح الشكل، يعلو رأسه شعر كثيف مموج مهوش. تقول آيفي إن تمويجات شعره هي مفتاح نجاحه مع النساء، فيخبرها أنهن يرغبن في العبث بشعره. ولكي تظهر امتنانها لبرام، أوصت آيفي بالتبرع بعينيها لأغراض علمية. هل يريد العلم عيني امرأة عجوز مصابة بإعتام عدسة العين؟ لم يخطر ببال آيفي أن تطرح هذا السؤال.

كان برام هو من أوصى بطبيب الأمراض الجلدية الذي يعالج شانيل من البقع الشاحبة التي ظهرت على بشرتها، وأخبرنا بوجود أمراض غامضة منتشرة. قال برام: "ليس هناك بالضرورة شيء يستدعي القلق، لكن يبدو أن الفيروسات الجديدة تظهر من العدم هذه الأيام". كان غموضه متعمدًا، لأنه من غير الحكمة التحدث مباشرة عن عواقب التغيُّر البيئي. وعندما انتقل سيدني للإقامة في الشمال من أجل الحصول على درجة الدكتوراه، جعلناه أنا وشانيل يقطع وعدًا بعدم التحدث عن منطقة الحرائق الدائمة، وأن يقول بدلًا من ذلك منطقة تطهير الأدغال. كان هذا هو الاسم المصرح به، ويُظهر أن الحكومة تهتم بصحتنا العقلية. فمن يريد ما يذكِّره بوجود منطقة حرائق دائمة؟ نأمل أن يضع سيدني في اعتباره أن إرهابيي اللواء الأخضر فقط هم من يستخدمون مسمى منطقة الحرائق الدائمة، وأنه يمكن أن يعرضنا جميعًا للخطر إذا استخدم المصطلح.

***

كنت أستمتع بالذهاب إلى العمل، ورؤية الأشكال التي يخلفها الضوء وهو يتلاعب فوق المنازل المأهولة بالسكان، وكاميرات المراقبة، والحدائق المقاومة للجفاف المفروشة بالحصى في سبومانت كورت، وجيراني يخرجون بسياراتهم الطويلة البراقة كما لو كانوا متوجهين إلى الحرب، وجميعنا جاهزون للمعركة. وفي الصباحات الربيعية الصافية، كان الطريق بطول شارع بلو نون الذي تحفُّه الأشجار يكاد يُسمع فيه قرع الطبول. ولا تزال أشجار اليوكاليبتوس والشجيرات المزهرة تحدد مدخل محرقة الجثث هناك، لكن في هذه الأيام، صار المرور يتكدس بامتداد عدة مربعات سكنية عند التقاطع، وبمجرد وصولنا إلى طريق كولد داك، نتحرك ببطء متجاوزين مطاعم الوجبات السريعة، ومعارض السيارات، ومتاجر الملابس المخفضة، ومحطات خدمة السيارات. وعندما تشرق الشمس، يعمل زجاج النوافذ الأمامية للسيارات على تكثيف شدة الوهج. وإذا كان الدخان أسوأ من المعتاد، ستضيء لافتات التحذير العلوية: "ارفع النوافذ، وقُم بتشغيل خاصية إعادة تدوير الهواء". ثم يعقب ذلك فوضى محاولة العثور على مكان لوقوف السيارات على مسافة قريبة من المحطة.

أما بالنسبة إلى القطار، فلم يعُد يوفِّر لي فاصلًا هادئًا لوضع السماعات في أذني، والسماح لفريق "كولد بلاي" بحملي بعيدًا، شاعرًا بالاسترخاء مع الرائحة المركبة المؤلفة من معجون الأسنان ومزيل رائحة العرق والقهوة. أضطر في معظم الأحيان الآن إلى الوقوف طوال الطريق. وذات صباح، انتزعت فتاة تجلس بالقرب مني كمامتها، ثم حنت رأسها بين ركبتيها وتقيأت. خفضنا نظراتنا جميعًا ونحن نفكر، هل سيبدأ الأمر من جديدٍ؟ تسري شائعات مفادها أن الوباء القادم سيصيب الجهاز الهضمي. شغلنا أنفسنا بمعقم اليدين، ووجدنا ضباطًا يرتدون ملابس واقية ينتظرون في المحطة التالية لنقل الفتاة. تلقينا أوامر بالنزول إلى رصيف المحطة، واضطررنا إلى الوقوف تحت أشعة

الشمس الحادة بينما أغلق موظفو السكة الحديد العربة. وصل المزيد من الضباط لتسجيل كل المسافرين الذين كانوا في العربة الملوثة، والتحقق من هويتنا، واستغرقت الضابطة التي تفحص هويتي وقتًا طويلًا. دائمًا ما يقول سيدني إن تقنية التعرُّف على الوجوه تعمل مع أصحاب البشرة البيضاء فقط. عندما رحلت الضابطة، شعرت بصداع بدأ يتسلل عبر جبهتي، وسعلت بتوترٍ في مرفقي، فالتفت الناس محدقين إليَّ في غضب. أعلن مكبر الصوت أننا قد نضطر إلى الذهاب إلى عيادة مؤقتة كي نخضع للفحص. وبعد السماح لنا باستئناف رحلتنا، اضطررنا إلى حشر أنفسنا في عربات مزدحمة، وحاولت حبس أنفاسي لبقية الطريق. تأخرت عن العمل ثلاث ساعات، وبحلول وقت الغداء، شعرت كما لو أن أحدهم يدق المسامير بين عيني. وجهت نظري إلى الأسفل، وهناك عند طرف سروالي رأيت بقعة صغيرة من القيء.

حتى القسم لم يعد كما كان من قبل، ومن ضمن أسباب ذلك هو رحيل لورنا. كانت تعمل في قسم التقييم، الذي أعمل أنا به، حيث نشتغل كغرفة تبادل معلومات للأمن، وإذا كانت القضية تتعلق بالإرهاب، يتم تجاوزنا، وتتوجه سلطة التحقيق مباشرة إلى زملائنا في الطابق العلوي. ولكن مع زيادة عدد الأعمال والمنظمات المحظورة، يزداد أيضًا عدد القضايا التي يصير للأمن اهتمام محتمل بها، ولكن ليس بشكلٍ واضحٍ. تصل مثل هذه القضايا الضبابية إلى مكتبنا كل يوم، ونقيِّم مدى ما تمثِّله من مخاطر. كم مرة حاولت أن أشرح ذلك لسيدني؟ في رأيه، فإن العمل في القسم يعني التواطؤ مع الدولة البوليسية، وهو يلقي بعبارات مثل "السلطة القسرية" و"المراقبة غير القانونية للمواطنين العاديين". فأكرر قائلًا: "أنا أعمل في الإدارة فحسب"، ويمكن لأي شخص عاقل أن يرى أنني لا أُكره أحدًا على شيء. أنا أصدر التوصيات فحسب، والتوصيات ليست قسرية، أكثر من كونها أشبه بالاقتراح. الجهات الأمنية هي التي تتخذ كل

القرارات المهمة. أما هنا في قسم التقييم، فكل ما نفعله هو مجرد التقييم، وهذا كل ما في الأمر.

كانت لورنا مساعدتنا التنفيذية، وهي امرأة قوية البنيان يغطي وجهها النمش، جعلها فكُّها البارز تبدو كأنها تتحرق شوقًا إلى القتال. سمعتها ذات مرة تقول إنها تحب التجول في حديقة بالقرب من منزلها، والتوقف كي تلمس جذوع الأشجار. ألقيت نظرة خاطفة على يديها عندما قالت ذلك، ورأيت الجلد المجعد عند مفاصل أصابعها. وعلى مر السنين، عرفت القليل عن حياتها. كان لديها ابن يُدعى تكس مصاب بالتوحد الشديد، وكان زوجها فرانك يعمل في شركة طيران. لكن الوباء وضع حدًّا لذلك، ولم يتمكَّن من العثور على عمل مرة أخرى. ثم صارت لديه مشكلة تتعلق بلعب البوكر عبر الإنترنت، أو هكذا قالت الشائعات التي سرت همسًا.

يطل المبنى الذي يضم القسم على مناظر من ثلاث جهات، كلها رمادية. لكن في مساء الأيام الشتوية الخالية من سحب الدخان، يظهر غروب الشمس. وعندما كانت لورنا هنا، اعتادت أن تتوقف للاستمتاع بالغروب، متباطئة بجانب النوافذ في طريقها من المطبخ حاملة كوب الشاي الخاص بها. وكنت أنضم إليها هناك في بعض الأحيان حتى أفرد ظهري. ذكَّرني غروب الشمس بمنزل كنت أمرُّ أمامه بالسيارة كل يوم في شارع كولد داك، منزويًا بين فرع لمتجر "فورتي وينكس"، ومتجر لإطارات السيارات. بدا مظهره متداعيًا كما هو حال المنازل المستأجرة: له ستائر معدنية مكسورة، وجدار من الطوب المحطم حيث اصطدمت به إحدى السيارات، والبوابة الحديدية يتساقط منها الصدأ. لكن في كل شتاء، كانت الشجرة الموجودة في الفناء تكتسي بزهور وردية ضخمة. قضى الجفاف على الشجرة قبل بضع سنوات، وجُرف المنزل الشهر الماضي. وبينما ينتظر الموقع التطوير، ظهرت لوحة إعلانية: "هل يسبب لك الحديد الإمساك؟ اسأل".

بعـد رحيـل لورنـا، حرصـتُ عـلى الابتعـاد عـن مشـهد الغـروب، إذ إن لـه نفـس القـدرة عـلى إثـارة النفـوس مثـل تلـك الزهـور الشـبيهة بكـؤوس مـن الضـوء الـوردي. عنـد رؤيتهـا، كان شيء مـا بداخـلي يتمـدَّد، ويصـير الأفـق بعيـدًا ومشرقًـا أمـام عينـي. تسـاءلت عـما إذا كان الغـروب يؤثـر في لورنـا بنفـس الطريقـة، ويجعلهـا تعـي وجـود شيء أعظـم. كانـت ذقنهـا التـي تتحـرق إلى القتـال ترتفـع بينـما هـي واقفـة بجانـب النافـذة، لكـن أي رغبـة في القتـال كانـت موجـودة لديهـا فيـما مـضى اختفـت منـذ زمـن بعيـد. سـألتني ذات يـوم: "مـاذا سيحدث لتكـس عندمـا أمـوت؟ أو عندمـا أصبـح أكـبر سـنًّا مـن أن أسـتطيع العنايـة باحتياجاتـه؟". ارتشـفت مـن كوبهـا وواصلـت قائلـة: "لا يمكـن الاعتـماد عـلى فرانـك".

خـلال عمليـة إعـادة الهيكلـة الأخـيرة، فُصِلـت لورنـا مـن عملهـا، وكان أكـبر سـبب وراء ذلـك هـو ضغـط النفقـات: دائمًـا مـا يكـون كذلـك. لكـن لم يكـن هـذا هـو السـبب الوحيـد، إذ بـدأت لورنـا تـأتي إلى العمـل باديـة الإرهـاق، بشـعر مشـعث. كـما أنهـا في الآونـة الأخـيرة بـدأت تنـسى القيـام بأشـياء أو تفسـدها، وأخـذت تفـوت المواعيـد النهائيـة لتسـليم العمـل، وتعتـذر عـن الحضـور بحجـة المـرض. بعـد ذلـك أصيبـت بالمـرض بالفعـل، ودخلـت المستشـفى بسـبب الإصابـة بالدوسـنتاريا. لم تكـن قـادرة عـلى تحمُّـل تكلفـة الميـاه المعبـأة، وأهملـت في ترشـيح المـاء. وعندمـا عـادت للظهـور مـرة أخـرى، بـدت كـما لـو أنهـا في حاجـة إلى طبقـة مـن الطـلاء. لم يُفاجـأ أحـد عندمـا اسـتُدعيت لرؤيـة روس.

خرجـت لورنـا مـن مكتـب روس، وتوجهـت إلى مكتبهـا. وضعـت صـورة تكـس في حقيبتهـا، ثـم ارتـدت سـترتها وأغلقـت الأزرار ورفعـت الياقـة إلى أعـلى. تسـلل إليَّ إحسـاسٌ غريـبٌ بالخـواء، كـما لـو أنننـي أفقـد أكـثر بكثـيرٍ مـن زميلـة. وحتـى يومنـا هـذا، لا أحـب التفكـير في الأمـر، حيـث لم يبـدُ منطقيًّـا عـلى الإطـلاق.

***

اضطرَّت أيكيا أيضًا، المسؤول الإداري في قسم التقييم، إلى الرحيل في نفس تلك الفترة تقريبًا. اكتُشِف أن شقيقها يرتاد مسجدًا سريًّا، واتضح أن أيكيا كان اسمها زينب في السابق. وقد غيَّرت اسمها، كما فعل الكثير من المسلمين عندما صدر قرار الحظر. ونظرًا إلى أن ممارسة الإسلام جريمة إرهابية، فقد أُعيد جميع أفراد العائلة قسرًا وفي الحال إلى وطنهم الأم.

عقب رحيل أيكيا/زينب، دُمِج منصبها مع منصب لورنا، وشغل الوظيفة ليريك،[1] وهم في سن الشباب، وعلى درجة عالية من الكفاءة، ويسيرون بهدوء مرتدين حذاء رياضيًّا أبيض كبير المقاس. تعرفتُ على عطرهم على الفور، إذ كان هو العطر المفضل لدى شانيل أيضًا، واسمه "بيوير"، أي احترس. تصف شانيل العطر بأنه "حميمي وعاطفي أيضًا بدرجة لا تصدق".

الشيء الذي حيَّرني هو إثنية ليريك، لكنني لا أحب طرح الأسئلة، ولم أستطع اكتشاف الأمر، فقد حُلق نصف شعرهم، وقد يكون الباقي أزرق مع بقع برتقالية، ويتغير اللون كل بضعة أسابيع. أما بشرتهم فبرونزية اللون، وعظام وجنتهم حادة بدرجة يمكنها التسبب في جرحك، وعيناهم المسحوبة مائلة نوعًا ما. وفي بعض الأيام، تكون تلك العينان بلون التوباز، وفي أيام تكون بلون أزرق مائي، بينما في أيام أخرى تكون خضراء بلون بذور اليقطين. وكان حاجباهم ناعمين وممتلئين، وكذلك شفاههم. وبدا وجههم في نعومة الزجاج، ومضيئًا تحت بعض الأنوار.

وصفتُ ليريك لميل، فقالت: "أبي! هذا وجه انستاجرام، لقد أعددت حلقة كاملة عن الموضوع منذ أسابيع". لذا بحثت في جوجل

(1) شخصية ليريك محايدة جنسانيًا، وعلى هذا الأساس استخدمت ضمير الجمع "هم"، كضمير محايد جندريًا، للدلالة على شخص مفرد.

عـن "وجـه انسـتاجرام"، وبـدا الأمـر كـما لـو أننـي أطالـع صـورًا لليريـك. مـن أيـن أتي قومهـم؟ مـن أمريـكا اللاتينيـة؟ الـشرق الأوسـط؟ إسـبانيا؟ اسـمهم الوحيـد هـو ليريـك فقـط، وهـذا لا يسـاعد في شيء.

كنـت أشـعر بالغـيرة مـن الدنماركيـين، لكننـي صرت أشـعر حيـال ليريـك الآن بقـدر أكـبر مـن الغـيرة. إن مظهرهـم بمنزلـة أسـلوب جديـد تمامًـا للاندمـاج، يجعـل مـن المسـتحيل تحديـد خلفيتهـم، ويجعـل كل شيء مختلطًـا. وفقًـا لميـل، "يتطلـب الأمـر الكثـير مـن مسـاحيق التجميـل لعمـل وجـه انسـتاجرام، أي عشريـن منتجًـا مختلفًـا تقريبًـا". لكننـي لا أعتقـد أن وجـه ليريـك تغطيـه أي مسـاحيق تجميـل، رغـم أننـي لا أجـرؤ عـلى النظـر مـن كثـب. أذكـر نفـسي قائـلًا: "احـترس، احـترس".

ربمـا سيشـبه الجميـع ليريـك يومًـا مـا. ربمـا كان مـن الخطـأ البحـث عـن أصولهـم، وربمـا يتعـين عـليَّ البحـث عـن الزمـن الـذي ينتمـون إليـه بـدلًا مـن ذلـك. قـد يكـون ليريـك مبعوثـون مـن المسـتقبل مـن عـصر مـا بعـد الإثنيـات، ومـا الـذي يمكـن أن يكـون أفضـل مـن ذلـك؟ فهمـت شـانيل الأمـر عـلى نحـو صحيـح، ونحـن عـلى مـتن الطائـرة القادمـة إلى هنـا: "لا تنظـر إلى الـوراء، هـذا ليـس أسـلوب الحيـاة المتبـع في أسـتراليا". وهـذه هـي مشـكلة السـكان الأصليـين، فهـم بمنزلـة تذكـير حـي بالمـاضي. ومـن عسـاه يشـعر بالارتيـاح في مواجهـة الأخطـاء القديمـة؟ وهـذا هـو سـبب حظـر الصـور التـي تظهـر التدهـور البيئـي. لـو كنـت أعـرف أيًّـا مـن السـكان الأصليـين، فسـوف أقـول لهـم: "مـن فضلكـم، توقفـوا عـن تذكـير الجميـع بأنكـم تنتمـون إلى أقـدم حضـارة عـلى وجـه الأرض. ألا تـرون كيـف يعـد هـذا عيبًـا؟ فأنتـم مجـرد مـاضٍ". إن بيـت القصيـد مـن أسـتراليا هـو الرهـان عـلى المسـتقبل، أمـا بالنسـبة إلى ليريـك، فقـد نجحـوا تمامًـا في فهـم الأمـر.

***

دائمًا ما كانت سياستي هي أن أجعل نفسي لا غنى عني لرئيس قسم التقييم. ومنذ تعيين روس، أعتقد أنه بالإضافة إلى عملي الخاص، فقد صرت أؤدي عشرين في المائة تقريبًا من عمله أيضًا. أظن أنه ينظر إليّ بوصفي شيئًا أشبه بزرٍّ للوظائف الإضافية على لوحة مفاتيح جهاز الكمبيوتر المحمول خاصته، يمكنه النقر عليه، ليجعل العمل يختفي.

انتقل روس إلى ملبورن بعد أن كانت بنايته السكنية واحدة من تلك التي انهارت في ميناء سيدني، لكنه كان أوفر حظًّا من معظم سكان سيدني الذين حاولوا إعادة بناء حياتهم هنا. رغم أن خلفيته في مجال التسويق، لكنَّ صهره، الوزير بالحكومة، انتهز إعادة الهيكلة لتعيينه في القسم. كما كان روس محظوظًا بشكلٍ مضاعفٍ في اختياره لزوجته، لأن بورش هي فتاة من ملبورن. كان هناك منزل بانتظاره في كيو، كما أن قضاء عطلة نهاية الأسبوع في مزرعة عائلتها في شبه جزيرة مورنينجتون كان من أسهل ما يمكن.

لدى بورش وروس ابنة صغيرة، ورغم أن روس لديه أطفال أكبر سنًّا من زيجة سابقة، فإنه وجد الأبوة أكثر صعوبة هذه المرة. أسرَّ لي قائلًا بعد فترة قصيرة من ولادة برادا: "هؤلاء الزوجات الشابات أمرهن مختلف تمامًا، يا صاح، فهن يتوقعن منَّا المشاركة في تربية أطفالنا".

قلت: "لديك دعمي الكامل، من فضلك لا تتردد في الذهاب كلما احتاجت إليك بورش، وسيكون من دواعي سروري تولي أمر أي شيء عاجل".

كانت الساعة الثالثة عصرًا، عندما غمز لي روس ووكزني بإصبعه، قائلًا: "مرحى، يا صاح، إنها تلك المربية من مولدوفيا، لا يمكنها اتباع أبسط التعليمات. في الأسبوع الماضي سمحت لبرادا بالزحف

على أرضية نُظفت بالمكنسة فقط من دون مسحها. هل تذكر الأيام الخوالي؟ كانت الفتيات الألمانيات والفتيات السويديات يصطففن للحصول على تأشيرات العمل، والآن، حتى الألبان لم يعودوا يرغبون في المجيء إلى هنا".

كان ليريك قد أمضوا بضعة أسابيع في القسم، عندما أرسلوا إليَّ رسالة بريد إلكتروني يطلبون عقد اجتماع. وصلوا إلى غرفة الاجتماعات أولًا، واضطررتُ إلى الجلوس في مواجهة النافذة، وضوء الشمس يمتد عبر الطاولة وحتى عيني. قال ليريك من دون مقدمات: "لقد قمت بتسجيل الدخول إلى كمبيوتر روس الليلة الماضية، لماذا؟".

كانت تلك وقاحة، إذ لم يكن لهم الحق في استجوابي، لكنني اضطررت إلى ممارسة ضبط النفس كثيراً منذ مجيئي إلى هذا البلد، وأصبح الأمر تلقائيًّا الآن. أوضحت أن روس طلب مني أن أتحقق له من أحد التقارير، وكان "التحقق من أحد التقارير لروس" يعني كتابته نيابة عنه، وكنَّا أنا وليريك نعلم ذلك.

"لماذا احتجت إلى تسجيل الدخول على جهاز الكمبيوتر خاصته؟ فمن المؤكد أن روس أرسل إليك أي ملفات كنت في حاجة إلى العمل عليها".

"بالطبع، لكن لا يمكننا دائمًا أن نعرف مقدمًا كل الوثائق التي سأحتاج إلى مراجعتها، وفي الليلة الماضية كنت في حاجة إلى معلومات غير موجودة في الملفات التي بحوزتي".

انعقد الحاجبان الرائعان على نحوٍ يكاد يبدو مثيراً، وقال ليريك: "لا يجب أن يعطي روس كلمة المرور الخاصة به لأحدٍ، فهذا يخالف القواعد بالنسبة إلى مستواه الإداري، فلديه حق الوصول إلى معلومات محظورة".

أجبت قائلًا: "أشعر بالفخر لأنني أحظى بثقة روس، وأعتقد أن هذا ينبع من سنوات عملي العديدة هنا، لكن ربما يجب مناقشة هذا الأمر معه".

"اليوم هو يومه المرن في العمل"، وكان هذا أيضًا شيئًا يعرفه كلانا. رحل روس في وقتٍ مبكرٍ من بعد ظهر اليوم السابق، متوجهًا إلى المزرعة لقضاء عطلة نهاية أسبوع ممتدة. واصل ليريك الحديث: "سأتناول الأمر معه بمجرد عودته".

فكرتُ: "حظًّا موفقًا في ذلك الأمر"، لكنني قلت بصوتٍ مرتفعٍ: "هذا حقًّا من الحكمة"، وحنيتُ رأسي لإظهار التواضع، فحدق إليَّ ليريك، بعينيهم الشبيهة بعيني طائر، وبدا كما لو أنهم يتأملونني من مسافة بعيدة.

في صباح الثلاثاء، عندما كان من المفترض أن يعود روس إلى العمل، اتصل بي وسألني عما إذا كان من الممكن أن أتفقد عرض باور بوينت من المقرر أن يقدمه بعد ظهر ذلك اليوم، إذ تعيَّن عليه الآن اصطحاب برادا إلى درس السباحة، فماذا لو واجهت صعوبات في المسبح؟ ولم تكن المربية المولدوفية تعرف حتى كيفية سباحة الكلب.

ذكرت أمر كلمة المرور خاصته (وهي Babygirl16)، فقال روس: "نعم، رأيت تلك الرسالة، يبدو أن هذا يمثِّل هوسًا بالنسبة إلى ليريك. قالت لي بورش إن ذلك النوع يعاني العقد، إذ يرتاد أحدهم تلك الحانة التي كانت تفضِّلها". صرخ طفل في الخلفية، فواصل قائلًا: "عليَّ أن أهرع يا صاح، لكن لا تقلق، سأتحدث مع ليريك".

في المرة التالية التي استخدمت فيها كلمة مرور روس، لم يصدر عن ليريك أي رد فعلٍ. فما الذي يمكنهم أن يفعلوه؟ يمكنهم إبلاغ قسم الأمن بالموضوع، وماذا بعد ذلك؟ كان رئيس قسم الأمن يرفع تقاريره إلى صهر روس، ومنذ وقتٍ ليس ببعيدٍ، تنافس ليريك مع

جميع الآخرين من المتفوقين الذين يحملون مؤهلات زائدة عن المطلوب، للفوز بالعمل بدوامٍ جزئي في مستودعات المتاجر الكبرى. ومن غير المحتمل أنهم يريدون أن يجدوا أنفسهم هناك مرة أخرى.

***

عقب إقرار تعديل القانون منذ عدة سنوات، شاهدت نشرة الأخبار مساء ذلك اليوم. وقعت احتجاجات أخرى خارج البرلمان، شارك فيها بعض العاملين في مجال الصحة، والاشتراكيون المعتادون، ومجموعة صغيرة من المسيحيين الذين رفعوا لافتات تعِد بالانتقام الإلهي الرهيب. تحدث وزير الصحة من موقعه على سلم البرلمان، وأكد لنا أن الضمانات لا تزال قائمة، وأن كل ما فعله التعديل ببساطة هو تسهيل حياة وموت كل شخص، من خلال التخلص من اللوائح البيروقراطية الزائدة عن الحاجة، التي كانت تثقل كاهل القانون الأصلي الذي أقرَّه البرلمان. كرر الوزير قائلًا: "الكرامة، وحرية الاختيار، والسرعة". ثم واصل الحديث وتحدث عن الضرر المستمر للاقتصاد الذي سبَّبته أمواج تسونامي الرمادية، وضرورة تحرير سوق الإسكان. وأشار إلى تكلفة المرافق السكنية، وشدَّد على الراحة التي تلوح في الأفق للأسر العاملة العادية التي تنوء تحت عبء رعاية المسنين. تعالت هتافات الاستحسان من الناشطين المُعتَمَدين لجماعة بشر ضد الكهول، وضربوا الأرض بأحذيتهم.

بعد ذلك، أُجريت مقابلة مع والد الوزير، الذي يعاني من التليُّف الرئوي، وبدا سعيدًا بالتشريع الجديد، قال: "سآخذ بالتعديل الجديد بأسرع ما يمكن، ولو كان أولئك العاملون في المجال الطبي الواقفون أمام البرلمان يهتمون حقًّا برفاهنا، فسيدعمون عزم هذه الحكومة على وضع حدٍّ لمعاناتنا وآلامنا بسرعة ومن دون ألم".

كانت هذه هي المرة الأولى التي سمعت فيها التعبير القائل "يأخذ بالتعديل"، ولم أعِر الأمر انتباهًا حينها، لأنني كنت مشغولًا بمسألة عاجلة تتعلَّق ببرام. اعتاد الذهاب إلى نفس درس اليوجا الذي تحضره شانيل، وكثيرًا ما تناولا الإفطار معًا بعد ذلك، وفي آخر مرة، اعترف بأنه واقع في مأزقٍ رهيبٍ. حكت لي شانيل عن محادثتهما بالتفصيل، عندما أخبرتني عن الأمر ونحن في الفراش تلك الليلة.

في أثناء تناولهما الميوزلي وعصير الكرنب، أخبرها برام أن محاسبه، جاريد، قد اعتُقِل، وذكَّرها بأن جاريد لفت انتباهه ذات مرة إلى فرصة مثيرة: فرصة للاستثمار في دار للجنازات. اعتزم أحد عملاء جاريد تولي إدارة الشركة، وكان يؤلف اتحادًا. قال جاريد لبرام إن العمل في مجال الجنازات صار مزدهرًا، وفوق ذلك كان لدى عميله إستراتيجية نمو مضمونة للمشروع الجديد. كان ينتوي تقديم خدمات منخفضة التكاليف، وأن يعرض على من فقدوا أحباءهم أسعارًا رائعة، وعروضًا خاصة مذهلة مقابل الدفع نقدًا، قال برام: "كان العائد المتوقع عشرين في المائة".

قالت شانيل: "أذكر هذا، وقد سألتك كيف يقدم عشرين في المائة، في حين أن النسبة المعتادة تتراوح ما بين أربعة إلى خمسة في المائة؟".

"كان ذلك رائعًا للغاية، وقد ساهم حقًّا في إنقاذي".

(أراهن أن برام مرَّر يده خلال شعره حينها، لكن شانيل تتمتع بحصانة ضد شعره المموج، وكانت سترفع حاجبها الذي لا يتماشى مع الموضة، وتنتظر كي يواصل الحديث).

كرَّر برام قائلًا إنه لم يستثمر في دار الجنازات، وقالت لي شانيل: "ليس لأنني نصحته بعدم القيام بذلك، لكن لأن الموضوع أُثير مباشرة عقب فشل ذلك المنتجع البيئي الفاخر الذي كان برام يمتلك أسهمًا فيه، أتذكر ذلك؟ كنت قد حذرته من المشاركة في ذلك أيضًا، لكنه

قال إن المنتجع يقع في غابة مطيرة قديمة لم تمسها النار من قبل قط. كانت واحدة من إستراتيجيات جاريد الاستثمارية الباهظة التكلفة. على أي حال، أبعدت تلك الكارثة برام عن المشاركة في ذلك الأمر المتعلق بدار الجنازات".

والآن، تزعم الشرطة أن الغرض الحقيقي من دار الجنازات هو غسيل الأموال. كان رجل الأعمال الذي يقف وراء المشروع شخصية من عالم الجريمة، يُشتبه في عمله في تهريب الألماس. صدرت مذكرة ضبط باسمه، لكنه اختفى، وصار جاريد رهن الاحتجاز، مع جميع المساهمين في الدار، وعلم برام كل شيء من شقيقة جاريد، التي كانت واحدة من مرضاه.

تكمن المشكلة في أنه في أيام ذروة النجاح، عندما كان المنتجع البيئي يحقق أرباحًا، لم يبلغ جاريد عن حقيقة دخل برام بالكامل. أقسم برام إنه لم يطلب من جاريد فعل أي شيء من هذا القبيل. قال لشانيل: "أنت تعرفين كيف تسير الأمور، توقِّعين النموذج الذي يقول إن كل شيء في إقرارك الضريبي صحيح، وإنك تحققت من كل شيء بنفسك، لكن من يفعل ذلك بالفعل؟ لهذا نستعين بخدمات المحاسبين، ودعيني أخبرك، بأن خدمات جاريد لم تكن رخيصة الثمن".

قالت لي شانيل: "كان برام يعرف جيدًا ما يفعله جاريد، لكن كما تعلم، إنها الضرائب، ومن منَّا لا يحب تحدي السلطات؟ سألني برام: "كم يبلغ عدد البلايين من الدولارات الضريبية التي ساعدتِ المؤسسة على عدم دفعها هذا العام؟"، ولم يكن لديَّ ما أقوله للرد على ذلك".

عند ذكر التهرب الضريبي، نهضتُ من الفراش، والرهبة ترتج في بطني كحساء خفيف بارد. ستراجع الشرطة الأسماء المدرجة في قائمة عملاء جاريد، للبحث عن المزيد من الأدلة على أي نشاط إجرامي،

وسيتتبعون كل بصمة رقمية ويفحصون كل وثيقة رسمية. قلت لشانيل: "لديهم برامج خاصة، وإذا أدخلوا إقرارًا ضريبيًا في واحد منها، ستظهر أي تناقضات".

يخشى كل وافد جديد إلى هذا البلد أن يُعاد قسريًا إلى وطنه الأم، وحتى أولئك الذين وُلدوا هنا لا يتم إعفاؤهم إذا لم يكن آباؤهم أو أجدادهم قد وُلدوا هنا أيضًا، إذ يكفي وجود جد مهاجر واحد من بين كل أربعة. وهو شرط دائمًا ما يذكّرني بحصان السباق الذي كان برام يمتلك نصيبًا فيه، والذي كسر ساقًا واحدة فقط من سيقانه الأربعة، فصار لا مفرَّ من قتله. كان اسم الحصان "كاتاكومب"، لكن شانيل اعتادت أن تطلق عليه "كاتاتونيك"، أي مشلول، لأنه دائمًا ما كان يأتي في آخر ثلاثة مراكز. لم تجلب سيقان ذلك الحيوان له شيئًا سوى سوء الحظ.

قالت شانيل: "لسنا من أفراد العائلة المباشرين، وعلى أي حال قد لا يُعاد برام إلى وطنه، فهو يعرف الكثير من الأشخاص ذوي النفوذ، ويحظى بتقديرٍ كبيرٍ في مجاله".

"وماذا عن لاعب كرة القدم الذي تعرض والده لمشكلات؟ إذا تمكنوا من إعادة بطل رياضي إلى وطنه الأم...".

"برام ليس مسلمًا، ولم يكن كذلك قط. ستعد تلك نقطة في صالحه. وقد يخرج من الأمر بغرامة فقط".

"حتى الآن، فإن المهاجرين الوحيدين الذين نالوا غرامة فقط هم من البيض".

لاحظتُ بين الصور الموضوعة على الخزانة ذات الأدراج صورة لي في شبابي، وفكرت كم هذا غريب، ألم نتخلص من كل تلك الصور عند رحيلنا؟ ثم أدركت أنها صورة فوتوغرافية لسيدني. إن سيدني طويل ونحيل كالعمود، ويشبه والد شانيل، ولا يبدو مثلي على الإطلاق.

قالـت شـانيل: "نحـن محظوظـون للغايـة لأنـك تسـتطيع أن تعتنـي بالأمـر".

توقعـت ذلـك كـما أتوقـع أزمـة قلبيـة، فرفضـت. رفضـت في الحـال، وواصلـت الرفـض.

قالـت شـانيل: "لقـد أخـبرت بـرام بالفعـل أنـه يمكنـه الاعتـماد علينـا، إنـه مـن أفـراد العائلـة".

"ليس من الأقارب المباشرين، وقد ذكرت هذا بنفسك".

"لكنـه لا يـزال مـع هـذا فـردًا مـن العائلـة. فكـر في كل مـا فعلـه مـن أجـل آيفـي، لقـد أخبرتـه أننـا سنسـاعده".

"تقصدين أنكِ أخبرته أنني سأساعده".

"نعم".

"لا".

قالـت شـانيل: "حتـى لـو نـال غرامـة فقـط، فأنـت تعلـم مـا سـيحدث، سـتوضع في سـجل بـرام، وسـتوضع علامـة بجانـب اسـمه، واسـمنا أيضًـا، لأننـا ضمنًـا طلبـه حينـما تقـدم للهجـرة. فكـر في الولديـن".

اسـتلقيت عـلى جنبـي، وحدقـت إلى خزانـة الملابـس. اصطفَّـت بـذلاتي وقمصـاني خلـف الأبـواب ذات المرايـا. عنـد الذهـاب إلى المكتـب، دائمًـا مـا أختـار الألـوان الطبيعيـة التـي لا تلفـت الانتبـاه: ألـوان الطـين، والغيـوم، والسـماء التـي يشـوبها الدخـان. عندمـا كانـت ميـل مراهقـة، نظـرت إليَّ ذات صبـاح وقالـت: "إذا وقفـت بجـوار خزانـة ملفـات، سـتصبح غـير مـرئي". بالضبـط! والآن، هـا هـي شـانيل -شـانيل- تتوقـع منـي تعريـض كل شيء للخطـر، بمـا في ذلـك الهويـة الخفيـة التـي جاهـدت لبنائهـا. شـعرت بغصـة في حلقـي. بـذلاتي العزيـزة! كان وضعهـا، وهـي معلَّقـة هنـاك، خاويـة وسـط الظـلام، يدعـو إلى الرثـاء. أردت أن أربـت عـلى أكمامهـا،

وأؤكد لها أنها محبوبة، وفي أمان. بدا أن شانيل تتحدث، هل سمعتها تقول "نطلب تسديد الدين يومًا ما"؟ لست متأكدًا من ذلك. ربما قالت شيئًا، أو لا شيء على الإطلاق. لكن آمل أن أكون قد أوضحت أن شانيل استثنائية، ومن المحتمل أنها حتى في تلك اللحظة، كانت تفكر في المستقبل.

***

أول ما فعلته في اليوم التالي هو أنني نزَّلت تطبيق لعبة "اضرب مُلًّا". يدَّعي المتحدثون الرسميون باسم الحكومة أن اللعبة ما هي إلا وسيلة تسلية لا ضرر منها، ويصرون على أن التطبيق غير خاضعٍ للتتبُّع، لكنني حرصت على اللعب عدة مرات يوميًّا خلال فترات الانتظار، إذ قد يشكِّل هذا نقطة صغيرة في صالحي إذا ضُبطت متلبسًا بمساعدة برام.

في الفترة التي تلت ذلك، صرت أستيقظ كل ليلة في الثالثة. وقبل استيقاظي مباشرة، يظهر أحد معارفي القدامى من المدرسة، ويطاردني بطول مساحة ضيقة لا نهاية لها: زقاق؟ ممر؟ خندق؟ ويصيح قائلًا: "أراك لاحقًا! أراك لاحقًا!". عقب استيقاظي، كنت أتسلل إلى الطابق السفلي، من دون الاهتمام بإضاءة نور السلم. عند التفكير في الأمر الآن، أتساءل عما إذا كنت أرغب لا شعوريًّا في السقوط وإيذاء نفسي، حتى لا يتوقع مني أحد شيئًا. في المطبخ، كنت أعد القهوة، ثم أستقر في غرفة المعيشة لتهدئة نفسي من خلال مشاهدة قناة ريتروفليكس. استغرقني فيلم وثائقي عن حركة راجنيش. قرب النهاية، فرَّ زعيمهم أوشو على متن طائرة من مجمعهم في أوريجون. وكان عرش أوشو من بين المتعلقات التي نُقلت على متن الطائرة. الغريب في الأمر هو

أن العـرش بـدا كأنـه كـرسي رثٌّ لـه ذراعـان، مغطًّـى بقـماشٍ خشـن. هـل أُخفيـت الأمـوال أو الأحجـار الكريـمـة بـين ثنايـا القـماش؟

ربمـا أتذكـر شـكل العـرش عـلى نحـوٍ غـير صحيـحٍ. في تلـك الليلـة، كنـت قـد وصلـت لتـوِّي إلى منعطـف الـدرج، عندمـا خرجـت آيفـي مـن غرفتهـا عنـد طـرف الردهـة. لم تـرَني، لكنهـا مضـت في طريقهـا متعـثرة، ويداهـا ممدودتـان كـما لـو أنهـا تبحـث عـن شيء مـا. لا بـد أنهـا اسـتيقظت وهـي في حاجـة إلى الحـمام، وكانـت مشـوَّشـة مـن أثـر النـوم، فتوجَّهـت نحـو البـاب الأمامـي بـدلًا مـن ذلـك. انفـك شـعرها، وسـقط حـول كتفيهـا في خصـلات بيضـاء رقيقـة. الشـعر المفكـوك، ورداء النـوم الصيفـي القصـير، وخطـوات آيفـي المـترددة المتعـثرة، كلهـا جعلتنـي أفكـر في طفلـة. وبـدت الطفلـة في حاجـة إلى الحمايـة، لكـن عنـد تأمُّـل هـذه الفكـرة لاحقًـا في أثنـاء مشـاهدة أوشـو وهـو يسـتقل طائرتـه الخاصـة، رأيـت أنهـا مثـيرة للضحـك.

في ذلـك الوقـت، كان سـيدني يـدرس علـم الأحيـاء البحريـة في جامعـة ملبـورن. عـاش في منـزل مشـترك، وبـدأ يرسـل إلينـا صـورة كل يـومٍ. أذكـر صـورة تظهـر رقعـة النفايـات الكـبرى في المحيـط الهـادئ، وأخـرى عـن إزالـة الغابـات في الأمـازون. شـعرنا بالامتنـان أنـا وشـانيل، لأن سـيدني التـزم بالحظـر المفـروض عـلى نـشر أو مشـاركة الصـور الأسـترالية مـن هـذا النـوع، واكتفـى بإرسـال صـور لأجـزاء أخـرى مـن العـالم. وعندمـا سـألناه عـن سـبب إرسـالها إلينـا، أجـاب أنـه يأمـل في توضيـح الـشرور المترتبـة على غيـاب أي سياسـات للحكومـة الأسـترالية للتعامـل مـع التغـيُّر المناخـي. بـدا كأنـه يعتقـد أن حكومتنـا كانـت وراء تجويـع الدببـة القطبيـة، والتلـوث الصناعـي في الصـين! أمـا بالنسـبة إلى مـا أسـماه "المسـؤولية الشـخصية"، فقـد ذكَّرنـاه بأننـا نمـلأ سـلة إعـادة التدويـر كل أسـبوعين، ونأخـذ المـواد البلاسـتيكية اللدنـة التـي تنتجهـا شركـة "كولـزوورث" إلى السـوبر ماركـت لتحويلهـا إلى مـواد جديـدة.

نحن فخورون للغاية بسيدني، فها هو وقد بقي له عام واحد فقط حتى ينتهي من رسالة الدكتوراه التي تدور حول أسماك شيطان البحر، لكننا نخشى ما قد يحدث بسبب هوسه الشديد بالبيئة. تمنينا أن يدرس الطب، ونلقي باللوم على تحيُّزات آيفي التي أبعدته عن ذلك الطريق. كما كانت هناك أيضًا أفلام ديفيد أتنبورو الوثائقية التي اعتادا على مشاهدتها معًا عندما كان سيدني طفلًا. لم نبدِ أي اعتراض في البداية، معتقدين أنها أفلام تعليمية. ثم بدأت الكوابيس تراود سيدني، وليلة بعد ليلة بدأ يصرخ تحت لحافه المنقوش برسوم سبايدرمان، لأن العديد من الحيوانات قد اختفت أو صار محكومًا عليها بالفناء.

كان الخطأ الآخر الذي ارتكبناه ذات مرة هو أننا ذهبنا بعيدًا في ذكرى زواجنا، وتركنا آيفي مسؤولة عن الطفلين. غبنا ثلاث ليالٍ، وعدنا لنجد رجلًا ريفيًّا وعنزته في فنائنا. الرجل الملتحي، والحيوان ذو العينين الشبيهتين بجوهرتين، والمرأة العجوز، والطفلان اللذان يتواثبان في الأرجاء: بدا المشهد كأنه من قصة خيالية، وأعني بهذا أنه كان غريبًا ومثيرًا للخوف. عندما رآنا آلان، شرع في النباح والقفز خلف بوابة الفناء. رفعت آيفي صوتها فوق الضجيج، وأوضحت لنا أن الرجل فَقَدَ أسرته في حريقٍ للغابات، كما فَقَدَ عمله عندما نفد الماء من بلدته، فدفعت له المال مقابل تعليم الطفلين كيفية حلب الماعز. ناولني نشرة دعائية مغلَّفة بالبلاستيك، ملوَّثة بالبصمات، تدَّعي أن التجربة "تشجِّع الطفل على التعاطف مع البيئة". كما كانت هناك أيضًا دعاية حول فوائد منتجات ألبان الماعز. رفع سيدني علبة آيس كريم من ماركة ستريتس، قديمة للغاية، إلى درجة أن البلاستيك الأحمر ظهرت به بقعٌ ضبابية بيضاء، وقد رأيتها آخر مرة وهي مليئة بالماء القذر المتبقي من غسيل النوافذ، لكنها صارت تحوي الآن الحليب الملوث بارتفاع بوصة. كانت العنزة ترتدي منديلًا رثًّا على

رأسها، وقد أكلت زهور الجازانيا خاصتنا حتى مستوى سطح التربة، وتناثرت في الفناء حبيبات تشبه كرات قدم صغيرة. تفوَّهت شانيل ببضع كلمات، وتحدثت بابتسامة وبهدوءٍ، فرحل الريفي عن منزلنا من دون إثارة ضجة، لكنه ظلَّ يقود عنزته في أرجاء الحي لعدة شهور، وطوال تلك الفترة، اضطررتُ إلى التوجه إلى كل مكان بالسيارة، لأنني خشيت أن يناديني ذلك الريفي لو صادفني في الطريق. وحتى يومنا هذا، تذكرني به البرك البنية الطويلة التي تتشكَّل بعد المطر، وليس لديَّ أي فكرة عن السبب.

***

مع صور سيدني الفظيعة التي بلا معنى، والحرمان من النوم، والتفكير فيما ينتظرنا، كان وقتًا عصيبًا، وكدت أشعر بالارتياح عندما آن أوان التصرف. ذات يومٍ، في الساعة الثانية بعد الظهر، وقف روس عند مكتبي حاملًا مفاتيحه في يده. كان يرتدي قميصًا أرجوانيًّا ويحمل على ذراعه سترة من الكتان. هذه ملبورن، وقد بلغت الحرارة في الخارج ثلاث درجات. نظَّف أذنه بالمفتاح، وطلب مني "مراجعة ذلك الشيء الذي وصلنا من الشرطة الفيدرالية، وتوزيع المهام اللازمة"، إذ لم يعُد يكترث باختلاق أعذارٍ لمغادرة العمل. حتى قابلت روس، لم يسبق وأن رأيت وجهًا مثل وجهه على رجلٍ بالغٍ. تخفي النظارات الشمسية أفكاره، وعند خلع النظارة، تلتقي عيناه بعينيك صراحة، وتسألك: "من؟ أنا؟ أنا لم أقترف أي خطأ، يا صاح". يؤكد ذلك الوجه قناعتي بأن الأستراليين لم يقترفوا أي أفعال سابقة في حياتهم.

قبل انضمام روس إلينا، كان رئيس القسم دائمًا هو من يجري التقييم الأولي للقضايا الواردة، لكن روس لم يكلف نفسه عناء إجراء التقييم الأولي للقضايا الواردة منذ سنواتٍ، وانتقلت تلك المسؤولية

إليَّ. كان ما أرسله إليَّ بعد ظهر ذلك اليوم هو قائمة عملاء جاريد. توقعت أن أشعر بالخوف، وقلت لنفسي إنه عندما تحين اللحظة، سيكون من الضروري تجنُّب الأخطاء الناتجة عن التوتر، لكن عندما فتحت ملف روس ورأيت محتوياته، لم أشعر إلا بالارتياح. كان أمامي هنا، وعرفت ما يجب أن أفعله بالضبط، وبدا الخطر ضئيلًا.

وردت عدة مئات من الأسماء في القائمة: أفراد، وشركات، ومنظمات. وقد وضعت الشرطة الفيدرالية رمزًا باللون الأحمر على عشرة في المائة تقريبًا من عملاء جاريد، وجميعهم من الأفراد. كان تقييم تلك القضايا على رأس أولوياتنا. اكتشفنا أن بعض الأشخاص حصلوا على رمز أحمر لأنهم كانوا مسلمين سابقين، وقد ظهروا في كل قائمة تلقيناها، بينما قد يكون للآخرين روابط عائلية مع ناشطٍ من دون ترخيصٍ، أما الباقون فمن المحتمل أن يكونوا قد تهوَّروا في نشر شيء على مواقع التواصل الاجتماعي، أو وقَّعوا التماسات معينة، أو تم تصويرهم في احتجاجات معينة، أو قدموا تبرعات لمنظمات معينة، أو أثاروا القلق بطريقة أو بأخرى. وبجانب كل اسم أحمر في قائمة جاريد، ظهر أيضًا رمزٌ رقمي واحد على الأقل، وليس من المستغرب أن يسود رقم محدد، وهو ذلك الذي يرمز إلى التهرب الضريبي.

وُضِع على معظم الأسماء بالقائمة رمزٌ باللون الأصفر، وكانت هذه أسماء العملاء المشتبه في قيامهم بنشاطٍ غير قانوني، لكنه لا يمثِّل خطرًا وطنيًّا. مرة أخرى، ساد الرمز الذي يشير إلى التهرب الضريبي في كل مكان، أخيراً، وُضع على بعض الأسماء -سبعة وعشرين اسمًا في المجمل- رمزٌ باللون الأبيض. رفض هؤلاء العملاء المثيرون للدهشة خدمات جاريد المشبوهة أو تهربوا منها، ولم يجد تحقيق الشرطة أي سبب للاشتباه فيهم في أي شيء آخر.

وُضع على اسم برام رمز باللون الأصفر، كما حمل بجانبه رقمين. خشيت أن تكون الشرطة قد اكتشفت شيئًا آخر ضد برام: قضية إهمال طبي تم التكتم عليها، أو منشورًا على وسائل التواصل الاجتماعي حول نقص تمويل الرعاية الصحية. لكن تهور برام يقتصر على الأمور المالية فحسب، وكانت الأرقام المخصصة له تدل على التهرب الضريبي، وعلى كونه مهاجرًا.

بمجرد الانتهاء تمامًا من تقييم القضايا التي لها أولوية، ينتهي الأمر بإعادة تخصيص رمز بالأصفر أو الأبيض لبعضها. ويقوم روس بذلك، بعد اتباع التوصيات التي قدَّمها موظفُّوه، ثم يرسل جميع الأسماء التي لا تزال تحمل رمزًا أحمر إلى الأمن. وبمجرد تقييم جميع القضايا التي تحمل رمزًا أصفر، تُرسل هي أيضًا إلى السلطات المناسبة، وبالنسبة إلى معظم عملاء جاريد، سيكون هذا هو مكتب الضرائب. كان ما يتعين عليَّ فعله بسيطًا حقًّا. أدخلت كلمة مرور روس، مما مكَّنني من تعديل جدول البيانات، وغيَّرت رمز برام من الأصفر إلى الأبيض. بعد ذلك، حذفت رقم التهرب الضريبي الخاص به، ولم يتبقَّ سوى الرقم الذي يحدد وضعه كمهاجرٍ، وهو ما يدل عليه اسمه على أي حالٍ.

عندما أخبرت شانيل بما أخطط للقيام به، سألتني: "لماذا لا تزيل اسم برام من القائمة فحسب، عندما تحصل عليها؟". فأوضحت لها أن ليريك يحتفظون بنسخة من كل مستندٍ يأتي إلى قسمنا، إلى جانب نسخة من كل مستندٍ صادرٍ من القسم. لم يكن هناك سبب يدفعهم إلى مقارنة عدد القضايا الواردة في القائمة المُعاد تقييمها، بعدد القضايا الموجود في القائمة التي تلقيناها، لكنني لن أجازف على الإطلاق في ذلك الأمر، لذا اكتفيت باختيار رمز أبيض بريء لبرام.

أول مـا فعلتـه هـو تغيـير لـون الرمـز، وكان الأمـر سـهلًا. بعـد ذلـك، شرعـت في تقسـيم جميـع القضايـا للتقييـم، وهـي مهمـة حساسـة، فـإلى جانــب تخفيــض عــدد الموظفــين، سرت بعــض الهمســات المتذمــرة مــن الإرهـاق بسـبب كـثرة العمـل. لذلـك أجريـت تقييـمًا سريعًـا لـكل قضيـة، لتحديـد المـدة التـي قـد تسـتغرقها. وإنـه لمـن دواعـي اعتـزازي الاهتـمام بتوزيـع العمـل بشـكلٍ عـادلٍ قـدر الإمـكان، مـع الاحتفـاظ لنفسـي بأكـثر القضايـا تعقيـدًا، وقـد لوحـظ هـذا، وأعـرب العديـد مـن زمـلائي عـن تقديرهـم. وقـال زميـل أو اثنـان أشـياء مـن قبيـل: "مـن المثـير للحنـق أن يتـم تجـاوزك في الترقيـة لصالـح روس". لكـن هـؤلاء مـن الأشـخاص الذيـن يتصفـون بالطمـوح الشـديد، ولـن يطـول بهـم الوقـت هنـا.

بـدأ قسـم التقييـم يخلـو بينما واصلـتُ أنا العمـل، وانحسرت مسـاحات كاملـة مـن طابقنـا عقـب إطفـاء الأنـوار. تفقـدتُ الوقـت، فوجدتـه تجـاوز السـابعة. ثـم شـممتُ الرائحـة: احـترس، احـترس. لا أشـعر بالارتيـاح عنـد اقـتراب ليريـك إلى هـذا الحـد. يبـدو الأمـر شـبيهًا بالمتسـوقين الذيـن كانـوا يزيحوننــي جانبًـا ويندفعـون لأخـذ آخـر لفافـات مـن ورق التواليـت في أثنـاء الوبـاء، وأريـد القـول: "مـن فضلـك، ابتعـد، وقـف هنـاك".

"هـل تعمـل حتـى وقـت متأخـر مـرة أخـرى؟ مـا الـذي لا يمكنـه الانتظــار الآن؟".

أجبـتُ بنـبرة هادئـة ومتحفظـة، قائـلًا إننـي أعمـل عـلى توزيـع مهـام القضايـا، فسـألوا: "لمـاذا احتجـت إذن لاسـتخدام كلمـة مـرور روس؟".

قلـتُ مبتسـمًا، كـما لـو أننـي أرحـب بالاهتـمام البـادي مـن ليريـك بعمـلي: "كان هـذا عـلى سـبيل الاحتيـاط، فمـن وقـتٍ إلى آخـر، تحـدث بعـض الأخطـاء في تخصيـص الرمـوز. منـذ يـوم مـضى فحسـب، ظهـر اسـم شرق أوسـطي برمـزٍ أبيـض، فأعـدت ترميـزه باللـون الأحمـر".

"ليـس كل مـن يحمـل اسـمًا شرق أوسـطيًا كان مسـلمًا سـابقًا، كـما تعلـم".

"صحيـح، لكننـي قيَّمـتُ الحالـة بنفـسي، واكتشـفت أن سـلطة التحقيق قـد ارتكبـت خطـأ". أسـعدني أن ذلـك كان صحيحًـا تمامًـا، إذ إن مـن مبـادئي الالتـزام بالحقيقـة حيثـما أمكـن ذلـك. تابعـتُ الحديـث: "في عملنـا هـذا، لا يمكننـا المبالغـة في توخـي الحـرص، إن الآثـار الأمنيـة بالنسـبة إلى أسـتراليا المترتبـة عـلى خطـأ في الترميـز...".

"إذا كنـت قلقًـا بشـأن الأمـن، فـلا يجـب أن تسـتخدم كلمـة مـرور روس"، وأشـاروا بأصابعهـم في الهـواء لرسـم علامـات تنصيـص، وتابعـوا: ""كإجـراءٍ احـترازي"، لا يحـق لـك اسـتخدامها إلا عنـد الـضرورة".

قلـت: "أنتـم عـلى حـق"، ثـم مسـحت عينـي بكفِّـي وتنهـدت. "شـكرًا جزيـلًا للفـت انتباهـي لهـذا، يجـب أن أتذكـر تقديـم الاعتـذار لـروس. لقـد واظبـت عـلى العمـل لسـاعات طويلـة مؤخـرًا، إلى درجـة أننـي أنـسى الالتـزام بالحـذر مـن وقـتٍ لآخـر".

ولا شـك في أننـي ممـتنٌّ لليريـك بالفعـل. في المـاضي كان قسـم التكنولوجيـا هـو المسـؤول عـن مراقبـة كلـمات المـرور، وهـم يحتفظـون برقـم الأمـن في قائمـة الاتصـال السريـع، وكانـوا سـيبلغون عنـي عـلى الفـور، لكـن قسـم التكنولوجيـا بـات يعمـل فـوق طاقتـه بسـبب كل التهديـدات التـي يتعـرض لهـا أمننـا المعلومـاتي، بحيـث أصبـح كل قسـم مسـؤولًا عـن إدارة كلـمات المـرور الخاصـة بـه الآن.

هـل ذكـرت أن ليريـك أضافـوا إلى مجموعـة ألـوان عينيهـم لـون الأوبـال النـاري؟ إنهـا أحـدث صرعـة، وأينـما تلفَّـت، تجـد الشـباب يحدقـون إليـك بأعـين براقـة متعـددة الألـوان. جرَّبتهـا ميـل، لكنهـا خلصـت إلى أنهـا لا تناسـب لـون بشرتهـا. تـلألأت فوقي نظـرة ليريك باللونـين الـوردي والأزرق،

وأخيرًا، قالوا: "لا تتأخر كثيرًا". مرَّت دقيقة، ثم سمعت المصعد يُفتَح ويُغلَق، وأدركت أن إبطيَّ يتصببان عرقًا.

التمعت عينا برام بالدموع وهو يشكرني، لكزته بإصبعي وغمزت قائلًا: "تذكر كل الرعاية التي أوليتها لآيفي. أنت فرد من العائلة، وأعلم أنك ستفعل نفس الشيء لنا".

***

لم يمض وقتٌ طويلٌ بعد ذلك، حتى أرسل إلينا برام رسالة: "هذه ليست أخبارًا جيدة، يا رفاق. أظهرت عينة براز آيفي وجود آثار للدم، ومع الأخذ في الاعتبار بالأعراض الأخرى التي تعاني منها (فقدان الوزن، وما إلى ذلك)، فلا يمكنني استبعاد احتمال وجود خلايا سرطانية في الأمعاء، وهذا قابل للعلاج بدرجة كبيرة في حال الاكتشاف المبكر، لذا فإن فحص القولون بالمنظار هو الخطوة العاجلة التالية، وأعتقد أننا جميعًا نستطيع تخمين رد فعل آيفي! ما رأيكما لو أتيت مساء غد، وناقشت كل شيء معها؟ سيكون من الرائع أن أحظى بدعمكما".

حدَّثتُ شانيل عن مشاعري في الفراش تلك الليلة. انشغلت شانيل بممارسة تمارين يوجا الوجه، إذ إنها تمارس عدة مهامٍ في نفس الوقت متى تمكَّنت من ذلك. إليكم جدولها الصحي: نصف ساعة من التمارين لتنشيط القلب، وعشر دقائق من رفع الأوزان، واليوجا في الصباح مرة واحدة أسبوعيًّا، والسباحة وقت الغداء مرة واحدة أسبوعيًّا، وتمارين البيلاتيس المسائية مرة أسبوعيًّا، ومساج بالأحجار الساخنة مرة كل أسبوعين، واتباع أسلوب فيلدنكريز مرة شهريًّا، وجلسات التصريف اللمفاوي مرة كل ثلاثة أشهر، وتمرينات البار يوم السبت، وتمرين الملاكمة يوم الأحد، وخمس دقائق من تمارين قاع الحوض، وخمس دقائق من المشي إلى الخلف بطول الردهة. وكل هذا

مـن دون ذكـر مواعيدهـا الشـهرية للعنايـة بالشـعر والأظافـر والتجميـل. في الغالـب نسـيتُ شـيئًا، لكـن شـانيل لديهـا جـدول بيانـات لتتبـع كل شيء.

هـل يبـدو كل هـذا مبالغًـا فيـه؟ أوضحـت شـانيل السـبب في أن هـذه ليسـت مبالغـة: إن الرجـل الـذي يقـدم لزملائـه معلومـات موثقـة يسـتمد كل السـلطة التـي يحتـاج إليهـا مـن أناقـة بذلتـه، لكـن الأمـر مختلـف بالنسـبة إلى المـرأة، مهـما بـدا مظهرهـا قياديًـا. هـل يمكـن لامـرأة بذراعـين مترهلتـين وخـصر سـميك ومؤخـرة أقـل مـن مثاليـة أن تسـيطر عـلى أعضـاء مجلـس إدارة؟ ربمـا، لكـن شـانيل لا تعمـل مـع منظمـة ألمانيـة غـير حكوميـة. لا توجـد سـوى امرأتـين في مناصـب قياديـة في المؤسسـة، كلتاهـما مـن أصحـاب البـشرة البيضـاء، ولهـما شـعر امتـزج في خصلاتـه اللونـان الأشـقر والبنـي، وتتمتعـان بقـوامٍ انسـيابي، كـما أنهـما لا تتنـاولان السـكر وليـس لديهـما أطفـال عـلى الإطـلاق. بـدت هيئتهـما في صلابـة البنـادق. ركـزت شـانيل عـلى هـدف واحـد: منصـب المديـر المـالي. كـما أنهـا تحـرص عـلى ارتـداء الملابـس الداخليـة التـي تعمـل عـلى شـد جسـدها بقـوة، لأن حلمهـا سـينتهي في اليـوم الـذي لا تتمكـن فيـه مـن حـشر جسـدها في ملابـس مقـاس 10.

قبـل سـنوات، خضعـت شـانيل لجراحـة لتصغـير الثـدي. كانـت حينهـا لا تـزال تعمـل في "مؤسسـة الآخـر"، وكان العمـل في طريقـه إلى الانكـماش، لكـن نصائـح شـانيل الصارمـة كانـت عرضـة للتجاهـل. أعلنـت عـن الخسـائر والحاجـة إلى خفـض التكاليـف، في حـين أن ثدييهـا يوحيـان بالرعايـة والامتـلاء، وكانـا يكلفانهـا احـترام المديريـن التنفيذيـين. وقـد حقق اسـتثمار شـانيل في نفسـها أرباحًـا ممتـازة، إذ لم يمـضِ سـوى سـتة أشـهر بعـد عمليـة تصغـير الثديـين، حتـى اتصـل بهـا مديـر التوظيـف بالمؤسسـة.

بينـما كنَّـا نتحـدث عـن رسـالة بـرام، وسَّـعت شـانيل عينيهـا حتـى تمكنـتُ مـن رؤيـة كل مـا حـول قزحيـة العـين، وجعلهـا هـذا تبـدو

متشـككة، لكـن كان عليهـا أن تبقـي عينيهـا هكـذا حتـى تدمـع. قلـت: "لطالما علمـت أنني سـأضطر إلى مواجهـة هـذه الخسـارة يومًـا مـا، لكـن عنـد رحيـل آيفـي، سـأصبح يتيـمًا، وأشـعر أننـي... مكشـوف للغايـة". بـدأت الدمـوع تنهمـر عـلى وجنتـي شـانيل، لكنهـا زمـت شـفتيها وأرسـلت إليَّ قبلـة، وكان ذلـك أيضًـا جـزءًا مـن روتينهـا ليوجـا الوجـه، لكـن حتـى مـع ذلـك، شـعرتُ بالدعـم والارتيـاح.

***

عـدت إلى المنـزل مـن العمـل في وقـتٍ أبكـر مـن المعتـاد في اليـوم التـالي لأجـد أن فانتـا صفَّفـت شـعر آيفـي، ولفَّتـه خلـف رأسـها. بـدأت تـأتي إلى المنـزل، وتلغـي أي مواعيـد مسـبقة عندمـا تتصـل بهـا آيفـي، كـما وضعـت لآيفـي أيضًـا مسـاحيق التجميـل وتولَّـت العنايـة بأظافرهـا، اسـتعدادًا لزيـارة بـرام.

رأيـت آيفـي ذات مـرة تحمـل مجموعـة مـن أوراق اللعـب عـلى شـكل مروحـة، وتدعـو فانتـا إلى اختيـار واحـدة. قالـت آيفـي: "الألماسـات الخمـس، هـذا يعنـي التغيـير للأفضـل"، فتغضَّـن وجـه فانتـا فرحًـا. مـا الـذي يمكـن أن يعنيـه التغيـير إلى الأفضـل بالنسـبة إلى فانتـا؟ إنهـا مسـلمة سـابقة مـن إحـدى تلـك البلـدان تعيسـة الحـظ التـي نراهـا في الأخبـار، وتبـدو كـما لـو أنهـا مكونـة مـن الأوسـاخ، وحتـى ناطحـات السـحاب ليسـت سـوى أنقـاض تنتظـر الانهيـار. لـن تتمكَّـن فانتـا مـن الهـرب مـن وطنهـا أبـدًا، فهـي شـخص التصقـت بيـده حقيبـة سـفر، ولا يعنـي هـذا أنهـا تعـود إلى هنـاك للزيـارة، فـما الـذي يوجـد هنـاك كي تعـود إليـه؟ دار للأيتـام تهـب فيـه الريـح دافعـة أمامهـا القمامـة عـبر الممـرات، وحيـث يـدور المغتصبـون بـين المهاجـع، وتنمـو الأعشـاب الضـارة في السـاحة الخرسـانية المشـققة؟

يبـدو شـعر فانتـا كسـفينة شراعيـة، لكـن كتفيهـا يذكّـران المـرء بالحصـان، وتبـدو كل ملابسـها كملابـس النـوم. وقـد علّمـت نفسـها اللغـة الإنجليزيـة مـن مقاطـع يوتيـوب، فكانـت تقـول: "تبديـن رائعـة للغايـة!"، و"مـا أجمـل أسـتراليا!"، و"إلى اللقـاء، سـعدت جـدًّا بمقابلتـك". وفي يـوم زيـارة بـرام، أحـضرتْ لآيفـي أصيصًـا مـن السـكلامين. تتناثـر هداياهـا في غرفـة آيفـي: شـمعة معطـرة، وشـوكولاتة عـلى شـكل أصـداف، وإنـاء زجاجـي يحتـوي عـلى مسـحوق شـاي أعشـاب مـن موطـن فانتـا، تقسـم إنـه يحمـي مـن كل شيء، ويبـدو مثـل الأوسـاخ.

كانـت بعـض الفـوضى البسـيطة في الأسـواق العالميـة تعنـي أن شـانيل ظلّـت عالقـة في المؤسسـة، عندمـا وصـل بـرام ذلـك المسـاء. تحـب آيفـي اسـتقباله في الردهـة، إذ يسـاعد هـذا عـلى التظاهـر بكونهـا زيـارة اجتماعيـة. وللمـرة الأولى، تبعـتُ بـرام إلى غرفـة آيفـي، ولم تـثِر هـي أي اعـتراض. جلسـت وعمودهـا الفقـري عـلى بُعـد بوصـة مـن ظهـر الأريكـة، إذ كانـت طريقـة جلوسـها شـيئًا آخـر تديـن بـه للراهبـات، وارتـدت أفضـل مـا لديهـا: خاتمهـا المرصـع بالزمـرد، وفسـتانًا لامعًـا بلـون وردي زاهٍ، يصـل طولـه حتـى حذائهـا الطبـي. تتمتـع آيفـي بذهـنٍ صـافٍ، لكنهـا تعتقـد أنهـا لا تـزال في السادسـة والعشريـن مـن العمـر. كانـت المـرة الأخـيرة التـي ارتـدت فيهـا هـذا الفسـتان الـوردي هـي لحضـور حفـل تخـرج ميـل، وعندمـا سـاعدتها عـلى خلـع معطفهـا، رأيـت النـاس يتسـاءلون لمـاذا ترتـدي هـذه العجـوز ملابـس تصلـح للأوبـرا في العـاشرة صباحًـا.

يمكـن الاعتـماد عـلى بـرام مثـل السـيارة التويوتـا. أثنـى عـلى فسـتان آيفـي ولـون أظافرهـا المتـماشي معـه، ثـم أمسـك بيدهـا، وتحـدث معهـا عـما كشـفه الاختبـار، وأخبرهـا بطريقـة مبـاشرة أن منظـار القولـون هـو الخطـوة التاليـة.

"لماذا؟".

"لتحديد ما إذا كان السرطان موجودًا أم لا، تؤخذ عينة للتحليل...".

قالت آيفي: "لا أريد أن أعرف".

"أحتاج إلى معرفة الوضع، كي أتمكَّن من تحديد العلاج. يظهر سرطان الأمعاء في عدة أشكال، لكنه قابل للعلاج بدرجة كبيرة إذا اكتُشف مبكرًا".

"أي نوع من العلاج؟".

"هذا يعتمد على ما يظهره منظار القولون، سيتم استئصال الورم جراحيًّا، وستكون هناك متابعة...".

"لن أوافق على الخضوع للجراحة مرة أخرى أبدًا".

استمر الحديث دائرًا بينهما، وكان برام يرتدي إحدى القطع التي غزلتها آيفي بالصوف، وهي سترة خضراء بلون العشب الصناعي، لها ياقة وأزرار جلدية. أعتقد أنه يحتفظ بها في سيارته، ولا يرتديها إلا عندما يأتي إلى هنا. كما أمتلك أنا أيضًا نفس السترة بلون أحمر زاهٍ، وأرتديها في أثناء أداء مهام متفرقة في أرجاء المنزل، بينما تظل باقي الوقت معلَّقة في المرآب، حيث يتجمع العث في الربيع.

أمسكت آيفي منديلًا أبيض مطرزًا بالورود البيضاء، وبينما أخذ برام يحدثها، لمست به زاوية فمها. آلمني الأمر أكثر من أي شيء آخر: كنت سأفقد آيفي. غلبتني العاطفة، فقاطعت ما كان يقوله برام، وقلت لآيفي: "نحن جميعًا هنا من أجلك كعائلة، وهذا يشمل برام، كلنا نريد لك الأفضل فحسب".

تجاهلتني آيفي، ووجهت حديثها إلى برام قائلة: "من الأفضل عدم الأخذ بالنصيحة. هذا ما أخبرتني به بطاقة السبعة البستوني اليوم".

في النهاية، قال برام إنه سيأتي للزيارة مرة أخرى في غضون أسبوع. وإذا ظلَّت آيفي متأكدة من أنها لا تريد إجراء منظار القولون، فهناك

خيار آخر، "إن اختبار وجبة الباريوم إجراء غير مؤلم وغير جراحي، كل ما عليك فعله هو ابتلاع سائل مثل مخفوق الحليب المنكّه، ويُفحص بعد ذلك بالأشعة السينية. لن يخبرنا بقدر ما يخبرنا به منظار القولون، ولكن...".

قالت آيفي: "الشيء الوحيد الذي أريد معرفته هو كم تبقى لي من الوقت". أخبرتنا أن زوج شريكتها في لعب البريدج شُخِّص بسرطان الأمعاء عندما كان في السبعين من عمره: "كان ذلك قبل تسعة أعوام، وما زال على قيد الحياة. إن ثوي في الثامنة والستين من العمر فقط، وهي تريد الطلاق، لكن الأولاد ينزعجون عندما تذكر ذلك".

قال برام إنه لا يستطيع أن يقدم لها أي تكهنات من دون اختبارات تشخيصية: "يتضمن الأمر الكثير من العوامل، إذا كان لديك ورم، فنحن في حاجة إلى تحديد حجمه وموقعه ومدى انتشاره. كيف يمكنني تحديد جواب إذا كنت ترفضين مساعدتي؟".

بدت في نبرته لمحة من نفاد الصبر، ولمست آيفي شفتيها بمنديلها مرة أخرى، فتدارك برام نفسه في الحال، وقال وهو يبتسم بلطفٍ: "سأظل عالقًا معك لسنوات، على الأرجح".

عندما نهض للرحيل، قال لآيفي: "أيًّا كان قرارك، تذكَّري أنني سأعتني بك، وسأحرص دومًا على التأكد أنك تشعرين بالراحة، فنحن ماهرون للغاية في هذه الأيام في أشياء مثل إدارة الألم".

مدَّت إليه آيفي يدها حتى يتمكن من تقبيلها، وقالت: "لم أخَف قط من الألم".

***

كما هو متوقع، رفضت آيفي إجراء المزيد من الفحوصات للتحقق من أعراضها. ومنذ ذلك اليوم، بات برام يقصر زياراته على الأشياء الروتينية مثل حقن الإنفلونزا وفحوصات ضغط الدم. أذكِّر نفسي باستمرارٍ أن آيفي مسؤولة عن الوضع الذي تجد نفسها فيه الآن، ولا أحد غيرها يتحمَّل اللوم، فعنادها وحده هو ما جعل من المستحيل على برام استبعاد السرطان.

لماذا إذن أجد نفسي أفكر في أمرٍ سخيفٍ حدث بعد وقت قصير من قدومنا إلى أستراليا؟ أرسل إليَّ صديقٌ قديمٌ من المدرسة رسالة بريد إلكتروني، واتضح أنه هو أيضًا وفد حديثًا، ورتَّبنا للقاء وتناول المشروبات بعد العمل. كان أحد هؤلاء الأشخاص الذين يبدون دائمًا متعرقين بعض الشيء، وملأت وجهه ندبات حب الشباب. لكن أسلوبه في الحديث كان ذكيًا وبسيطًا وجذابًا، وقضينا ساعة ممتعة نتحدث عن الأيام الخوالي، والوقت الحالي. وقبل أن نفترق، ابتسم ابتسامة عريضة ومد يده قائلًا: "تا تا!"، حيث كانت تلك هي الطريقة التي اعتدنا أن نودع بها بعضنا عندما كنا في المدرسة، شعارنا الذي يميزنا عن باقي الأولاد. صافحت يده قائلًا: "أراك لاحقًا"، فانمحت الابتسامة عن وجهه.

لماذا لم أستخدم تعبيرنا الحميمي القديم؟ لأنني لم أسمع أحدًا قط في وطننا الأم يقول "أراك لاحقًا"، وأردت إظهار تمكُّنني من أسلوب الحياة في أستراليا. حسنًا، ربما انطوى الأمر على التفاخر بعض الشيء، لكنني بالتأكيد لم أقصد صدَّه. صحيح أنني لم أسمع منه مرة أخرى، ولم أحاول الاتصال به، لكن هذا لا يعني شيئًا، لأن سُبلنا تفرقت بالفعل بعد المدرسة. مع ذلك، ما إن قلت "أراك لاحقًا"، حتى شعرت بحرارة في عينيَّ. تولَّد لديَّ انطباع أنني ألحقت الضرر بشيء رقيق لا يُقدَّر بثمن. تضاءل هذا الشعور بمرور الوقت، لكنه لم يختفِ تمامًا.

لا يمكـن أن تكـون هنـاك صلـة بـين مـا حـدث في ذلـك اليـوم ومـا سـيحدث غـدًا، لكنـي أشـعر رغـم ذلـك بوجـود علاقـة بينهـما.

***

ذات مـرة، كنـتُ عـلى وشـك مغـادرة غرفـة الاجتماعـات، في نفـس لحظـة دخـول ليريـك. ارتـدوا قميصًـا ضيقًـا يُظهـر ذراعيهـما القويتـين، وفتحـتُ البـاب وتراجعـتُ إلى الخلـف، فقالـوا: "لـديَّ القـدرة عـلى فتـح البـاب، يـا لايـل".

أجبـت قائـلًا: "كنـت أحـاول المسـاعدة فحسـب"، لكـن مـا خـرج مـن فمـي كان: "كنـت أحـاول المعانـدة فحسـب". مـن الصعـب تحديـد أينـا كان أكـثر دهشـة، أنـا أم ليريـك، وتلفَّـت حـولي آمـلًا الإيحـاء بـأن شـخص آخـر قـد تحـدث، فسـألني ليريـك: "هـل أنـت بخـيرٍ؟".

لا، لم أكـن بخـيرٍ، لكـن لم يكـن في وسـعي إخبارهـم عـن ذلـك الغمـوض الـذي يكتنـف بـشرة شـانيل. قالـت إن الأمـر لا يسـبب لهـا أي إزعـاج، لكنـه أخـذ ينتـشر، وظهـرت البقـع في منطقـة أبعـد، أسـفل سـاقها، كـما بـدأت بعـض البقـع الصغـيرة عـلى بطنهـا تنتـشر وتتقـارب مـن بعضهـا. هنـاك مـرض مـن أمـراض المناعـة الذاتية يُدعـى البهـاق، يتسـبب في فقدان التصبـغ، لكـن نتائـج اختبـار شـانيل لذلـك المـرض جـاءت سـلبية. كانـت تسـتخدم كريـم كورتيكوسـتيرويد بـدا عديـم الفائـدة، لكـن تشـينج، طبيب الأمـراض الجلديـة الـذي يتابـع حالتهـا، شـجعها عـلى الاسـتمرار، وأخـبر شـانيل أن العـلاج في مثـل هـذه الحـالات طويـل وصعـب. أي حـالات؟ اعـترف تشـينج أنـه لم يـرَ أي شيء مشـابه مـن قبـل، وشرع يتشـاور مـع زملائـه مـن جميـع أنحـاء العـالم، لكـن حتـى الآن، لم يفـد أحدهـم بـشيء. نصـح تشـينج شـانيل بارتـداء قبعـة والابتعـاد عـن أشـعة الشـمس. إنهـا تدفـع لـه مـا يفـوق الخصـم الـذي يقدمـه لنـا التأمـين الصحـي بنسـبة

ثلاثـين في المائـة، ولا تتلقـى منـه سـوى ذلـك: نصائـح يمكنـك قراءتهـا عـلى أي ملصـق عـام حـول سرطـان الجلـد. إذا لم يحـدث تحسـن، فهنـاك علاجـات أخـرى يمكـن تجربتهـا: الحبـوب، والتعـرض للأشـعة فـوق البنفسـجية، والليـزر، لكـن كل شيء لـه آثـار جانبيـة. أكـد تشـينج لشـانيل أنـه لا يوجـد دليـل عـلى كـون المشـكلة معديـة، لكنـه بـات يقـدم لهـا الاستشـارات عـبر برنامـج زووم.

كإجـراء احـترازي، بـدأت أنـام -أو لا أنـام- في غرفـة سـيدني. وجـدت لحافـه المنقـوش برسـوم سـبايدرمان في خزانـة ملابسـه، مختفيًـا أسـفل بذلاتـه الرياضيـة، لا بـد أنـه أخفـاه لإنقـاذه مـن شـانيل، التـي كانـت تتخلـص مـن أي فـوضى بـلا هـوادة. عندمـا فـردت الغطـاء، انتـشر المـاضي باللونـين الأحمـر والأزرق. رأيـت عـصر يـوم حينـما كان سـيدني صغـيراً، وكنـا نلعـب بالكـرة في الحديقـة، حتـى أخـذت الغيـوم تتجمـع بعـد فـترة. عـلا صفـير الريـح، وبـدأت تـرج بعـض الشـجيرات المتقزمـة. جـذب سـيدني يـدي، قائـلًا إنـه يتعـين علينـا الرحيـل في الحـال. في طريـق العـودة إلى المنـزل، أخـبرني قصـة سـمعها في المدرسـة: خرجـت امـرأة للتنـزه في الغابـة منـذ زمـنٍ طويـلٍ، ووجـدت نفسـها عالقـة وسـط عاصفـة. وعندمـا اقتربـت مـن شـجرة ضخمـة، شـقَّ الـبرق الشـجرة، وكان داخلهـا رجـل يحمـل رمحًا، إلا أن الرجـل كان مؤلفًـا مـن عظـام. ارتفـع صـوت سـيدني وهـو يكـرر: "كان هنـاك رجـلٌ مؤلـفٌ مـن العظـام داخـل الشـجرة"، وبـدا عليـه الشـعور بالخـوف والإثـارة بنفـس القـدر. مـن يـروي مثـل هـذه الحكايـة لطفـلٍ؟ لا أسـتطيع التوقـف عـن التفكـير في الأمـر الآن، وفي الطريقـة التـي يمكـن أن تعـاود بهـا الأشـياء القديمـة المنسـية الظهـور فجـأة. كان سـيدني محقًّـا في شـعوره بالخـوف، فالأمـر مخيـف بالفعـل، يجـب أن يبقـى المـاضي في المـاضي.

لا يمكـن التخلـص مـن فـوضى الذكريـات. هـا هـي ذكـرى أخـرى، تعـود إلى مسـاء يـومٍ منـذ وقـت طويـلٍ للغايـة، حينـما كنَّـا جميعًـا نشـاهد

برنامجًا حواريًا. سأل أحد الضيوف ما الذي سيتذكره الآخرون في الدقائق الأخيرة من حياتهم، وجاء فاصل إعلاني، فقالت شانيل: "هذا سؤال جيد حقًّا! أنا في حاجة إلى التفكير في الأمر". وقلت أنا: "ماذا عنك يا آيفي؟ ما الذي تعتقدين أنه سوف يتبادر إلى ذهنك؟".

كانت آيفي منشغلة بحبك الصوف، وقالت: "اللحظة التي احتضنتك فيها لأول مرة"، وبدت نبرتها كما لو أنها تقرر أمرًا واقعًا. وصلت إلى نهاية صفٍّ بلون أخضر مشعٍّ، وبدأت في عد الغرز. لا يوجد سببٌ يدفعني إلى تذكُّر هذا، إذ إنه مجرد مثالٍ على خداع آيفي لذاتها.

نحيتُ تلك الذكرى جانبًا، بجوار شيء آخر تذكرته. عندما كنت في الخامسة من عمري تقريبًا، كان هناك حفل لعيد ميلاد زوج والدتي، وارتدت آيفي سروالًا فضيًّا فضفاضًا ناعمًا، ومسحت العطر على عنقها ومعصميها، وظلَّت تصفر طوال الوقت. كنت أسمعها تصفر كثيراً في تلك الأيام، ويمكنني القول إنني أحببتها، لكن هل سيكون ذلك صحيحًا؟ لم تكن الكلمة نفسها تعني شيئًا حينها، كان "الحب" بالنسبة إليَّ شيئًا مثل العطر، ومثل اللحن.

بدأ الحفل، وتجولتُ بين الضيوف، وتناولت الطعام من فوق الصواني، وكان هناك بيانو في إحدى الغرف، أحببت العزف عليه من خلال الضرب بقبضتي فوق المفاتيح. شغلت عمة عجوز من عمات آيفي البيانو، فتوجهتُ إلى غرفة نوم -غرفة من؟- وزحفت تحت الفراش، وعبثت بالجلد المحيط بأظافري. سرعان ما سيفتقدونني، ويا للضجة التي ستثور! ستصاب آيفي بالذعر، وستركض في أرجاء المنزل وفي الحديقة، منادية باسمي، وسروالها يلمع بين الأشجار.

عندما استيقظت، بدا المنزل هادئًا، وسرت عبر ممرٍّ، فوجدت زوج والدتي مع مجموعة صغيرة، وكراسيهم متقاربة وقد استغرقوا في تلك

الهواية الكئيبة للبالغين التي لا نهاية لها، وهي تبادل الحديث. مررت من دون أن يلحظني أحد وتوجهت إلى الشرفة، وهناك في الطرف البعيد، كان السروال الفضي. اتكأت آيفي على الدرابزين مع صديقة لها، امرأة شكَّل شعرها حبلًا ذهبيًّا التفَّ حول رأسها، وعند مرأى الفضة والذهب، قلت لنفسي: النجوم والشمس. نادتني آيفي قائلة: "هل ظللتَ مستيقظًا حتى هذا الوقت المتأخر، أيها الأمير الصغير؟"، لكنها واصلت الحديث مع صديقتها. عندما يختبئ الأطفال، فهذا يعني أنهم يطلبون العثور عليهم، من عساه لا يفهم ذلك؟ عندما كانت آيفي طفلة، هل لعبت لعبة تسمى الغميضة والتجاهل؟

لا تظنوا أنني ضيعت أي وقت في الإشفاق على ذلك الصبي، فقد تركته هناك، ملتفًّا في الظلام وسط الغبار، ولا علاقة له بالشخص الذي أصبحتُ عليه الآن، كل ما في الأمر هو أن الماضي يجثم منتظرًا، ثم يثب من مخبئه وسط الحشائش الطويلة.

في بعض الليالي، أستيقظُ شاعرًا بالاضطراب بدرجة أعجز معها عن النوم، وحيث إن الشاشات تؤدي إلى تفاقم الأرق، لذا ففي المرة الأولى التي أصابني فيها ذلك، التقطت كتابًا من أرفف سيدني، وانفتح الكتاب على صفحة مخططة بقلم تمييز أصفر: "بحبي وآمالي أستحضرك، فلا تضيع البطل الكامن في روحك". هذا النوع من الكتب هو ما منعني من أن أصبح قارئًا. لدى شانيل مجموعة من الكتب الصوتية الجذابة، وأكثرهم تفضيلًا لديها على الإطلاق هو "أهم 127 نصيحة سرية للغاية لا بد من معرفتها لتنمية سلوكك غير الأخلاقي، ثبت فاعليتها، وقوتها التنفيذية، وانتصارها!". لذا شرعت أستمع إلى تلك الكتب بدلًا من ذلك.

***

بعد انتهاء ميل من دراستها في مجال الفنون، عملتْ بدوامٍ جزئي كما هو معتاد في عدة أماكن: في حانة، وفي متجر، وفي وكالة لخدمات المرافقة. وقد شعرنا بالقلق بشأن هذا العمل الأخير، لكن ميل أوضحت أنها وكالة راقية وتقدمية لا تسمح بالتلامس. مرَّ الوقت، إلى أن اتصلت ذات يوم لتخبرنا أنها تقدمت بطلب للالتحاق بكلية في شيكاجو، وتم قبولها لدراسة الهندسة المعمارية. قالت: "لطالما كانت دراسة الهندسة المعمارية في شيكاجو على قائمة طموحاتي".

تسابقت في ذهني الأفكار حول الرسوم الدراسية، وأسعار الصرف، وتذاكر الطيران، وسألتها: "لماذا لا يمكنك دراسة الهندسة المعمارية هنا؟".

"أبي! أنت تعرف كيف تسير الأمور، سأجد عملًا أفضل في أستراليا إذا حصلت على شهادة جامعية أمريكية. يا له من أسلوب ذكوري حقًّا وأنت تحاول تدمير مسيرتي المهنية من قبل أن تبدأ حتى".

كما قالت شانيل لاحقًا، بدا هذا تكرارًا أكثر حدة لذلك الموقف حينما أرادت ميل ثلاثة فساتين جديدة مميزة: واحدًا لحفل مدرسة فورتوناتاس الرسمي للصف العاشر، وواحدًا لحفل عيد الميلاد بنادي التنس، وواحدًا لهاواي، حيث كنَّا سنلتقي بعائلة شانيل لقضاء العطلة. واشترطت ميل ألَّا تصنع آيفي أيًّا من الفساتين، حيث سيكون ذلك "أكثر من مأساوي".

سألتها شانيل: "ألا يمكنك ارتداء نفس الفستان؟ سيكون هناك أشخاص مختلفون في تلك الأماكن الثلاثة".

انفجرت ميل في البكاء. "يا إلهي، لا أستطيع أن أصدق ذلك!". لهثت لالتقاط أنفاسها وسط نحيبها، "ها هي والدتي تتلاعب بعقلي، رباه!".

"لا أفهم، يا عزيزتي، ما الخطب؟".

"هل يجب عليّ توضيح كل شيء؟ أي أحمق هذا الذي لم يسمع بعد عن انستاجرام؟ هل تريدين أن يراني العالم بأكمله وأنا مجبرة على الذهاب إلى كل مكان مرتدية نفس الفستان، مثل ريفي فاشل؟".

دائمًا ما تكون صورة ميل التي تتبادر إلى ذهني أولًا هي تلك التي تضع في شعرها زهرة جازانيا صفراء، وتبتسم بينما تحيط عنزة بذراعها. لا بد أن هناك سلَّمًا ممتدًّا بين صورة ميل تلك، وهذه التي يمكن رؤيتها الآن على يوتيوب، مرتدية بذلة من اللاتكس، لكن بعض درجات السلم مفقودة. تخبر ميل مشاهديها أنها تبنَّت الموضة المستدامة، وتوضح أن مادة اللاتكس نباتية وصديقة للبيئة وأخلاقية. عندما رأت آيفي البذلة، أشادت بميل لاعتزازها بجسدها، وقالت: "كنت سأستغل تلك الحرية إلى أقصى حدٍّ، لو تمتعت بها وأنا فتاة!".

بينما كنَّا مترددين بشأن شيكاجو، أخبرتنا ميل أن العمل في مجال الضيافة وتجارة التجزئة لم تعد "خيارات وظيفية صالحة" بالنسبة إليها، الأمر الذي لم يترك سوى وكالة المرافقة. وقد أُغلق الفرع الراقي التقدمي بسبب عدم رضا العملاء، لذلك ستعمل ميل في الفرع القديم الذي يقدم عروضًا خاصة، حيث كان كل شيء مسموحًا به. في اليوم التالي، وافقنا على تمويل دراستها في الولايات المتحدة. كما أوضحتْ، كان في إمكانها اختيار مدرسة في نيويورك أو كاليفورنيا، لكنها اختارت شيكاجو حتى تتمكَّن من العيش مع خالتها وتجنبنا تكلفة السكن. عند التفكير في الأمر من جوانبه كافة، يتضح أن ميل كبرت لتصير شابة عميقة التفكير، كما يُظهر قرارها بارتداء اللاتكس، وأنا وشانيل فخوران جدًّا بالطريقة التي تُظهر بها ابنتنا الاهتمام بالآخرين، من دون التخلي عن التركيز على أهدافها.

في عيد الميلاد، عرضنا على ميل تذكرة للعودة إلى المنزل لقضاء العطلة. قالت: "ماذا سأخبر أصدقائي؟ لقد أنشأت حسابات جديدة

على منصات التواصل الاجتماعي عندما وصلت إلى هنا، أتذكر ذلك؟ ومعظم الناس لا يعرفون حتى إنني من ملبورن، فقد تركتهم يعتقدون نوعًا ما أنني نشأت في نيوزيلندا، أو شيئًا من هذا القبيل. إنه لمن المخزي للغاية أن تكون أستراليًا، إذ يفترض الجميع فحسب أنك عنصري معادٍ للإسلام ومخرِّب للبيئة ومتعجرف فيما يتعلق باختيارك للقهوة. أضطر إلى شرب جالونات من قهوة الفلتر يوميًا هنا، ولا أتفوه بكلمة كي لا ينفضح أمري".

"ألا يمكنك إخبار أصدقائك أنك ستقضين عيد الميلاد في نيوزيلندا؟".

"أبي! نحن لا نكذب على بعضنا في دائرة أصدقائي، كما أن هناك أيضًا مشكلة انستاجرام".

أثَّرت تلك المحادثة على ثقة شانيل في... ماذا يجب أن أسمي الأمر؟ ثقتها في التقدم؟ ثقتها في قائمة طموحاتها؟ كانت تصاب أحيانًا بتعكر المزاج وشرود الذهن، وقد ظهر ذلك لأول مرة بعد شهر تقريبًا من مكالمة ميل. في وقتٍ مبكرٍ ذات يوم أحد، أخذتُ كوبًا من الشاي لشانيل، متوقعًا أن أجدها تستعد لتمارين الملاكمة، لكنها كانت لا تزال في الفراش. أخذ المطر يطرق السطح، وهذا في أعقاب الطقس المتطرف الذي سوَّى بريسبان بالأرض. وجَّهت شانيل حديثها نحو السقف، قائلة: "هل تعتقد أننا ارتكبنا خطأ؟ هل تعتقد أنه كان يجب علينا الهجرة إلى الولايات المتحدة بدلًا من ذلك؟".

لا يمكنني المبالغة في وصف ثقل وقع السؤال، فمجرد التلميح إلى أننا قد نكون أخطأنا في حكمنا، يدمي الروح، كل ما تخلينا عنه، وكل الصراعات التي واجهناها، والجهد الهائل الذي يتجدد كل يوم، لنصبح أستراليين عاديين: إذا كان علينا أن نكون أمريكيين عاديين بدلًا من ذلك، فقد ضيَّعنا حياتنا هدرًا. انشقَّت الأرض عند قدمي، وتدفَّق نهر أسود هادر، فأمسكت بيد شانيل. ولم يمثِّل تقييم ولدينا لأستراليا أي

عـون، إذ أطلقـت عليهـا ميـل "أرض الفشـلة"، بينـما وصفهـا سـيدني بكونهـا "منبـوذة عـلى السـاحة العالميـة". أضـف إلى ذلـك حالـة الاقتصـاد المترنـح بينـما تفـرض دولـة تلـو الأخـرى العقوبـات الاقتصاديـة بسـبب غيـاب أي سياسـات للحكومـة الأسـترالية للتعامـل مـع التغـير المناخـي، حتـى دار حديـث مجنـون مفـاده أن روسـيا أيضًـا سـتحذو حذوهـم.

قلـت بحـزمٍ: "لقـد كنّـا محقّـين تمامًـا في المجـيء إلى هنـا، انظـري إلى كل مـا حققنـاه: مسـتقبلًا متميـزًا لولدينـا، ومعاشًـا تقاعديًـا جيـدًا، والكثـير مـن النقـاط في برنامـج المسـافرين الدائمـين، ومرآبًـا فسـيحًا للغايـة...".

واصلـت الحديـث، لكننـي رأيـت أن شـانيل لا تنصـت إليّ. قالـت: " أتعلـم، عندمـا كنـت فتـاة، حلمـت بالعيـش في الولايـات المتحـدة، ثـم خُطِبـت شـقيقتي لأمريـكي، فلـم أشـأ أن أبـدو كـما لـو أننـي أقلدهـا. حينهـا أخطـأت بالتركيـز عـلى أسـتراليا بـدلًا مـن ذلـك". كان مـن الفظيـع رؤيـة شـانيل -شـانيل!- وهـي تشـعر بالاكتئـاب بسـبب الشـك. لحسـن الحـظ، أتـاني الإلهـام، وقلـت وأنـا أعتـصر يدهـا بقـوة أشـد: "أتعرفـين مـا الـذي يحـدث؟ هـذا الشـعور بـأن الولايـات المتحـدة كانـت سـتصبح خيـارًا أفضـل يُظهِـر إلى أي مـدى اندمجـتِ في المجتمـع هنـا، إذ إن الرغبـة في أن تكـوني أمريكيـة هـي رغبـة أسـترالية أصيلـة. أتدريـن مـا علمتـه مؤخـرًا؟ لم تكـن هـذه البلـد تحتفـل بالهالويـن عـلى الـدوام، يصعـب تصديـق هـذا، أليـس كذلـك؟ والآن، بعـد أن أصبحـت الجمعـة السـوداء واثنـين الإنترنـت مـن ثوابـت عـالم البيـع بالتجزئـة، فقـد بـات الأمـر مسـألة وقـت فحسـب حتـى يظهـر عيـد الشـكر في التقويـم لدينـا، وعـن نفـسي، آمـل أن نتقـدم بالشـكر بعـد أن نصبـح الولايـة الحاديـة والخمسـين".

بعـد فـترة، اعتدلـت شـانيل جالسـة في الفـراش، وارتسـمت عـلى شـفتيها ابتسـامة. أخبرتهـا بأنـه إذا بـدا أن الولديـن يرفضـان اختياراتنـا في الوقـت الحـالي، فلـن يظـل هـذا هـو الحـال دائمًـا. لكـن في الوقـت

الحـالي، تدفعهـما رغبـة صحيـة لا ضرر منهـا لشـق طريقهـما الخـاص في هـذا العـالم، تمامًـا كـما فعلنـا عندمـا قررنـا الهجـرة بغـض النظـر عـما قالـه آباؤنـا. مـع كل كلمـة، هـدأ النهـر الأسـود وغـار في الأرض، حتـى صـار مجـرد قطـرات بـاردة عنـد قدمـي.

منـذ تلـك المحادثـة، حاولنـا ألّا نفكـر في الولايـات المتحـدة، لكـن الأمـر شـاق مـع وجـود ميـل هنـاك. في الوقـت الحـالي، تعمـل متدربـة في مكتـب للهندسـة المعماريـة، والمرشـد الـذي يتـولى تدريبهـا اسـمه ديـن. بعـد وقـتٍ قصـيرٍ مـن لقائهـما، أمضيـا عطلـة نهايـة الأسـبوع معًـا في نيويـورك، ورسـمت ميـل قلوبًـا فضيـة حـول ديـن في قصتهـا عـلى انسـتاجرام. كـما كانـت عينـاه فضيتـين أيضًـا، ولحيتـه مخططـة باللـون الفـضي. كان يرتـدي سـترات مـن الصـوف المحبـوك، هـل يمكـن حقًـا أن تكـون مواكبـة للموضـة للرجـال؟ لدينـا أنـا وشـانيل بعـض الأسـئلة العابـرة التـي نـود طرحهـا عـلى ديـن، بدايـة بــ: كـم تمتلـك مـن المـال؟ هـل تحبـذ المـلاط الملـون؟ نعـم أم لا؟ وهـل تعـاني أي هـلاوس وراثيـة؟

نتخيـل قصصًـا مسـتقبلية تتكشـف عـلى حسـاب ميل عـلى انسـتاجرام: نـرى ميـل مـع ديـن حاملـين كـؤوس شـمبانيا، ووراءهـما بحـيرة متجمـدة في الخلفيـة، والزمـرد يلتمـع في يـد ميـل. وفي وقـتٍ لاحـقٍ، أطفـالًا أمريكيين يلعبـون بالمسدسـات في فضـاءات أنيقـة معماريًـا، تقـع عـلى ارتفـاع عـال فـوق سـطح الأرض. ثـم يحـل محلهـم مراهقـون بأعـين كالزئبـق، يسـألون: "مـن أنتـم؟"، عندمـا نتصـل. لا نناقـش أنـا وشـانيل مخاوفنـا، لكنهـا تتبعنـا كأثـرٍ مـن البخـار، وعندمـا أسـتيقظ ليـلًا، أجدهـا تحـوم فوقـي، مخيفـة وصادقـة، تقـول لي: "لقـد اتخـذت كل القـرارات الخاطئـة، وخسـرت ابنتـك، وخسـرت ابنـك".

***

عندمـا قلـت إن سـيدني أمامـه عـام واحـد لإكـمال الدكتـوراه، كان ذلـك صحيحًـا تمامًـا، لكـن مـن الصحيـح أيضًـا أن سـيدني ظـلَّ أمامـه عـام واحـد منـذ أكـثر مـن... حسـنًا، منـذ أكـثر مـن عـام بـكل تأكيـدٍ. كانـت آخـر مـرة رأينـاه فيهـا عندمـا عـاد إلى المنـزل لبضعـة أيـام، وأحـضر لنـا جميعًـا الهدايـا. تلقَّـت آيفـي منشـورًا مـن الكريسـتال، وعلَّقـه سـيدني عـلى نافذتهـا قائـلًا: "سـينشر أقـواس قـزح في جميـع أرجـاء غرفتـك". بينـما تلقينـا أنـا وشـانيل علبـة مـن التيمبي، صُنعـت في خليـح بايـرون، وتفـوق جودتهـا جميـع أنـواع التيمبـي الأخـرى، إلى جانـب وعـاء مـن الكيمتـشي المصنـوع منزليًّـا، وقـد أكل سـيدني كليهـما خـلال زيارتـه.

في آخـر مسـاء لـه في ملبـورن، انتظـر سـيدني حتـى خلـدت آيفـي إلى الفـراش، ثـم أخـبرني أنـا وشـانيل أنـه أخـذ إجـازة مـن الدكتـوراه. بـين الحـين والآخـر، تطـل آيفـي مـن ملامـح سـيدني، إذ إن لهـما نفس الابتسـامة الماكـرة. لكـن كلمـة "ماكـرة" ليسـت هـي الوصـف الصحيـح، بـل قصـدت أن أقـول خجولـة. اسـتقر مرفقـا سـيدني عـلى المنضـدة، وأكـمام سـترته مرفوعـة إلى الأعـلى، فظهـر وشـم جديـد عـلى ساعده: "ربمـا كان المسـتقبل مجـرد حلـم، وربمـا كان الحلـم وجبًـا". بـدا تصرفًـا نموذجيًّـا مـن سـيدني، أن يلجـأ إلى فنـان وشـم لا يجيـد الهجـاء، لكـن ربمـا لم يلحـظ الأمـر. علقـت ميـل ذات مـرة عـلى صـورة لسـيدني عـلى انسـتاجرام: "أخـي، مدخـن الماريجوانـا". نذكِّـر أنـا وشـانيل بعضنـا أن هـذا صـار قانونيًّـا الآن، ويمكـن أن يكـون الأمـر أسـوأ بكثـيرٍ.

لم تظهـر شـانيل الانزعـاج، وسـألت سـيدني فقـط عـما يخطـط للقيـام بـه بـدلًا مـن الدكتـوراه، فأجـاب أن شركـة تنظـم جـولات بيئيـة إلى ضريـح بقايـا الحاجـز المرجـاني العظيـم عرضـت عليـه "سـاعات عمـل منتظمـة" كمرشـد للغـوص.

سألته: "هل يدفع ذلك العمل راتبًا يمكنك العيش منه؟".

استطعت رؤية سيدني وهو يفكر: "سؤال تقليدي متوقع من أبي!". ظهرت تلك الابتسامة ثانية، وقال: "أنا لا أحتاج إلى الكثير".

لا جدال في ذلك، إذ كان سيدني يعيش في كارافان خلف منزل مشترك متداعٍ مبني من الألواح الخشبية، حيث يوجد المرحاض الوحيد في الفناء. ذهبنا شمالًا لزيارته ذات مرة، وقدم لنا سيدني شاي التفاح التركي في مرطبانات. علّق بذلة غوصه على خطاف في زاوية الكارافان، بجوار معطفه الأسود الدافئ الذي جلبه من ملبورن، فاقترحت شانيل أن يخزن المعطف بعيدًا لتجنب العث، لكن سيدني أخبرها: "يجب أن يظل هنا، فقد استوطن خفاش داخل أحد الجيوب". وعندما تساءلنا عن مدى نظافة هذه الترتيبات، قال: "إنه مجرد خفاش صغير". تشارك ابننا السكن في كارافان مع خفاش صغير اسمه دينج. لم تكن هناك تجهيزات للطهو داخل الكارافان، لكن على أي حال كان سيدني يعيش على التيمبي وجوز الهند والمانجو المسروقين على الأرجح من أشجار الآخرين. أما الملابس، فكان يمتلك سروالًا قصيرًا، وبنطلون جينز واحدًا، وبضعة قمصان قطنية. وعندما يأتي لزيارتنا، يرتدي بذلاته الرياضية القديمة، وكنزة بها ثقوب عند المرفقين، حبكتها آيفي من الصوف منذ فترة طويلة للغاية، بلون أزرق زاهٍ وأكمام حمراء. أرسلنا إلى سيدني ملابس لائقة في عيد ميلاده: قمصانًا وأحذية رياضية من ماركات معروفة، لكنه باعها في الغالب لشراء الماريجوانا، لذا أرسلنا إليه المال في العام الماضي، كي نوفّر عليه الوقت.

سألته شانيل بحذرٍ: "هل يمكن أن تضع من ضمن خياراتك العمل على رسالة الدكتوراه بدوام جزئي؟ كما أن الحصول على شهادة عليا سيساعدك في الحصول على عمل أضمن وله راتب أفضل".

قال لها سيدني: "في الوقت الحالي، أريد وضع مسافة بيني وبين النظام". يتحدث سيدني بطريقة مدروسة، مع وقفات وسط الحديث،

وهو أسلوب يحوِّل الكلام العادي ويجعله يبدو كما لو أنه حقائق كونية.

تابعت شانيل قائلة: "ألن ينتهي بك الأمر ولديك الكثير من الوقت الفائض؟".

"أنوي زيادة مشاركتي مع "دايف كلين"".

كان "دايف كلين" مشروعًا تطوعيًا نظَّمته جامعة سيدني، حيث يساعد المشاركون بجمع المخلفات من قاع المحيط، ويُسجَّل كل شيء يستخرجه الغواصون، ثم تخضع حالة الموقع الذي جاءت منه المخلفات للمتابعة عبر الزمن. وعقب تطوع سيدني، حلَّت سلسلة جديدة من الصور محل القديمة. وصلت هذه الصور مرتين أسبوعيًا، وأظهرت لنا ما استخرجه: خيوط الصيد، والزجاجات، وعلب المشروبات، وعبوات التغليف، وشظايا صناعية مجهولة الهوية ... صوَّرها سيدني مصفوفة على طاولة خشبية، بحيث كان من الممكن أن تبدو تركيبًا فنيًا. ونظرًا إلى أنه لم يظهر ما عثر عليه وهو متناثر وسط المحيط، لم تكن الصور مخالفة للقانون. لكن ذات مرة، في الأيام الأولى، أرسل إلينا سيدني صورة لحقيبة بلاستيكية تطفو تحت الماء مثل سمكة بيضاء مخيفة، وقالت رسالته إن المحيط سيحتوي قريبًا على بلاستيك أكثر من الأسماك. حذفنا الصورة والرسالة على الفور، واشترينا هواتف جديدة لنا جميعًا.

أخذ سيدني يلمس وجهه وهو يتحدث إلينا، وهو شيء يفعله كثيرًا. أعتقد أن لحيته تسبب له حكة في جلده. قال: "ما جئت لأقوله حقًا في هذه الزيارة هو أنني أنوي العيش لبعض الوقت بعيدًا عن تغطية شبكات الكهرباء". أخبرنا أنه سيغادر الكارافان الذي يقيم به عند عودته إلى الشمال، بعد قبوله في مجتمع أخضر ملتزم بالممارسات الأخلاقية الواعية والحياة المستدامة. "في أكواخ مصنوعة يدويًا من

مـوادٍ معـاد تدويرهـا، وتعمـل بالطاقـة المتجـددة فقـط، وهنـاك أيضًـا مبنـى للأنشـطة الجماعيـة مبنـي يدويًـا".

جعلتنـي كلمـة "أخـضر" أتنبّـه عـلى الفـور، وقـال سـيدني إن تلـك الجماعـة اسـمها "هـز العشـب"، "لأن المجتمـع لا يعلمنـا سـوى الامتثـال، ومراكمـة الممتلـكات، "وتمـضي الأيـام مثـل فـأر حقـل، لا يهـز العشـب"".

بـدا ذلـك الجـزء الأخـير مألوفًـا، فسـألته: "هـل هـذا اقتبـاس مـن تقويـم مكتبـي؟".

تحدثـت شـانيل بتلـك النـبرة الدافئـة الداعمـة التـي يجـب أن يسـتخدمها الآبـاء عندمـا ينزعجـون بشـدة، وقالـت: "سـنتطلع إلى رؤيـة صـور منزلـك الجديـد".

"الأمـر هـو أننـا لا نحبـذ التكنولوجيـا المجـردة في "هـز العشـب"، لـذا سـأتخلى عـن هاتفـي".

"لكن كيف سنتصل بك؟".

"سيكون من الأفضل -والأكثر أمانًا- ألا تفعلا لبعض الوقت".

حكَّ سيدني مؤخرة عنقه.

قالـت شـانيل بهـدوءٍ شـديدٍ: "لا، ليـس اللـواء الأخـضر، لا يمكنـك أن تفعـل ذلـك بنـا".

صحـت قائـلًا: "إذا لم تفكـر فينـا، فكـر في شـقيقتك، وفكـر في جدتـك! فكـر في العـودة القسريـة إلى الوطـن في سـن آيفـي!".

رفـع سـيدني كلتـا يديـه قائـلًا: "مهـلًا! مـن ذكـر أي شيء بخصـوص اللـواء الأخـضر؟ لا تهتـم جماعـة "هـز العشـب" إلا بالتفاعـلات السـلمية المحبـة مـع كل الكائنـات الحيـة والكوكـب".

"لماذا يتعيَّن علينا إذن قطع الاتصال من أجل سلامتنا؟".

"تعرضت إحدى الجماعات للإغلاق في العام الماضي في نيو ساوث ويلز، وجرت بعض الاعتقالات".

اشتهرت تلك الجماعة بمعارضتها للتكسير الهيدروليكي، وتعرضت للإغلاق بعد أن اختطف اللواء الأخضر وزير البترول، وحينما كانت أشياء كثيرة تتعرض للحظر بين يومٍ وآخر. تذكرت موجة الأسماء التي وصلت إلى القسم من جميع أنحاء البلاد.

سألته: "هل يوزع أي شخص في جماعتك منشورات للمزارعين حول المحاصيل المستدامة أو زراعة الأشجار أو حقوق الحيوان؟ وهل يتحدث أحد ضد النازيين الفخورين؟ وهل يدافع أي شخص عن حقوق السكان الأصليين أو ملاجئ النساء أو الدخل الأساسي الشامل؟". تابعت على هذا المنوال، وعددتُ قائمة بالأنشطة التي تجذب المراقبة ويمكن حظرها في أي وقت.

هزَّ سيدني رأسه، "لا، لا، لا". قال إن "دايف كلين" هي المشكلة، "كثير من المتطوعين هناك من جماعة هز العشب".

لا تُعتبَر عمليات تنظيف المحيطات غير قانونية، لكن يمكن تفسير أي نوع من النشاط البيئي على أنه انتقاد لغياب سياساتنا تجاه المناخ. لطالما شعرنا أنا وشانيل بعدم الارتياح تجاه "دايف كلين"، ولم ننسَ تلك الحقيبة البلاستيكية. ولكن كما ذكَّرنا سيدني، فإن الأستاذ الذي يدير المجموعة يتكتم على نشاطاتها ولا يجذب إليها الأنظار، ولا يوجد موقع على الإنترنت لجماعة "دايف كلين"، ولا يمكن للجمهور الوصول إلى أي معلومات حول المشروع. قال سيدني: "أنا أبالغ في الحذر فقط، وأفكر فيكم يا رفاق".

قالت شانيل، بينما أصدرتُ أنا صوتًا أشبه بالغرغرة: "حسنًا، عليك أن تعدنا ببعض الأشياء. إذا ثارت أي مشكلة بخصوص عمليات التنظيف، سيسمع والدك بالأمر في الوقت المناسب لتحذيرك.

سـيتوجهون إلى الجامعـة أولًا، لـذا عليـك مغـادرة الجماعـة في الحـال. اذهـب مباشرة إلى أقـرب مركـز شرطـة، وأدْلِ ببيـانٍ مفـاده أنـك كنـت طالبًـا سـاذجًا ضلَّلـه مشرفـه، مشرفـك السـابق، وضِّـح أنـك ابتعـدت عـن الجامعـة، ووضِّـح أنـك قطعـت علاقتـك الآن بتلـك الجماعـة المدعـوَّة هـز العشـب أيضًـا".

تـلا ذلـك الكثـير مـن الحديـث عـن "الخيانـة"، و"الكارمـا"، و"العنـف النفـسي". أنصتنـا إلى سـيدني، ولكـن ظللنـا حازمـين بشـأن الحاجـة إلى رقـم للاتصـال. قالـت شـانيل لسـيدني: "لا يتعلَّـق الأمـر بالسياسـة فقـط، بـل يجـب أن نتمكَّـن مـن الاتصـال إذا تعـرض أحدنـا لحـادثٍ، كـما يجـب التفكـير في آيفـي أيضًـا، لقـد رأيـت كـم تبـدو ضعيفـة".

اصطحـب سـيدني آيفـي يومهـا إلى قاعـة الطعـام في مركـز التسـوق، وتنـاولا سـوشي التوفـو والأفـوكادو عـلى الغـداء. انطـوى ذلـك العمـل عـلى نكـران الـذات مـن جانـب سـيدني، لأن الطعـام لم يكـن عضويًّـا، كـما كان الأرز أبيـض، وصلصـة الصويـا تحتـوي عـلى جلوتامـات أحاديـة الصوديـوم. لكـن لم يكـن هنـاك مـكان عـلى مسـافة قريبـة يمكـن أن يفـي بمعايـيره الخاصـة بـالأكل الصحـي والمسـتدام، كـما رفـض اسـتعارة إحـدى سـياراتنا التـي لا تعمـل بالكهربـاء. ارتـدت آيفـي فسـتانها الـوردي لتلـك النزهـة، وكانـت هـذه هـي المـرة الأولى التـي ترتديـه فيهـا منـذ فـترة، فشـكَّلت عظـام ترقوتهـا شـماعة تـدلَّى فوقهـا الفسـتان، وحاولنـا جميعًـا عـدم التحديـق.

لا يعـرف الولـدان أن آيفـي قـد تكـون مصابـة بسرطـان الأمعـاء، ففـي النهايـة، لا يوجـد دليـل عـلى ذلـك، ولا تشـكِّل بعـض الأعـراض الغامضـة وتكهنـات بـرام سـببًا كافيًـا يـبرر إزعـاج سـيدني وميـل. بـدلًا مـن ذلـك، تحدثنـا عـن صحـة جدتهـما مـن ناحيـة عمليـة الشـيخوخة. قالـت شـانيل

لسيدني: "آيفي بخيرٍ في الوقت الحاضر، لكن الناس في سنِّها يمكن أن يتدهوروا سريعًا".

"لقد اعتادت شرب شاي عشبي رائع جلبته لها فانتا، يبدو مذهلًا. نوع من العلاج من الطبيعة، أليس كذلك؟".

في النهاية، رأى سيدني المنطق الكامن وراء طلبنا لرقم اتصال في حالات الطوارئ، قال: "يمكنكما إرسال رسالة إلى أستريد". حرصنا أنا وشانيل على عدم تبادل النظرات بعضنا مع بعض. في تلك المرة التي زرنا فيها كارافان سيدني، قادنا عبر المنزل في طريقنا إلى الخروج، وشممنا في أثناء مرورنا روائح البخور والتخمير، ووجدنا ثلاث أو أربع فتيات على الشرفة المتداعية. كانت أقدامهن عارية، وارتدين ثيابًا قطنية فضفاضة، أو بذلات عمل باهتة. بدون كفتياتٍ خرجن من إحدى الإعلانات الدعائية لنوعٍ من البيرة الحرفية. ظلَّت أذرعهن ملتصقة بصدورهن، ولوَّحن لنا باقتضابٍ بأصابع مفرودة كنجمة البحر، قائلات: "مرحبًا"، بينما أبعدن باليد الأخرى شعورهن المموجة عن وجوههن. ثم دخلت فتاة أخرى من البوابة، بدت مفتولة العضلات، بشعرٍ حليقٍ كالجندي، وعينين نهمتين يشعُّ منهما الذكاء. كانت بشرتها وعيناها وملابسها وما تبقى من شعرها كلها باللون البيج. قالت شانيل بينما نحن عائدان في طريقنا بالسيارة المستأجرة: "لا بد أن هذه صديقة سيدني".

دامت العلاقة بين سيدني وأستريد، حتى حضرت ورشة عمل بعنوان "العلاقات بين الكائنات"، فاتضح لها أن سيدني يتصرف بطريقة غير أخلاقية مع دينج. كانت تسمية كائنًا ما عملًا ينطوي على التملك والهيمنة، ويسلبه قوته. عرض سيدني التوقف عن استخدام ذلك الاسم، لكن المشاعر السلبية استمرت بينهما.

أو هكـذا قيـل لنـا، لكـن لم يفتنـا ملاحظـة أن الرقـم الذي أعطانا سـيدني إيـاه ليلتهـا كان رقـم أسـتريد. ولا يعنـي هـذا أنـه كان سـعيدًا لذلـك، أو لأي سـبب آخـر، وكان آخـر شيء قالـه وهـو يحـك وجهـه قبـل الخلـود إلى الفـراش: "إن قانـون العـودة القسريـة إلى الوطـن الأم يسـكت المهاجريـن، ويُسـتخدَم للتمييـز ضدنـا".

لم تكـن هـذه هـي المـرة الأولى التـي قـال فيهـا ذلـك، وكان عـلى حـقٍّ. يتصـف رئيـس وزرائنـا بالعبقريـة الإسـتراتيجية، فبـما أن خمسـة وسـبعين في المائـة مـن السـكان لديهـم أجـداد وُلِـدوا في الخـارج، فقـد كان لسياسـة العـودة القسريـة إلى الوطـن تأثـيرٌ فـوري عـلى المعارضـة.

واجهـتُ شـكوى سـيدني كـما كنـت أفعـل دائمًـا، وقلـت: "تذكـر ليليان". كانـت ليليـان ابنـة عـم آيفـي، وقـد انتهـى بهـا الأمـر بالعيـش في فرنسـا، حيـث لفتـت انتبـاه قاتـل يسـتهدف المهاجريـن، تعقَّـب ليليـان وقتلهـا. أريـد مـن سـيدني أن يفهـم أن سياسـة العـودة القسريـة إلى الوطـن ليسـت هـي مـا يجعـل الحيـاة خطـرة لأشـخاص مثلنـا. "تذكـر ليليـان"، لا يفشـل هـذا أبـدًا في إسـكات سـيدني... لفـترة مـن الوقـت.

***

قبـل رحيـل سـيدني، منحنـا أيضًـا الإذن بالكتابـة إليـه عـلى عنـوان المنزل المشـترك مـرة واحـدة في الشـهر. أخبرنـا أن أسـتريد متطوعـة مـع "دايـف كلـين"، وسـتوصل إليـه بريـده. قـال سـيدني بابتسـامته تلـك: "الرسـائل شـكل مـن أشـكال التكنولوجيـا العتيقـة". مـع ذلـك، لم يكـن مسـموحًا لنـا بالكتابـة أكـثر مـن هـذا، لأن جماعـة هـز العشـب تفضِّـل الابتعـاد عـن العـالم. "نتعامـل مـع كل شيء مـن منظـور الصراحـة والفضـول، مـن دون إطـلاق أحـكام، لكـن هـذه الفـترة الأولى لبنـاء المدينـة الفاضلـة محفوفـة بالمخاطـر، ويمكـن أن تؤثـر فيهـا هيـاكل التفكـير القديمـة المدمـرة".

نؤكد أنا وشانيل لبعضنا أن حلم سيدني ببناء عالم جديد هو حلم أسترالي خالص. علاوة على ذلك، ينجذب الشباب إلى الألواح البيضاء والبدايات الجديدة، وإذا تطلّب انفصال سيدني عن المجتمع انفصاله عنا، فنحن على ثقة بأن هذه المرحلة ستمرُّ. أخبرتني شانيل: "هناك موقعٌ متخصصٌ في علم الأعصاب، يقول إن المراهقة تستمر حتى سن الثامنة والعشرين لدى الذكور".

يبلغ سيدني من العمر ستة وعشرين عامًا. إن سنتين فترة طويلة للغاية للانتظار. كل صباح في العمل، أتحقق من الإشعارات اليومية للتنبيهات بمجرد وصولها، لكن لم يرد حتى الآن شيء حول عمليات تنظيف المحيطات أو المجتمعات البعيدة عن نطاق شبكات الكهرباء. أبحث في جوجل عن صور لتلك المجتمعات. هل يعيش سيدني في خيمة، بينما يبني كوخه بيده؟ وماذا حدث للخفاش الصغير المعروف سابقًا باسم دينج؟ تعذبنا أنا وشانيل كل الأسئلة التي لم نطرحها. حضرت أستريد وسيدني ذات مرة مهرجانًا بيئيًّا لمدة شهر، حيث ساعدا كل صباح في حفر خندق للمراحيض. ما هي ترتيبات المراحيض في جماعة هز العشب؟ أخبرنا سيدني أن هناك قاعدة تقتضي "عدم الإهدار". هل ينظف نفسه باستخدام أوراق الشجر؟ نتذكر كيف بدا عليه الشعور بالحكة، ونتساءل عن الطفح الجلدي. تستمد الجماعة اسمها من عادات الفئران، مما يوحي بأن القوارض تجتاح المكان. أخبرنا سيدني أيضًا أن وجبات الطعام تُقدم من أوانٍ كبيرة من الفولاذ المقاوم للصدأ، وأنهم يتناولون الطعام جالسين في دائرة على الأرض، ولا شيء من ذلك يبدو صحيًّا. هل يفرك الطهاة أيديهم لمدة عشرين ثانية قبل التعامل مع الطعام؟ كما أن الكحول ممنوع، فما موقف معقم اليدين إذن؟ وهل تسمح الجماعة بالصابون؟ قالت شانيل: "إنهم يصنعون ما يحتاجون إليه من الصابون بأنفسهم، على الأرجح"، حيث يمكننا قراءة أفكار بعضنا بعضًا، حينما يتعلق

الأمـر بولدينـا. "لكـن هـل ينتـج رغـوة؟". نجـازف بإحيـاء هيـاكل التفكـير القديمـة المدمـرة عنـد طـرح هـذه الأسـئلة وغيرهـا عـلى سـيدني عندمـا نكتـب إليـه، مـع علمنـا أنـه لـن يـرد.

***

أرفقنـا شـيئًا -شـكلًا مـن أشـكال التكنولوجيـا العتيقـة- مـع رسـالتنا الأولى، لكـن لم يتـم صرفـه بعـد. وفي هـذه الأيـام، نرسـل إليـه الطوابـع، التـي تـأتي في كتيبـات يضـم كل منهـا عـشرة طوابـع، لكننـا لاحظنـا أن الطابـع الموجـود عـلى المظـروف الـذي يصلنـا مـن سـيدني يتغـير بعـد تسـعة أشـهر. تسـعة مـن حيـوان الومبـت، وتسـع ممرضـات تابعـات للجيـش الأسـترالي، وهـا قـد وصلنـا الآن إلى الطوابـع التـي تصـور مناسـبات سـعيدة. مـن يحصـل عـلى الطابـع العـاشر؟ هـل يرسـل سـيدني رسـالة حـب إلى أسـتريد مـرة كل عـشرة أشـهر؟ تقـول شـانيل إنـه مـن المرجـح أن تكـون رسـالة احتجـاج إلى سـياسي، ونأمـل أن يكتـب باسـمٍ مسـتعارٍ. في كل شـهر، نكتـب أنـا وشـانيل رسـالتين منفصلتـين إلى سـيدني، لكننـا نطـوي الصفحتـين ونضعهـما في نفـس المظـروف، لأنـه لا يسـمح لنـا إلا بخطـابٍ واحـدٍ فقـط. وفي الشـهر المـاضي، ألقيـت نظـرة خاطفـة عـلى صفحـة شـانيل، ورأيـت: "... "عيـد ميـلاد سـعيد" أغنيهـا لـك مرتـين!"، بينما أوضحـت رسـالتي أن الدافـع الرئيـسي إلى مجيئنـا إلى أسـتراليا هـو التأكـد مـن أن أولادنـا لـن يضطـروا أبـدًا إلى العيـش في أكـواخ مرتجلـة مـن دون مرافـقٍ صحيـة مناسـبة كـما يفعـل المعـوزون في وطننـا الأم.

ونظـرًا إلى أن مدينـة سـيدني الفاضلـة تحيطهـا القواعـد والمحظـورات، نتسـاءل عـمَّا إذا كانـت رسـائلنا تخضـع للرقابـة. نتخيـل فتـاة تشـبه أسـتريد، ذات مظهـر كالجنـود، ونقيـة ويغلـب عليهـا اللـون البيـج، وهـي تفتـح المظاريـف. لكـن لا يهـم الأمـر، إذ إننـا دائمًـا مـا نكتـب باسـتخدام

الشفرة. وإذا كانت الفتاة خبيرة في الشفرة، فستجد نفس الرسالة كل شهر: "عندما تعود إلى المنزل، سيكون هناك خبز محمص مع زبدة الفول السوداني حتى الحواف".

***

في منتصف كل شهر تقريبًا، يصل إلى صندوق بريدنا مظروف من دون اسم مرسل أو عنوان، وهذا هو كل ما في الأمر، مجرد مظروف فارغ فحسب. يتمتع سيدني بخط يدٍ كبيرٍ ومرتعش كالأطفال، ويمثّل المظروف أحد الوعود التي انتزعناها منه: فهو يخبرنا بهذه الوسيلة أنه آمن وبخيرٍ.

نتجمّع ثلاثتنا، آيفي وشانيل وأنا، حول ذلك المظروف، كما لو أن في وسعه تقديم حكمة لا تقدَّر بثمن، ونقلبه ونرفعه نحو الضوء. كان عيد ميلاد آيفي الشهر الماضي، واحتوى المظروف بداخله على ريشة خضراء ناعمة صغيرة.

لنقل إن الوقت في بداية الشهر، أو عند نهايته، ولنقل إنه يوم أحد، أي أن وصول مظروف من سيدني أمرٌ مستحيلٌ بصورة مضاعفة. تهب ريح حادة كما لو أنها أتت مباشرة من مصانع جيليت، لكن من الضروري مع ذلك إبقاء صندوق البريد خاليًا من أي مطبوعات دعائية. التمع شيء ورقي داخل الفتحة: طرف مظروف؟ بعد العودة إلى الداخل، تخلصت من نشرة دعائية لمتجر بيتزا، قضمها الحلزون حتى صارت أشبه بالدانتيل. في يوم الأحد، أحسست في صدري لأول مرة بثقل بقدر حصاة. هطل رذاذ المطر بعد الظهيرة، وأطللت من نافذة بالطابق العلوي، فرأيت شانيل تشق طريقها إلى صندوق البريد، وقد شكّل الرذاذ على شعرها شكلًا يشبه شبكة العنكبوت.

لا تعرف آيفي شيئًا عن جماعة هز العشب، كما طلبنا من ميل أيضًا عدم قول أي شيء لها. فكلما قل عدد الأشخاص الذين يعرفون بأمر مشاركة سيدني في الجماعة، أصبح الأمر أكثر أمانًا، ولا يمكن الوثوق بأن آيفي لن تبوح بالموضوع. وهي تصدق ما أخبرناها به: أن سيدني وصل إلى مرحلة في دراسته حيث يتعيَّن عليه إجراء بحث في منطقة نائية من دون تغطية هاتفية، وأن عنوان البريد الإلكتروني الوحيد الذي لدينا هو عنوان جامعته القديمة، وقد رأت آيفي بنفسها أن البريد المرسل إلى هناك يرتد، وهي تتقبَّل مظاريف سيدني الخالية من الرسائل بوصفها أحد سلوكياته الغريبة، فقد ألفت أساليبه.

لم تكن تفسيراتنا لترضي آيفي في الماضي، لكن فضولها حول العالم قد خفت. لا تزال تجلس في الفناء مرتدية نظارات داكنة وتضع كريم وقاية من الشمس بمعامل حماية 89، وتميل وجهها إلى الشمس. لكن تفكيرها يتحوَّل إلى الداخل، وصارت تركز على متطلبات جسدها. وفي بعض الأحيان ترتسم على وجهها نظرة تأمُّل، كما لو أنها تصارع مشكلة مستعصية.

يتكفَّل دخل آيفي الذي تحصل عليه من إيجار منزلها في الوطن بتغطية تكاليف ما تحتاج إليه لرعايتها: مقابض لإحكام قبضتها في الحمام الخاص بها، ووجبات غداء ساخنة يتم توصيلها لها خلال أيام الأسبوع، واختصاصي أقدام اسمه كوستيا يأتي لزيارتها ويتولَّى العناية بقدميها وتقليم أظافرها. كما كانت الزيارات من أحد مساعدي التمريض متاحة أيضًا، لكن فانتا لم تسمح بذلك. فهي تتصل كل صباح الآن على أمل أن تطلب آيفي المساعدة للاستحمام أو ارتداء الملابس، وتأتي بسيارتها في فترة ما بعد الظهيرة. وإذا سمحت حالة آيفي وحالة الطقس بذلك، كانتا تذهبان للتمشية جيئة وذهابًا في سبومانت كورت. وفي الأيام التي لا تكون فيها في أفضل حالٍ، تجرجر آيفي خطواتها مثل الفقمة، وتتنزهان لعشرين دقيقة، الفقمة

والحصان، ذراعًا بذراعٍ. أعلنت آيفي وهي تحلُّ وشاحها أنهما قررتا أن تولدا من جديدٍ في صورة سحب، وصاحت: "سيتألَّف جوهر عقلنا من قطرات الكريستال".

تغني فانتا لآيفي أغاني مثل "بالاد لوسي جوردان". قضت ميل عطلة الربيع في باريس مع دين، وظهرا في قصتها على انستاجرام في سيارة ذات سقف قابل للطي وقد خفضا السقف، ولاح برج إيفل على الضفة البعيدة لنهر السين. ارتدى دين كنزة فضية اللون، بينما ارتدت ميل فستانًا برتقاليًّا من النيوبرين، وقدمت ماريان فايثفول الموسيقى التصويرية. شاهدت فانتا منشور ميل، ولم تسمع سوى امرأة تغني عن الشوق اليائس. بنهاية الأغنية، يتحقق الشوق ويُدمَّر أيضًا. كانت فايثفول مدمنة سابقة، تعرف خطورة الأحلام. ولا يمكن أن نتوقع من فانتا أن تفهم ذلك. بحثتْ عن الأغنية على "سبوتيفاي"، وقالت ببساطة: "لوسي هي أنا". إذا كنت في سن العاشرة، تُعالج من التيفوئيد في مستشفى بالمدينة، ودمرت قنبلة أمريكية طائشة قريتك وكل شخص تعرفه، هل ستتمكَّن من التمييز بين الواقع والأحلام؟ يبدو عقل فانتا مكانًا مسحورًا، وكلمات الأغنية بمنزلة تعاويذ قوية: باريس، وسيارة رياضية، ورياح دافئة. بالطبع قد تكون الإشارة إلى الشعر هو ما سحرها: شعر هوَّشته الريح، مما يتطلَّب خدماتها. تقول آيفي إن صوت فانتا يشبه صوت آلة حفر طبيب الأسنان. ماذا تعرف آيفي عن أطباء الأسنان؟ على حد علمي، فلم تحتج إلى أحدهم من قبل، على الرغم من أنها تأكل الشوكولاتة قبل الذهاب إلى الفراش وتنام من دون تنظيف أسنانها بالفرشاة.

***

هنـاك أيـام تبـدو فيهـا قمصـان روس التـي بألـوان الباسـتيل ضيقـة فـوق صـدره، وفي أحـد تلـك الأيـام، انتهـى الاجتـماع، لكـن روس تـردَّد في السـماح لي بالرحيـل. أراد أن يحـكي لي ذكرياتـه عـمَّا اضطـر إلى التخـلي عنـه عندمـا انتقـل إلى ملبـورن: المناظـر البانوراميـة مـن شـقته البنتهـاوس، ونشـوة الإسراع عـبر المينـاء في الأمسـيات التـي يتوجـه فيهـا هـو وبـورش إلى دار الأوبـرا في التاكـسي المـائي الخـاص بهـما. التمعـت عينـا روس الزرقـاوان الخاويتـان عـادة، ووصـف حينهـا أشـياء لم أكـن لأتخيـل أبـدًا أنـه سـيلاحظها. أخـبرني أنـه يفضِّـل صـوت غسـالات الملابـس في سـيدني، وتحـدث عـن رائحـة البحـر التـي تتسـلل بـين ناطحـات السـحاب، وحـزن عـلى أضـواء سـيدني الذهبيـة. قـال لي: "كان يبـدو كـما لـو أن الضـوء انعكـس مبـاشرة مـن عـلى أشـجار السـنط. لكـن حتـى الأضـواء اللعينـة بـاردة كالثلـج هنـا". في بعـض الأحيـان يبـدو أن روس لا ينعـي ضيـاع مدينـة، بـل شيء أبعـد منـالًا. وكـما لـو أنـه يؤكـد ذلـك، قـال: "يـا صـاح، هـل تذكـر وقتًـا كانـت فيـه حياتـك في غايـة الفـوضى حقًّـا؟ عندمـا كان لا يـزال في وسـعك إفسـاد الأمـور بأكـثر مـن طريقـة؟".

سـألته ذات مـرة لمـاذا لم يبـقَ في سـيدني بعـد انهيـار بنايتـه السـكنية، فبـدا الاندهـاش عـلى روس، وقـال: "ألم تـرَ مـا حـدث مـن حـوادث الطقـس المتطـرف؟ اختفـت رؤوس بحريـة بأكملهـا. ولا تنـسَ العناقيـد الفيروسـية. انتـشرت في وولاهـرا تلـك السـلالة فائقـة الـضراوة مـن فـيروس أسـبن، وقالـت بـورش إنهـا لـن تشـعر بالأمـان أبـدًا وهـي تنشـئ أسرة هنـاك. نصحهـا مرشـدها الصحـي بعـدم القيـام بذلـك. قـال لهـا إن في وسـعها إحـراق أعـواد المريميـة كـما تشـاء، لكـن تلـك القصـور سـتظل تنـشر الفيروسـات إلى الأبـد. لا، لم يعُـد هنـاك سـوى المسـتأجرين واللبنانيـين في جميـع أنحـاء الضواحـي الشرقيـة الآن".

"لكن لا بد أن هناك أماكن بعيدة عن الماء؟".

جفل روس، وقال: "ملبورن أفضل".

شغلت العقارات ذهني بسبب محادثة أجريتها مع أحد الجيران. لطالما عاش بوني وإيفان على الجانب الآخر من الطريق، لكن منزلهما صار معروضًا للبيع الآن. كبر أولادهما ورحلوا عن المنزل، فقررا التقاعد في نيوزيلندا. كان إيفان من أصل نيوزيلندي، لذا لم يضطرا إلى المرور بإجراءات الهجرة الشاقة التي تبعد معظم الأستراليين. وتصادف أننا أنا وبوني كنَّا نجز العشب في شريط الطبيعة الكائن أمام منزلنا في نفس الوقت، ثم تبادلنا الحديث عقب انتهائنا.

قالت لي بوني: "نشعر بالقلق، فقد جاء الكثير من الناس لرؤية المنزل، لكن معظمهم من سكان سيدني، وكما تعلم، كان ذلك النوع من الناس يعيشون في رغد هناك، قبل انهيار منازلهم في البحر. لجأوا للإيجار في ملبورن، بينما يبحثون عن خيارات مناسبة للشراء، وقد خلصوا أخيرًا إلى أنهم لا يستطيعون تحمل تكلفة أي شيء آخر أقرب إلى وسط المدينة".

"أليس هذا شيئًا جيدًا؟".

"المشكلة هي أن وكيلنا العقاري أخبرنا أنه من الصعب إرضاء سكان سيدني. هل سمعت عن الخزانات التي يمكن التجول بداخلها؟ فعلى ما يبدو، لا يقنع أولئك الناس بالخزانات التي يمكن دخولها فحسب. كما أنهم يطلبون وجود حمام سباحة، ولا يصدقون أن هذا ليس منتجعًا. ثم أن هناك عدد الحمامات، لكنهم لا يسمونها حمامات، بل يطلقون عليها دورات مياه، ويجب أن يكون هناك واحدٌ لكل غرفة نوم. قالت امرأة: "لديَّ فتاتان في سن المراهقة، هل تتوقعين حقًّا أن تتشاركا دورة مياه؟"".

"لكن من المؤكد أن بعض المشترين من ملبورن أيضًا أبدوا اهتمامهم؟".

"لا، مجرد أزواج لديهم أطفال صغار، لكنهم قلقون بشأن تكلفة تنقلاتهم من هنا. كما أنهم يريدون ألواح الطاقة الشمسية، وظلَّ رجلٌ يتحدث عن الطريق السريع، وصمم على الحصول على تقريرٍ كاملٍ عن نسبة الرصاص في التربة. يعتقد الوكيل العقاري أنها كانت مجرد إستراتيجية لخفض السعر، لكنني لا أعرف". تنهدت بوني، ثم تابعت: "كما أن إيفان في حالة مزاجية سيئة، لأنني اشتريت بعضًا من تلك الشموع القديمة التي لها رائحة تشبه مهبل جوينيث، لقد تكلفت ثروة على موقع إيباي، لكنه يعتقد أنها تتسبب في إبعاد الناس".

أُقيم المزاد يوم سبت ربيعي لطيف. لم نحتج أنا وشانيل إلا إلى ارتداء ملابس خفيفة للتدفئة، بينما كنا نتابع العطاءات من فنائنا. دَفَعَنا أعلى عطاء إلى التفكير العميق، وفي النهاية سحب إيفان وبوني منزلهما من المزاد، وقرّرا تأجيره، ثم تكرار محاولة البيع مرة أخرى بعد عدة سنوات. والآن، صارت أسرة من ساموا تعيش على الجانب المقابل من الطريق، وقد أهملوا شريط الطبيعة الكائن أمام المنزل، حتى إن العشب قارب الوصول إلى ارتفاعٍ يفوق ركبتي. وصرنا نتفقد الوضع كل يوم لنرى ما إذا كان أولئك القادمون من ساموا قد كسروا الستائر المعدنية. لقد انقلب حال العالم: مستأجرون في سبومانت كورت!

***

أتى الرئيس التنفيذي لمؤسسة شانيل وزوجته لتناول العشاء. كما دعونا أيضًا المدير المالي وزوجته، لكنه أرسل رسالة في ذلك اليوم يقول فيها إن حالة زوجته لا تسمح بالسفر لمسافات طويلة في

الوقت الحالي. لا يهم، فكما أشارت شانيل، سيجعل هذا الأمسية أكثر حميمية: "فرصة للتعرف حقًّا على جافينا وكريج".

في سن الخامسة والأربعين، كان كريج أصغر رئيس تنفيذي للشركة على الإطلاق. قبل ذلك، ترك شركة اتصالات بعد أن دمرها وحصل على ستين مليونًا، وقد اكتشف مؤخرًا قاموسًا للغات شعب كولين، من السكان الأصليين، وأطلقت عليه صحيفة الجارديان لقب "القنبلة"، وقالت شانيل إنه "غيَّر قواعد اللعبة"، وكانت هي والجارديان يقصدان استخدامه لكلمات من لغة شعب كولين، مثل تعبيرات بمعنى "سأشعل نارًا ضخمة"، و"أغمض عينيك"، و"دعونا نسير معًا"، وإدراج هذه الكلمات في النشرات الإعلامية التي تشرح أسباب وجوب التضحية بالمواقع المقدسة للسكان الأصليين من أجل التعدين.

وصل ضيفانا متأخرين ساعة، ودفع إليَّ كريج بزجاجة شمبانيا دافئة قائلًا: "كان علينا استخدام كيس ثلج، لكن لم يكن لدينا أدنى فكرة أن الأمر سيستغرق وقتًا طويلًا إلى هذا الحد للوصول إلى هنا". وكادت جافينا تخنق شانيل بباقة ضخمة من الزهور، وهي تقول: "ها أنا، مديرة عقارية رائدة في ملبورن، ولم أسمع عن هذه الضاحية من قبل".

قدنا ضيفينا إلى الردهة، وسألت جافينا عما إذا كنا نصف المنطقة بأنها "شبه حضرية". حينها، دخلت آيفي. لم تعد تهتم بالتأنق الآن، ولا حتى من أجل برام، واكتفت بارتداء أفضل بذلة رياضية لها. لكن خاتمها المرصع بالزمرد كان في مكانه، وبدت أظافرها بلون تركوازي لامع، من إبداع فانتا. توجهتْ إلى كريج، الذي كان واقفًا ويداه خلف ظهره، فاستسلم لها في الحال، وتبعها بتواضعٍ إلى الأريكة. بينما كنت أحمل الشمبانيا الدافئة، سمعتها تقول: "الآن، أخبرني كل شيء عنك".

بعد عشر دقائق، كان كريج لا يزال يتمتم بالحديث عن طفولته في كندا، ووصلتنا بعض الكلمات الشاردة: "كاياك"، و"كرز الطيور"، و"تهذيب مميت". بدت الردهة رائعة، فقد اشترت شانيل زهورًا صناعية غضة لهذه المناسبة: باقات رسمية امتزجت فيها الزهور والأوراق. مالت جافينا جانبًا في مقعدها المصنوع من الفينيل بلون الكراميل، ولم يتحرك شعرها المقصوص على نحو قصير بلونه الأزرق الثلجي، وبدا كما لو أنه متجمد ومستند إلى كتفيها. داعب طرف إصبعها زهرة كالا صناعية من الحرير لها شكل الرحم، وقالت: "رائع!"، ثم استقرت في مقعدها مرة أخرى. ارتدت اللون الأسود والألماس، مثل أرملة زعيم مافيا. وكلما نظرت جافينا إلى آيفي، أشاحت بنظرها مرة أخرى. بدا حاجبا آيفي سميكين وفضيين على نحو أنيق، لكنها فقدت الاهتمام أو التوافق العضلي العصبي بين اليد والعين بعد ذلك، حيث بدت شفتاها في حركتهما كديدان عجوز هزيلة، تحت أحمر شفاه غير متناسق. بدا أن جافينا تعاني لصياغة شيء ما بين الصلاة والنذر: شيء يتراوح بين "أرجوك، أطلق عليَّ النار لو..."، و"أقسم إنني لن أفعل أبدًا...".

التفتت نحوي كي تهرب من المنظر، وسألت: "ما هذا الصوت؟".

"فريق كولد بلاي".

"أعني ذلك الصوت الآخر".

عادت شانيل إلى الغرفة حاملة طبقًا من سلاطة لحم البقر الحارة، وقالت: "إنه الطريق السريع".

قالت جافينا: "إن الزحف العمراني حقيقي بكل تأكيدٍ. لم تكن لديَّ فكرة أن ملبورن... مترامية الأطراف إلى هذا الحد".

تركت آيفي كريج، وسألتها: "أين تعيشان؟".

وجَّهت جافينا حديثها إلى وحدة الأرفف، وقالت: "في هاثورن، على الأرجح أنت لا...".

"منذ زمن طويل، تمشيت بجوار النهر هناك، على جانب ريتشموند، كان الجو خريفيًّا رائعًا".

"يطل منزلنا على النهر من الخلف، وتمتد حديقتنا حتى المرسى الخاص بنا. نحتفظ بكرسيين للاستلقاء هناك، وهو مكاننا المفضَّل، ومن المهم جدًّا أن نضع في اعتبارنا أننا نعيش على نجم".

قلت: "هل نعيش على نجم حقًّا؟"، وقد أثار الأمر اهتمامي، لأنه يتعارض مع كل شيء تعلَّمته عن النظام الشمسي.

قالت آيفي: "لقد شعرت بالحزن الشديد يومها، لأنني فكرت أنه سيتوجب إطلاق النار على كل الأشخاص الذين يعيشون في تلك القصور. كان والداي من الشيوعيين، كما ترين، وقد تعلَّمت على يد راهبات. اختلفنا في الرأي حول كلاب آل رومانوف: هل كان يجب إعتاقها من الموت؟ أخبرني كريج أنه نشأ على يد الراديكاليين في البراري، وكانوا يطلقون النار على كلابهم من دون تردد عند أول علامة للمرض. لقد تعلم كلانا الفرق بين الخطأ والصواب، وشعرنا بالارتباك عند تشجيعنا على مساءلة الكبار".

لم يكن تأثير الشمبانيا هو السبب، فعندما عرضتُ عليها كأسًا، نظرت إليها آيفي كما لو أنها تحتوي على عنكبوت، كل ما في الأمر هو أنها تعتقد أن الجميع مفتونون بقصة حياتها. ولحسن الحظ، كان وصول ضيفينا في وقتٍ متأخرٍ يعني أنها سرعان ما أحسَّت بالإرهاق، واضطرت إلى الخلود للنوم. نهضت ومدَّت يدها إلى كريج، فقفز واقفًا وصافحها، واستطعت رؤية آيفي وهي تفكر: "يا له من أحمق!".

قال لي كريج عندما رحلت: "يا لها من امرأة رائعة!".

عـادة مـا تُلصـق بآيفـي الأوصـاف المملـة مـن هـذا النـوع، وهـي مسـميات تمجـد مـن شـأنها وتختلـق لهـا الأعـذار. انضممـت إليـه في تظاهـره، ووافقتـه قائـلًا: "أجـل، إنهـا غريبـة الأطـوار، سـنها، كـما تعلـم..."، ولمسـت جانـب رأسي. الحقيقـة هـي أن آيفـي مزعجـة بطـرق عاديـة للغايـة. لـو أن كريـج سـمع فقـط امرأتـه الرائعـة هـذه وهـي تسـعل! سـيتبادر إلى ذهنـه وقـوع قصـف جـوي، أو كارثـة طبيعيـة، أو هجـوم إرهـابي، وبعـد ذلـك، سيفكر في "المخاطـر البيولوجيـة"، وهـو يمسح جميـع الأسـطح بمناديـل مبللـة مضـادة للبكتيريـا.

انتقلنـا نحـن الأربعـة إلى مائـدة الطعـام. جرَّبنـا أنـا وشـانيل مجموعـة مـن مأكـولات الشـعوب المختلفـة عندمـا جئنـا لأول مـرة إلى أسـتراليا، لكنهـا تخصصـت عـلى مـرِّ السـنين في المأكـولات التايلانديـة. وهـذا هـو مـا تعـده لـ"يـوم الطعـام العالمـي" الـذي يُعقـد في العمـل لـدى كلينـا، وفي كل عـام يقـول أحدهـم: "أوه، لم أكـن أدرك أن لديـك إرثًـا تايلانديًـا"، فنضطـر إلى أن نوضـح: "نحـن أسـتراليون حقيقيـون، ونحـب جميـع الأطعمـة العرقيـة، لكـن المفضَّـل لدينـا هـو التايلانـدي". وبطبيعـة الحـال، لا نطبـخ للآخريـن أبـدًا طعامًـا مـن وطننـا، إذ سـيكون هـذا خطـأ فادحًـا يمكـن مقارنتـه بارتـداء الملابـس التقليديـة، وأيـن سـيوصلنا ذلـك؟ في لوحـة جداريـة تحتفـي بالتعدديـة الثقافيـة، تصـور شـخصيات مبسـطة وملونـة تثـير الإعجـاب، وتدفـع المـرء إلى تقييمهـا، لكنـه لا يخطـئ أبـدًا في الظـن بأنهـا تمثِّـل الجنـس البـشري. إليكـم اختبـارًا: هـل سـبق وأن ظهـر دنمـاركي في لوحـة جداريـة كهـذه مـن قبـل؟

تناولنـا كعـك السـمك كطبـقٍ أول، وسـأل كريـج شـانيل عـن الوصفـة، وأجـرت جافينـا معـي المحادثـة المعتـادة بخصـوص الإرث التايلانـدي. وقعـت الكارثـة بينـما كنَّـا نتنـاول المأكـولات البحريـة بالـكاري الأحمـر، ولحـم البقـر بالثـوم، وأرز الياسـمين، وسـلطة البابايـا الخـضراء. كان البـاب بـين غرفـة الطعـام والمطبـخ مفتوحًـا، وكذلك الباب مـن المطبـخ الى الردهة.

ويحتوي حمام آيفي الملحق بغرفة نومها على بابٍ ثانٍ ينفتح على الردهة، كي يتمكَّن الضيوف أيضًا من الوصول إليه. حلَّت فترة صمت وسط الحديث، وعلا وسط الصمت... صوت، ثم تلاه صوت آخر، آمل أن يكون ما أعنيه واضحًا، وألَّا أحتاج إلى الشرح. بقدرٍ رائعٍ من الحضور الذهني، مددت يدي إلى هاتفي ورفعت صوت الموسيقى، لكنها لم تفلح في إخفاء ما حدث بعد ذلك، وهو ما لا يمكن وصفه سوى بكونه انفجارًا، بعد ذلك، سمعنا "اللعنة!"، على نحوٍ خافتٍ مع نغمات كريس مارتن.

ثم انتقل الحديث إلى عائلاتنا بينما كنَّا نتناول الزلابية الحلوة وآيس كريم جوز الهند. لم يعد والدا كريج على قيد الحياة، فقد رحلت والدته منذ زمن طويل، ثم تلاها والده في الوباء. قال كريج: "كان عجوزًا رائعًا، وكان لا يزال أمامه الكثير من العمر، لكننا لم نتمكن حتى من وداعه كما يجب".

قالت جافينا: "أنا متزوجة بكلب جولدن ريتريفر ضخم وقوي، أليس كذلك يا كريجلز؟ كي أصدقك القول، لم يكن من الممكن أن يصير التواصل مع روب عبر زووم مرضيًا أكثر من ذلك، لقد شعرت بأنني حاضرة تمامًا خلال نهاية حياته". ثم نظرت إلى شانيل، وقالت: "ماذا عن والديك؟ هل نجيا من الوباء؟".

"لقد نجيا، وهما في شيكاجو، حيث تعيش شقيقتي، كما أن ابنتنا هناك أيضًا، تدرس الهندسة المعمارية".

"أعتقد أنهم جميعًا يعيشون معًا".

"أقام والداي مع شقيقتي في البداية، لكنهما حصلا بعد ذلك على شقة في مبنى سكني لكبار السن، والآن، صارا مهتمَّين بمسابقات السكرابل، والرقص والسفر. لقد تحوَّلا إلى ذلك النوع من الأزواج

الذين تشاهدينهم على مواقع الإنترنت الخاصة بالمعاشات التقاعدية، وهما يرتديان معاطف مبطنة متطابقة ويتفقدان شلالات نياجرا".

قالت جافينا: "أنت محظوظة للغاية لأن شقيقتك هي التي ستضطر إلى تحمل المسؤولية عندما يصبحان عبئًا، أعني، إن المجتمع لا يحتاج إلى أي شخص فوق سن الخامسة والسبعين. حسبما أرى، تتطلب الاستدامة الإجابة عن سؤالٍ بسيطٍ: من الذي نصطحبه إلى المستقبل؟ كان والداي مفيدين بشكلٍ خيالي عندما كانت التوأمان صغيرتين، لكن أليكسا وسيري في سن المراهقة الآن". بدت جافينا متألقة للغاية، إلى درجة أنني بالكاد استطعت أن أنظر إليها: كان هناك شعرها الجليدي المبهر، بالإضافة إلى وهج الألماس. يجب أن تأتي مصحوبة بإشعار تحذيري، وتلك النظارات الواقية المستخدمة للتحديق إلى الشمس.

تابعت الحديث قائلة: "والدي في الرابعة والسبعين من عمره، وهو يتناول دواء لارتفاع ضغط الدم، أما رئة والدتي فلم تتعافَ تمامًا بعد كوفيد. كانت تلك هي مشكلة ذلك الفيروس، أليس كذلك؟ إذ إنه لم يخفِّف من عدد كبار السن كما كنَّا نأمل، وهذا لا يترك سوى خيارٍ واحدٍ في الواقع. أنا وشقيقي نعلم أننا سنضطر إلى أن نجري مع والدينا حوارًا حول الأخذ بالتعديل، قبل أن تخرج الأمور عن السيطرة. لن يمانع والدي، في الواقع، لكن والدتي هي التي ستمثِّل تحديًا. هذا هو حال الأمهات، أليس كذلك؟".

قال لي كريج: "من الجميل للغاية أنك تستضيف والدتك، يا لها من عجوز رائعة...".

قالت جافينا: "إن تشارك الأجيال في العيش معًا هو واحد من تلك السمات العرقية الرائعة، وهو أشبه بقدرة المرء على جلوس القرفصاء، فهو أمر طبيعي بالنسبة إلى من هم على شاكلتكما، لكن

الغربيين فقدوا المقدرة على ذلك من قبل... قبل ظهور الميكرويف. أخشى أن ثقافتنا مختلفة تمامًا".

قلت لشانيل لاحقًا، بينما كنا نرتب المكان: "كريجلز". واصلتْ نقل لحم البقر بالثوم إلى وعاء بلاستيكي، باستخدام ملعقة لكشط الطبق، ووجهها خالٍ من أي تعبير. قلت لها: "لا بأس، لقد تفقدت كل شيء قبل أن نقدم الحلوى. كانت آيفي قد بذلت جهدًا للتنظيف بالفعل، لكنني فركت المرحاض مرة أخرى، ووضعت معطر هواء جديدًا من باب الاحتياط. بدا الحمام على ما يرام عندما استخدمته جافينا". تنهدت شانيل وهي تغلق الثلاجة، ثم التفتت، فشعرتُ بالخوف.

***

حتى يومنا هذا، أجد نفسي أتساءل: ما هي الكلمات التي حسمت الموضوع؟ عرقية؟ من هم على شاكلتكما؟ جلوس القرفصاء؟ لم نتناقش أنا وشانيل حول أي شيء قيل على العشاء في تلك الليلة، بل تحدثنا عن العقارات بدلًا من ذلك. إن العقارات هي طريقة أخرى للتعبير عن أستراليا نفسها: اكتسابها، وتطويرها، وجني الأرباح منها، أي باختصارٍ، إدارة دورة الممتلكات بثقة، وهي قصة أمتنا. لطالما وجدنا أنا وشانيل الموضوع مشجعًا، ويبعث على الحماس والشعور بالهدوء في نفس الوقت، ومع ذلك، انتابتني الدهشة عندما أعلنتْ مساء أحد أيام الأحد أن الوقت قد حان كي ننتقل إلى منزلٍ جديدٍ، قلت: "لكن من المقرر أن نجدد دورة المياه في الطابق العلوي العام المقبل، وسنتمكن من قضاء عطلات نهاية الأسبوع في صالات العرض، وإعادة التفكير في الصنابير".

كنت أعرف بالفعل، بالطبع، أن حفل العشاء الذي عقدناه حقَّق نجاحًا كبيرًا. بدأ كريجلز يمر بمكتب شانيل كل أسبوع، ودائمًا ما

كان يطلب إبلاغ سلامه لآيفي. قال إنه لم يرَ مثل هذه الحواجب الرائعة على امرأة في مثل عمرها. ومن المهم أنه أضاف كلمة جديدة إلى قاموس مفرداته من لغة شعب كولين، وهي "كوتوك"، بمعنى الشقيقة الصغرى. وفسرت شانيل ذلك بوصفه إشارة إلى أن كريجلز ينوي تحطيم سقف الشركة الزجاجي الملون: كان سيصطحبها إلى المستقبل.

في يوم الأحد ذاك، بينما نحن مسترخيان في غرفة المعيشة بعد العشاء، كشفت شانيل عن المزيد من المعلومات، إذ أخبرها ماك، مساعد المدير المالي، أن المدير المالي يتعرض لضغوطٍ هائلة للعودة إلى زيورخ. قالت شانيل: "يبدو أن زوجته تفتقد الخدمة العسكرية الإجبارية. لا يطيق ماك تلك المرأة، ويدَّعي أنها تفتقد الانهيارات الجليدية أيضًا، فهي طريقة طبيعية لطرد

الأجانب من الكانتونات". توصَّلت شانيل وماك إلى نفس الاستنتاج: سيبقى المدير المالي لمدة عام آخر في أحسن الأحوال.

واصلت شانيل قائلة: "سنرغب في الانتقال إلى منزلٍ أصغر عاجلًا أم آجلًا، كما سأرغب في استقبال الضيوف بانتظام بمجرد ترقيتي: حفلات عشاء للمديرين التنفيذيين الآخرين، وحفلات شواء للفريق المالي. لا يمكننا أن نتوقع من الناس السفر للقدوم إلى إلى هنا. ولا يتعلق الأمر فقط بالمسافة ومشكلة الريفيين حول المحطة، بل سيرى الجميع أن هناك مستأجرين يقطنون على الجهة المقابلة من الطريق. وهو ما يذكِّرني، ألم تكن تنتوي التحدث مع أولئك القادمين من ساموا بخصوص شريط الطبيعة؟".

"جاءت الفتاة إلى الباب -تلك التي تشبه شجرة صغيرة- وقالت إن شريط الطبيعة هو مشروعها لإعادة الطبيعة البرية".

"إعـادة الطبيعـة البريـة؟ هـل أخبرتهـا أن تبحـث في جوجـل عـن الأفاعـي الأسـترالية؟".

فتحـت شـانيل جهـاز الكمبيوتـر المحمـول خاصتهـا، وربتـت عـلى الأريكـة قائلـة: "تعـال واجلـس هنـا. لـديَّ شيء أريـد أن أريـه لـك". حينهـا علمـتُ أن جافينـا تواصلـت معهـا بشـأن أحـدث مشروعاتهـا، وهـو مجمـع سـكني راقٍ قيـد الإنشـاء. قالـت شـانيل: "في هـذه المرحلـة، تتواصـل جافينا مـع بعـض الأصدقـاء فحسـب كخدمـة، كي نتمكـن مـن الـشراء قبـل بـدء مرحلـة البنـاء الفعـلي، وتوفـير بعـض المـال".

"هل ذكرت حقًّا كلمة "أصدقاء"؟".

"قالت أصدقاء".

"أين يقع هذا المجمع السكني؟".

"في الضواحي الواقعة بالقرب من وسط المدينة، شمالًا".

"لكن أين بالتحديد؟".

قالـت شـانيل: "لا يعنـي اسـم الضاحيـة أي شيء، إنهـا تقـع عـلى بُعـد أربعـة عـشر أو خمسـة عـشر كيلومـترًا فقـط مـن منطقـة الأعـمال المركزيـة".

"في الضواحي الداخلية!".

"حسـنًا، بالقـرب مـن أطـراف الضواحـي الداخليـة. النقطـة المهمـة هـي أنـه مـشروع فاخـر، في منطقـة لا تـزال جديـدة بعـض الـشيء، وهـذا يضفـي جاذبيـة شـديدة عـلى العقـارات هنـاك". ناولتنـي شـانيل جهـاز الكمبيوتـر المحمـول خاصتهـا، وتابعـت: "نحـن نتحـدث عـن سـكن متميـز في بنايـة لهـا طابـع تاريخـي، كانـت مجـزرًا في المـاضي، ومـن الواضـح أنـه أُعيـد تصميمـه وفقًـا لأعـلى معايـير التصميـم المعـاصر، لكنهـم يخططـون

للحفـاظ عـلى أرضيـة المذبـح الحجريـة الأصليـة، حيـث سـيكون هنـاك فـرع لمتجـر إينوتيـكا، ومتجـر بروفيـدور.

وصـف موقـع "برايـم كـت" عـلى الإنترنـت: "قريـة حضريـة في منطقـة ناشـئة حيـث يجتمـع الخيـال والتاريـخ والهندسـة المعماريـة معًـا لخلـق حكايـة جديـدة تمامًـا"، وأشـار الموقـع إلى "سـهولة الوصـول إلى خطـوط المواصـلات". حـددتُ موقـع المجمـع السـكني عـلى خرائـط جوجـل، فوجـدت محطـة للحافـلات عـلى مسـافة قريبـة يمكـن المشي إليهـا، كـما كان هنـاك طريـق دائـري قريـب.

قلت: "يبدو مذهلًا، أم هل يجب أن أقول يصيب بالذهول؟".

لم تسـتمتع شـانيل بالدعابـة: "إن فرصـة كهـذه تـأتي مـرة واحـدة في العمـر. أرسـلت رسـالة بريـد إلكـتروني إلى جافينـا كي أشـكرها، وردَّت قائلـة إننـا إذا تحركنـا في غضـون شـهر، فيمكنهـا أن تعطينـا خصـمًا يبلـغ خمسـة في المائـة. وهـذا عـلاوة عـلى مـا سـنوفره في رسـوم الدمغـة". ثـم أضافـت شـانيل: "انظـر، لقـد أتـت جافينـا لزيارتنـا هنـا، وحسـبما أرى، فهـي تبلغنـي أن هـذه الضاحيـة ليسـت هـي مـا تتوقعـه المؤسسـة مـن الإدارة العليـا، وهـي تحـاول المسـاعدة، إنـه تلميـح".

فكـرتُ: ربمـا كان أمـرًا. لكـن حينـما تأملـتُ الأجنحـة المعروضـة، لم أسـتطع سـوى الإعجـاب بهـا. كان هنـاك الكثـير مـن التشـطيبات المتطـورة واللمسـات الإبداعيـة! بـدا الضـوء في الصـور ذهبيًـا ودافئًـا. لا بـد أن هنـاك فلـترًا للتصويـر يدعـى "منعكسًـا مـن عـلى أشـجار السـنط". كان هنـاك أشـخاص مـن جميـع الأعـمار، التمـع الضـوء عـلى وجناتهـم، يشـترون الجـبن مـن رجـل مبتسـم يرتـدي مئـزرًا مخططًـا، أو يشربـون النبيـذ عـلى شرفـات ذات مناظـر طبيعيـة تحـت سـماء خاليـة مـن الدخـان.

قلـت: "لنكتشـف تكلفـة العيـش في مبنـى لـه طابـع تاريخـي"، واخترت الأسـعار مـن قائمـة الخيـارات. صمـت لفـترة، ثـم قلـت: "إن الشـقق التـي

بها غرفة نوم واحدة لا تصلح بالطبع، وهل رأيت البنتهاوس؟ السعر عند الاستفسار".

"من الواضح أن تكلفة البنتهاوس تفوق ميزانيتنا، ولا نريد أي شيء في الطوابق السفلية".

"بالطبع لا! فهناك سرقات منزلية تقع طوال الوقت في الشمال".

"هذا في الغرب، على أي حال، اقرأ الجزء المتعلق بأحدث مميزات الأمان. المكان مُحاط بسياج مكهرب، وسيحمل الحراس مسدسات الصعق الكهربائي. لكن هذا لا يهم، فنحن نبحث عن شيء في الطوابق الوسطى".

شرعت أراجع الأرقام في ذهني، وأوضحت قائلًا: "نحن لا نزال ندفع أقساط هذا المكان، وحتى لو حصلنا على نتيجة أفضل كثيراً من بوني وإيفان في المزاد، فلا أرى كيف يمكننا أن نجعل هذا الأمر ينجح".

قالت شانيل: "لن نبيع المكان، فهذا هو منزل طفولة ميل وسيدني. أعرف أن هناك كسادًا في العقارات هنا الآن، لكن على المدى الطويل، لا يمكن أن يخسر الطوب والأسمنت. هذا المنزل هو استثمار في مستقبل الولدين، سنؤجره، وسيتضمن عقد الإيجار بندًا بخصوص صيانة شريط الطبيعة".

"لكن كيف سنمول سكننا الجديد؟ ألقِ نظرة على المطلوب مقابل شقة بها غرفتا نوم وغرفة مكتب".

قالت شانيل: "يُطلق على الأمر مسمى تقليص حجم السكن: والاسم يعطيك الجواب. لسنا في حاجة إلى غرفة مكتب. ستكفي شقة من غرفتي نوم، وسيكون بها حمامان، علاوة على حمام صغير

للضيـوف، وإذا تصـادف قـدوم ميـل وسـيدني للزيـارة في نفـس الوقـت، فلـن يمانـع سـيدني النـوم عـلى الأريكـة".

"أجـل، لكـن..."، تنحنحـتُ. كانـت آيفـي قـد ذهبـت إلى الفـراش، وكان البـاب المـؤدي إلى الـرواق مغلقًـا، لكـن عـلى الرغـم مـن ذلـك، خفضـت صـوتي: "مـاذا عـن آيفـي؟".

وضعـت شـانيل يدهـا فـوق يـدي، وقالـت: "أعـرف أن هـذا يمثّـل تغيـيرًا في وجهـة النظـر، لكننـا نتحـدث عـن المسـتقبل، هـذا بعـد آيفـي".

بعـد آيفـي! بـدا الأمـر كـما لـو أنـه متعلـق بالوقـوف في الصـف. ضغطـت شـانيل أصابعـي. "لدينـا مـا يكفـي مـن رأس المـال هنـا لإعـادة الرهـن العقـاري، وسـيتكفّل ذلـك بأمـر الدفعـة المقدمـة لمنزلنـا الأبـدي. سـأتصل بالبنـك يـوم الاثنـين".

"الدفعـة المقدمـة هـي البدايـة فحسـب، مـاذا عـن الباقـي؟ حتـى إن تمّـت ترقيتـك...".

"سنبيع المنزل".

"لقد قلت للتوّ إننا سنؤجره".

"ليـس هـذا المنـزل، بـل منـزل آيفـي في الوطـن، لقـد ارتفعـت أسـعار العقـارات هنـاك، وتدهـورت قيمـة الـدولار الأسـترالي، إنـه التوقيـت المثـالي لبيـع ذلـك المـكان، هـل فكـرت في قيمـة الأرض وحدهـا؟ سـترث ثـروة بعـد رحيـل آيفـي".

بعـد آيفـي، بـدأت الحصـاة الكائنـة بـين ضلوعـي تـزداد ثقـلًا كالحجـر، ورأيـت نفـسي: يتيـم أعـزل، أحـاول مقاومـة الحـزن عـلى شرفـة تطـل عـلى طريـقٍ دائـري لا تحجـب رؤيتـه أي عوائـق، كـما رأيـت أيضًـا أن حسـابات شـانيل خاطئـة. قلـت لهـا: "لقـد نسـيتِ طبيعـة الوضـع هنـاك: تصفيـة الملكيـة، والتخلـص مـن المسـتأجرين، وبيـع المنـزل، يمكـن أن يـؤدي أيٌّ

مـن ذلـك إلى دعـاوى قضائيـة. سيسـتغرق الأمـر برمتـه عامًـا في أحسـن الأحـوال، ووقتًـا أطـول في الواقـع".

"أجل".

"متـى ينتهـي العمـل عـلى مـشروع :"برايـم كـت"؟"، مـررتُ الشاشـة بحثًـا عـن المعلومـات، وتابعـتُ قائـلًا: "ثمانيـة عـشر شـهرًا، ويمكـن أن تطـول هـذه المـدة، لكـن سـواء طالـت أم لا، كيـف يمكننـا التأكـد مـن أن آيفـي...".

مـن قبـل أن أنتهـي مـن صياغـة السـؤال حتـى، ظهـر الجـواب. نظـرت إلى وجـه شـانيل الهـادئ الثابـت، وأتـاني صـوت لورنـا مـن المـاضي، قائـلًا: "لا يمكـن الاعتـماد عـلى فرانـك". لكـن الـشيء المزعـج هـو أنـه لطالمـا كان في وسـعي الاعتـماد عـلى شـانيل.

***

مـرَّ أسـبوع، ولا أعتقـد أننـي حظيـت بـأي قـدرٍ مـن النـوم. يمكنـك القــول إننــي كنــت أواجــه خيــارًا بــين والــدتي وزوجتــي، لكــن الأمــر تجـاوز ذلـك بكثـيرٍ، فقــد وصلــت إلى واحــدة مــن تلــك اللحظـات الحاسـمة، عندمـا يتعـين عـلى الشـخص الاختيـار بـين المسـتقبل والمـاضي. أرســلت إليَّ شــانيل رابــط يوتيــوب، وكتبــت: "مــن الأفضــل أن نكــون واضحـين بشـأن مـا قـد ينتظرنـا في المسـتقبل". عـرض الرابـط مقطـع فيديـو وصفــت فيــه امــرأة تمريضهــا لوالدهــا خــلال إصابتــه بسرطــان الأمعــاء الــذي لا يرجــى علاجــه. كان هــذا نوعًــا مختلفًــا مــن المســتقبل، لا يريــده أحــدٌ أبــدًا. كانــت المــرأة تتوســل للموافقــة عــلى قانــون تســهيل المــوت. توقعـت أن تناقـش شـانيل معـي الفيديـو في ذلـك المسـاء، لكنهـا عـادت متأخـرة، إذ ذهبـت بعـد تمرينـات البيلاتـس لـشراء كعكـة تريـس ليتشـيس -المفضَّلـة لـديَّ حاليًـا- وشـعرت بالإرهـاق بعـد يومهـا الطويـل. عندمـا

استيقظتُ في تلك الليلة، استدعى ذهني كلمات الوزير على سلم البرلمان: "الكرامة، وحرية الاختيار، والسرعة"، وبدت كلمات مطمئنة. كانت هناك بعض العبارات الفظيعة التي قالتها المرأة في الفيديو، ثم كانت هناك "الكرامة، وحرية الاختيار، والسرعة". لم تكن تلك المرأة تريد سوى ما هو أفضل لوالدها، فكرتُ: هل يمكن أن يتسبب النقاش في وقوع أي ضرر؟

سألتُ شانيل بعد بضعة أيام: "إن مناقشة الأمور مع آيفي لن تضر، أليس كذلك؟".

فكرت لبعض الوقت، ثم قالت: "لا أرى كيف يمكن أن يتسبب ذلك في أي ضرر".

"كي نوضح لها الخيارات المتاحة".

"يبدو هذا معقولًا للغاية".

"حتى تتخذ آيفي قرارًا مستنيرًا".

"يبدو هذا منصفًا لها، في الواقع".

لذا رتبنا لرؤية برام بعد العمل في يوم الجمعة، ولم يكن الأمر غريبًا، فقد كنا جميعًا نتناول مشروبًا أو عشاءً معًا من وقت إلى آخر. تساقط رذاذ مطر خفيف عندما انتهيت من عملي في القسم، وبينما كنت أنتظر المصعد، نظرت من النافذة ورأيت المدينة متوترة ومكدسة فوق سقف من المظلات.

عندما وصل الترام الذي أستقله إلى ريتشموند، بدت السماء صافية، وأحاطت السحب حواف ذهبية رقيقة. مرَّ أحد الريفيين، يحتضن فأرًا بوجه كلب، لا، بل أعني أن العكس هو الصحيح. وصلت إلى بناية برام في نفس الوقت الذي كانت فيه شانيل تركن سيارتها في أفضل مكان أمام البناية مباشرة. يمكنها أن تركن أي شيء بصورة

موازيـة للرصيـف، في أي مـكان، في عشريـن ثانيـة، وتعـد كيفيـة القيـام بذلـك مـن تقاليدنـا العائليـة الأثيرة: تراصف عجلـة القيـادة مـع منتصـف النافـذة الخلفيـة للسـيارة التـي تركـن خلفهـا، وحينهـا -وحينهـا فقـط- تبـدأ في الانحـراف بالسـيارة. قادنـا بـرام إلى شرفتـه التـي زينتهـا بلاطـات مـن الطـين المحـروق الإيطـالي، ونافـورة ميـاه، وشـجيرات صنوبـر وكاميليـا في أصـص مـن الخـزف المزجـج. كانـت تطـل عـلى أبـراج الإسـكان العامـة البعيـدة، والمصانـع الواقعـة عـلى مسـافة أقـرب، والتـي أعيـد توظيفهـا لتصبـح شـققًا سـكنية. قلـت: "هـل لاحظتـما أن الأغنيـاء يسـكنون البنايـات، بينـما الفقـراء يسـكنون الأبـراج؟". تجاهـلاني، وانشـغلا بتفقـد الكاميليـا. ثُبتـت عـلى كل شـجيرة بربـاط بلاسـتيكي أخـضر صـورة زهـرة مكشكشـة رسـمية الهيئـة، في بيـاض شـخص مـن العـصر الإليزابيثـي. شرع بـرام يتذمـر قائـلًا إنـه يسـمد النباتـات بخلطـة خاصـة للكاميليـا، ويحافـظُ عـلى أوراقهـا خاليـة مـن الغبـار، ومـع ذلـك رفضـت الإزهـار. كانـت البراعـم تظهـر، ثـم تتحـوَّل إلى اللـون البنـي وتتسـاقط. قـال بـرام أخـيراً: "التلـوث هـو السـبب، فهـو يـزداد سـوءًا كل عـام".

قادنـا هـذا إلى منطقـة محفوفـة بالمخاطـر، فلزمنـا الصمـت. جلـب بـرام المشروبـات، وبعـض الجـبن والزيتـون، مـما تطلـب انتباهنـا لبعـض الوقـت. بـدأت الأضـواء في أبـراج الإسـكان تشـتعل كإشـارات اسـتغاثة. شـاهدت مجموعـة مـن البقـع الشـبيهة باختبـارات بقـع الحـبر وهـي تعـبر السـماء، وتسـاءلتُ بصـوتٍ مرتفـعٍ عـن المـكان الـذي تتجـه إليـه الخفافيـش. قـال بـرام: "إلى كيـو ومـا وراءهـا، إلى الحدائـق الكبـيرة وأشـجار الفاكهـة". اسـتعمرت الخفافيـش شـجرة بالقـرب مـن نافـذة غرفـة نومـي عندمـا كنـت صبيًـا، وكان صخبهـم يوقظنـي مـن النـوم. دار في ذهنـي فيلـمٌ قصـيرٌ، ظهـر بـه روس وبـورش وبـرادا وهـم يشـخرون في أسِرَّتهـم بينـما الخفافيـش تتغـذى وتتقاتـل في أشـجارها. لكـن المربيـة المولدوفيـة التـي أصابهـا الأرق والإرهـاق ظلَّـت تصـب اللعنـات وسـط ذلـك الضجيج،

والشيء الوحيد الذي كانت تعرفه على وجه اليقين هو أنها لم تعِش على سطح نجم من قبل.

وبالمناسبة، فإن الشخير ليس شيئًا من وحي الخيال، على الأقل ليس في حالة بورش، وأكد لي حديث ليريك ذلك الأمر. طلب روس منهم البحث عن علاجات للشخير، لأن بورش كانت تبقيه مستيقظًا في الليل. بحث ليريك في الأمر، وأوصوا بآلة ضوضاء بيضاء. أوه، أجل، لقد لان موقف ليريك حيالي، وقد حدث الأمر كالتالي: كنّا آخر اثنين في العمل ذات مساء، وتوجهتُ للخروج. كنت على وشك أن أنادي: "تصبحون على خير، يا ليريك". لكن شيئًا ما في وضعهم، بينما هم جالسون هناك خارج مكتب روس المظلم، مثل كلب ترير وفي وردي الشعر، جعلني أقترب قائلًا: "أنا على وشك الرحيل، آمل ألا تضطروا إلى البقاء فترة أطول كثيراً".

أحاطوا هاتفهم المحمول بكفَّيهم، كما لو أنهم يحمون شيئًا ضعيفًا. قالوا وهم لا يزالون يتأملون الشاشة الصغيرة: "لقد رحل جدي"، وتسبَّبت الأضواء في ظهور بقع رمادية أسفل عينيهم التي بلون اليوسفي. قدمت التعازي، واقترحت تناول الشاي، بينما ظللت أفكر طوال الوقت: "رحل!". كيف يتوافق هذا الشخص الشاب رقيق الحديث مع ليريك الذين سمعتهم يتذمرون ذات مرة أن رفيق فراشهم ليس لديه الوقت للقدوم ذلك المساء؟

رفضوا الشاي، وقالوا: "أنا على وشك الرحيل، سأستقل الحافلة وأذهب إلى والدتي، سأكون بخيرٍ". مع ذلك، بقيتُ هناك، محافظًا على مسافة بيننا بدافع الاحترام. كان في ذلك مجازفة بإزعاجهم، لكن بدا من الخطأ تركهم بمفردهم. منذ وقتٍ ليس ببعيدٍ، جرَّبت ميل نفس اللون الأحمر الكرزي في شعرها. أملتُ ألا ينتهي بها الأمر وهي

حزينـة بمفردهـا في مكتـب أمريـكي مظلـم، بـه بـلاط مـن السـجاد الرمـادي وكـراسٍ مريحـة.

حـزم ليريـك أغراضهـم، وحملـوا الهوفربـورد الخـاص بهـم تحـت ذراعهـم. أدخلـتُ شـفرة الأمـن، وركبنـا المصعـد في صمـتٍ، ووقفـتُ بعيـدًا قـدر الإمـكان. في الشـارع، قالـوا: "شـكرًا يـا لايـل"، قبـل وضـع سـماعات الـرأس الخاصـة بهـم والتحليـق بعيـدًا بالهوفربـورد.

منـذ ذلـك المسـاء، كثـيرًا مـا صـار ليريـك يرسـلون إليَّ ابتسـامة صغـيرة، وقـد أخـبروني بموضـوع الشـخير بينـما كنَّـا ننتظـر روس ذات يـومٍ. وصـل مضطربًـا وهـو يرتـدي ألـوان الباسـتيل، وقـال: "آسـف، يـا رفـاق! وقعـت بعـض الدرامـا في آخـر لحظـة. أعلنـت المربيـة المولدوفيـة خـلال الإفطـار أنهـا تريـد العـودة إلى وطنهـا، وتدعـي أنهـا اشـتاقت إليـه. مـا الـذي يمكـن أن يفتقـده المـرء في ذلـك المـكان القـذر؟ لا، بـل كانـت تحـاول إجبارنـا عـلى زيـادة أجرهـا، ولـو لم تكـن بـرادا شـديدة التعلـق بهـا، لأوصلتهـا بنفـسي إلى المطـار في التـو واللحظـة".

في ريتشـموند، غابـت آخـر آثـار الغـروب أخـيرًا، وأشـعل بـرام أضـواء نافورتـه، وكذلـك الأضـواء المختفيـة وسـط شـجيرات الصنوبـر، وعندمـا جلـس ثانيـة، قـال: "إذن؟"، بصيغـة السـؤال. عقـد ذراعيـه، ووضـع كفَّيـه تحـت إبطيـه، ثـم أخرجهـما وفركهـما بسرعـة. لم تكـن المدفـأة المعلقـة نـدًّا للريـح، لكـن عندمـا يعلـن التقويـم حلـول الربيـع، يحـب بـرام تنـاول المشروبـات في الخـارج قبـل العشـاء.

تحدثـت شـانيل بهـدوء لبعـض الوقـت، وكان لحفـل العشـاء وكل مـا تـلاه تأثـيرٌ منعـش رائـع عليهـا؛ زالـت حـدة مزاجهـا، وارتفعـت روحهـا المعنويـة كـما لـو كان ذلـك بفعـل حمالـة صـدر قويـة. اسـتمع بـرام إليهـا مـن دون مقاطعـة، ولا شـك أنـه سـمع نفـس الـشيء مـن عائـلات أخـرى، وعندمـا انتهـت، قـال: "مسـتحيل". كان كرسـيه هـو الأبعـد عـن شـجيرات

الصنوبر المضيئة، وبدا كأنه يزمجر من بين الظلال: "ليس لدينا حتى تشخيص".

قالت شانيل: "ولن نحصل على تشخيصٍ أبدًا، كما تعلم. لا بد أنك لاحظت افتقاد آيفي حماسها القديم، وقد وُضع التعديل لمثل هذه الحالات".

قال نفس الصوت الخشن: "الأمر متروك لآيفي، يجب أن يأتي الطلب من المريض".

"هل آيفي على دراية حتى بالتعديل؟ أنت تعرف كم يمكنها أن تكون ساذجة، لهذا نطلب منك التحدُّث معها وإطلاعها على خياراتها، ففي هذا إنصاف لها. ورغم قولك إنه لا يوجد تشخيص، لكنك أخبرتنا أنه لا يمكنك استبعاد السرطان، أليس كذلك؟". لم يرد برام، فواصلت شانيل: "إلى أي مدى تعتقد أن المرض تقدَّم؟ المرحلة الثانية؟ الثالثة؟ ما يشغلنا هو معاناتها".

قال برام بعد دقيقة: "إذا كانت مصابة بالسرطان، فهو يتقدم ببطء، أنا على يقين من هذا. تواجه آيفي صعوبة مستمرة في حركات الأمعاء، لكن وزنها استقر، وقد ثقلت حركتها بشكلٍ عام، لكن هذا ليس مفاجئًا في عمرها. إن الحديث عن المعاناة...".

قالت شانيل: "هناك امرأة على يوتيوب، أُصيب والدها بسرطان الأمعاء، وأخذ يتقيَّأ البراز في المرحلة الرابعة. كل ما نطلبه منك هو إجراء محادثة مع آيفي، وتوضيح ما يمكن أن يحدث من دون تدخل طبي، ومناقشة ما قد يعنيه الأخذ بالتعديل، وسيكون القرار لها بالكامل".

"لماذا لا تتحدث معها أنت، يا لايل؟ أنت ابنها، هذه المحادثة ليست من شأني"، ثم نهض برام وتوجه إلى الداخل.

التقـت نظـرة شـانيل بنظـرتي، إذ كانـت قـد اقترحـت نفـس الـشيء، لكـن كيـف يمكننـي طـرح الموضـوع؟ فقـد ظلَّـت عبارتهـا تلـك عالقـة: "اللحظـة التـي احتضنتـك فيهـا لأول مـرة". تخيلـت نفـسي وأنـا أسـتعد للحديـث مـع آيفـي، واكتشـفت أن الحجـر الجاثـم بـين ضلوعـي تحـوَّل إلى حجـرٍ عـلى لسـاني. وبينـما أنـا جالـس هنـاك عاجـز عـن الحديـث، مـا الـذي يمكـن أن تقولـه آيفـي؟ قلـت لشـانيل وأنـا أشـير بيـدي: "لـن أكـون أكـثر نفعًـا مـن هـذه!"، فنظـرتْ متحـيرة إلى أقـرب شـجيرة صنوبـر في أصيصهـا الخـزفي.

عـلا صـوت مرحـاض، ثـم جـرى المـاء مـن صنبـور مفتـوح، وظهـر بـرام، قصـيراً ورشـيقًا وهـو يعـبر ردهتـه ذات الضـوء الذهبـي. كان يرتـدي بذلـة رياضيـة وحـذاءً رياضيًـا، لكنـه بـدا أنيقًـا ومتحـضرًا مثـل غرفتـه. عـلى الشرفـة، مـال إلى الأمـام في كرسيه بحيـث صـار وجهـه في الضـوء، وتحـدث بهـدوء، وهـو يتحكـم في صوتـه، بتلـك النـبرة التوضيحيـة التـي يسـتخدمها الآبـاء مـع أطفالهـم المتحمسـين بدرجـة زائـدة. "انظـرا، هنـاك قـدرٌ لا بـأس بـه مـن الاسـتياء وسـط الدوائـر الطبيـة، بخصـوص ذلـك التعديـل، فهـو يتعـارض في المجمـل مـع القناعـات السـائدة، لكـن يمكـن العثـور عـلى بعـض الحـالات التـي يتواطـأ فيهـا الممارسـون مـع الأسر مقابـل أجـر، ويعملـون عـلى تسريـع الأمـور. وقـد شُـطب فـرد أو فـردان، ومُنعـوا مـن ممارسـة المهنـة، وحتـى لـو أرادت آيفـي الأخـذ بالتعديـل، فـلا يمكننـي أن أشـهد بصـدقٍ أنهـا سـتموت في غضـون ثـلاث سـنوات".

سألته شانيل: "وهل يمكنك أن تشهد بصدقٍ أنها لن تموت؟".

التمعـت غرفـة معيشـة بـرام خلفه كسـبيكة ذهبيـة: الأرضية الخشـبية، والجـدران التـي بلـون الشـمبانيا، والأضـواء الأنيقـة التـي انتـشرت مـن المصابيـح الجانبيـة، والخزانـة المطليـة بالورنيـش، والمزهريـة الصينيـة الصفـراء في مكانهـا المضـاء، بـدا كل ذلـك لامعًـا ومتوهجًـا. شـعرت بدرجـة

حـرارتي تتغـير. ناقشـنا أنـا وشـانيل كل شيء، وكانـت أوامرهـا واضحـة: "دعنـي أنـا أقـود دفـة الحديـث". لكـن الغرفـة الذهبيـة أمرتنـي بخـلاف ذلـك. لقـد خاطـرت بمسـتقبل أسرتي حتـى يتمكَّـن بـرام مـن مواصلـة الاسـتمتاع بتلـك الغرفـة. وهـا هـو الآن يجـرؤ أن يتحـدث عـن الحقيقـة! سـألته بهـدوءٍ، كـما لـو أننـي أتبـادل معـه حديـث عـادي: "كيـف حـال جاريـد؟ هـل خـرج مـن السـجن بعـد؟".

***

لم تعـد آيفـي تتنـاول وجباتهـا الغذائيـة المتوازنـة، حيـث تتركهـا لتذبـل في الثلاجـة، بينـما تعـد فانتـا الغـداء الـذي تـصر عليـه آيفـي: أرزًا طريًـا نشـويًا غارقًـا في الفيجيمايـت الممـزوج بالمـاء السـاخن، وفوقـه بيـض مقـلي. لذلـك عندمـا وصـل بـرام لرؤيـة آيفـي يـوم السـبت التـالي، طلبـتُ منـه التحـدث معهـا عـن نظامهـا الغـذائي، مـن بـين أمـور أخـرى. أجـاب: "لقـد ظللـت أحادثهـا عـن نظامهـا الغـذائي طـوال سـنوات، ولم تعِـر الأمـر أي اهتـمام قـط، ومـاذا يهـم في ذلـك الآن، عـلى أي حـال؟". لكـن الأمـر كان مهـمًا، لأنـه يفسـح المجـال لسـوء الفهـم. لم نكـن أنـا وشـانيل مهملـين ولا مسـيئين، لكـن مـن يـدري أي نـوع مـن التفسـيرات المجنونـة يمكـن لشـخصٍ غـير مسـتقرٍّ مثـل فانتـا اسـتنتاجه مـن الوضـع، إذا لم نوضـح أن رفـاه آيفـي هـو شـاغلنا الرئيـسي، في الأشـياء الصغـيرة، كـما في الأشـياء الكبـيرة؟

قابلـت آيفـي بـرام في غرفتهـا لأننـي أخبرتهـا أنـه يتعـين عـليَّ تنظيـف الردهـة بالمكنسـة الكهربائيـة. ظـلَّا هنـاك معًـا، والبـاب مغلـق، لمـا بـدا كأنـه دهـر بأكملـه، وعندمـا خـرج بـرام أخـيرًا، كنَّـا أنـا وشـانيل في الانتظار. بـدلًا مـن كنزتـه المحبوكـة التـي بلـون العشـب الصناعـي، ارتـدى بذلـة داكنـه، لا بـد وأنـه ظـنَّ أنهـا ملائمـة لهـذه المناسـبة. كـما قـصر طـول

شعره المموج، مما كان يجعل رأسه دائمًا يبدو صغيرًا على نحوٍ غير معقول. قالت شانيل: "اجلس وتناول مشروبًا، وأخبرنا بما حدث، هل وافقت؟". تظاهرت بالتقيؤ، وقالت: "المرحلة الرابعة. هل...؟".

قال برام وهو لا يزال واقفًا عند مدخل الردهة: "لقد وافقت"، وشحب لونه حتى كاد يبدو شفافًا من فرط الغضب، ومحاولة التحكم فيه.

قالت شانيل: "هذا رائع! ماذا سنفعل من دونك يا برام؟".

أرسل إلينا ابتسامة أشبه بصفعة، وقال وهو يبتعد: "هناك أشياء تريد التحدث عنها مع لايل، إنها تصر على هذا". استطعت تخمين أنه هو من حثَّ آيفي على ذلك، قائلًا شيئًا ما مثل: "عليك مناقشة الأمر مع لايل، قبل اتخاذ قرار نهائي، وتذكري، بغض النظر عما قد يقوله أي شخص، يمكنك تغيير رأيك في أي وقتٍ".

عقب رحيل برام، قالت شانيل: "سأتصل بميل، وسأطرق باب آيفي بعد خمس عشرة دقيقة لأخبرها أنها على الهاتف". كررت حركة التقيؤ مرة أخرى، وهي تشير بقوة نحو شفتيها، وقالت: "المرحلة الرابعة".

كلما دخلتُ غرفة آيفي، يبدو الأمر كما لو أنني أسمع أصواتًا مكتومة من غرفة العلية. يبدو الهواء هناك عتيقًا، وأكثر كثافة من أي مكان آخر في المنزل: إنه هواء القرن العشرين، يتسرب من صور الذين لم يموتوا بعد. ومثل العديد من أفكار سيدني، كان المنشور الذي أهداها إياه لطيفًا، وبلا فائدة. تطل نوافذ آيفي على سياج ناحية الجنوب، فلا تنعكس أي أقواس قزح على الجدران، ويخترق نصلٌ من الضوء الغرفة لمدة عشر دقائق فحسب تقريبًا خلال اليوم.

جلست بجانب فراش آيفي، بعد أن تمكنت بسرعة بديهتي من وضع إستراتيجية في المسافة التي استغرقتها لقطع الطريق بين الباب

والكرسي، اسمها "خُذ بزمام المبادرة". قلت: "حسنًا! هل أوضح برام كل شيء؟ استغرق مني الأمر بعض الوقت لتفهم الفكرة حينما اقترحها في البداية، لكنني رأيت بعد ذلك أنه اقتراح ممتاز. أنا مندهش بعض الشيء لأنك وافقت بهذه السرعة، لكنني مسرور حقًّا من أجلك. سوف... يريحك ذلك كثيراً".

قالت آيفي: "لكنني لم أوافق". وبدت مرحة ومستعدة للشجار، وهي مستندة إلى وسائدها.

فكرت، ها نحن ذا، لكنني قلت: "هناك مقطع على يوتيوب، أعتقد أن عليك مشاهدته، صدقيني، أنا لا أهتم إلا براحتك وكرامتك فقط".

"ومع ذلك، فإنك تعاملني كطفلة. الألياف الغذائية! حتى وقع الكلمات يبدو مثل نشارة الخشب. سآكل ما أريد أن آكله، كنت أعتقد أنك ستتفهم هذا، دونًا عن كل الناس".

لا بد أن الحيرة ظهرت عليَّ، فقالت آيفي: "هل نسيت حقًّا؟ عندما كنت صغيراً، أردت تناول البطاطس المهروسة الباردة على العشاء كل ليلة، لمدة عام كامل، وكان يجب أن تكون البطاطس المهروسة باردة، فقد أصررت على ذلك".

لم أتذكر شيئًا من هذا القبيل، لكن البطاطس المهروسة الباردة أطلقت في ذهن آيفي موجة من الذكريات. استمرت قائلة: "هل تذكر سولفيج، صديقتي النرويجية حينها؟ تلك التي كان لها أنف بادي الجدية، وشعر ذهبي؟ بدت كإمبراطور روماني له جدائل. كانت مصورة، وظلَّت طوال أسابيع وأسابيع تأتي إلى المنزل كل يوم لتخبرني أنني يجب أن أذهب معها، وأعيش حياة مختلفة. تحدثنا عن ذلك لساعات، وبدا الأمر ممتعًا للغاية، مثل كتابة مسرحية معًا. كنا سنعيش ببساطة في بلدٍ مختلفٍ، في منزل بجانب بحيرة جبلية.

وبينما نبحث عن منزل مناسب، سنخيم أو نعيش في منزل عائم. كانت سولفيج ستلتقط الصور وترسم، بينما أعمل أنا على حبك كنزات شعرت هي بالثقة من إمكانية بيعها بمبالغ كبيرة للناس في أوسلو. كما نوينا أيضًا زراعة عباد الشمس والأعشاب لبيعها محليًّا، وإذا أغمضت عيني، كنت أستطيع رؤية عباد الشمس، معلقًا رأسًا على عقب في كوخ من القش حتى يجف".

حاولتُ الحديث، لكن آيفي واصلت: "كانت سولفيج تقود شاحنة قديمة، وكان علينا ألا نأخذ أكثر مما يمكننا حمله عند رحيلنا. كتبنا قوائم في مفكرة بقلم فلوماستر، وتجادلنا بشأن ألعاب الطاولة والأسماك المعلبة. كان في وسعي اصطحابك معي أو تركك، فلم تكترث سولفيج بشأنك، وقالت: "إذا جاء، فلن يكون هناك بالتأكيد مكان للعبة الداما". تساءلتُ عما قد يعنيه ذلك بالنسبة إلى دراستك، لكن سولفيج قالت إنك ستحصل في مدرسة القرية على تعليم أكثر ثراءً مما كنت تأمل في الحصول عليه في المدينة. شعرتُ بالقلق أيضًا بشأن الرحلة إلى هناك، والتي ستتطلب جوازات سفر، وعبَّارة، وطرقًا خطرة. حينها أدركت سولفيج أنني لا أستطيع القيادة، وأوضحت لها أنه خلال نشأتي، لم يكن أحد ممن أعرفهم يستطيع تحمُّل تكلفة سيارة. ثم أخبرتها أنني بعد أن صرت أمتلك سيارة الآن، بتُّ أستمتع بأن يقوم أحدهم بتوصيلي. قالت سولفيج إنني لخصت للتوِّ كل الأمور الخاطئة في حياتي، وتحدثتْ عن "قفص مذهب"، وبدت طريقة حديثها أقل تشويقًا بكثيرٍ من طريقة تفكيرها. كانت تصغرني بثلاثة عشر عامًا، وأحاطها الكثير من الغموض. حاولتُ أن أصف ذلك الوقت بعد وفاة والدك، عندما كنت وحدي مع طفلٍ صغيرٍ. لم تشعر سولفيج بالخوف قط، لذلك لم تستطع فهم أي شيء يتعلق بالأمان، وفي سن السادسة والثلاثين، اعتبرت نفسي عجوزًا للغاية لأنني كنت متزوجة، ورُزقت بك.

نفـد القلـم الفلوماسـتر، لأننـا ظللنـا نمـزق القوائـم ونبـدأ مـن جديـد. أخـبرت الجميـع، داخـل الأسرة وخارجهـا، أننـا نخطـط لقضـاء عطلـة. وفي بعـض الأحيـان، بـدا لي الأمـر برمتـه كـما لـو أنـه مجـرد لعبـة، وفي أحيـان أخـرى بـدا كأنـه حلـم، وأحيانًـا كانـت هـذه هـي الحيـاة.

وذات صبـاح، قلـت فجـأة: "لم نسـتشِر خريطـة واحـدة!"، فبـدت سـولفيج مثـل كلـبٍ تعـرَّض للـركل، وكـما لـو أنهـا مفروشـة عـلى الطاولـة بيننـا، تذكـرتُ بوضـوحٍ تـامٍّ خريطـة مطبوعـة في إحـدى الصحـف، وقـد أظهـرت البلـد الـذي نوينـا العيـش فيـه، حيـث كانـت تـدور حـرب في المنطقـة الشرقيـة.

لـذا أصبحـت الآن راشـدة سـمعت طفلـة تحـكي لنفسـها قصصًـا، وأفسـدت كل شيء بالحقائـق المملـة. رحلـت سـولفيج في وقـتٍ مبكـرٍ مـن ذلـك اليـوم، ولـو لم نكـن جالسـتين عـلى الشرفـة، لصفقـت البـاب وراءهـا بعنـفٍ مثـل ممثلـة في مسرحيـة لإبسـن. اعتقـد والـدك أن إبسـن يحظـى بالتقديـر بشـكلٍ مبالـغٍ، لكنـه بـدا مهـمًّا بالنسـبة إلى سـولفيج. كانـت تعتقـد أن الرجـال يضطهـدون النسـاء، بينـما اعتقـدتُ أنـا أننـا جميعًـا يضطهـد بعضنـا بعضًـا كلـما اسـتطعنا. ظننـت أننـي لـن أرى سـولفيج مـرة أخـرى، لكنهـا عـادت في اليـوم التـالي وبحوزتهـا كتـاب. كان كتابًـا قديمًـا للأطفـال، كُتِـب بلغـة لم أسـتطع فهمهـا، لكنـه يحتـوي عـلى صـور جميلـة، وبـه منـزل بجـدران ورديـة، وبحـيرة زرقـاء بهـا عوامـات، وجبـال بقمـم ثلجيـة. ظهـر كل شيء في الكتـاب، حتـى زهـور عبـاد الشـمس، التـي عُلقت مقلوبـة كي تجـف، وعندمـا رأيتهـا ، فكـرت في المـوتى. أخبرتنـي سـولفيج أنهـا اعتـادت قـراءة ذلـك الكتـاب منـذ كانـت في السـابعة مـن عمرهـا. وهـذا مـا كنـت سـأقلب حيـاتي رأسًـا عـلى عقـب مـن أجلـه: كتـاب كُتِـب للأطفـال النرويجيـين قبـل ولادة أي منّـا بوقـتٍ طويـلٍ".

ذات مرة، منذ زمن طويل، كان هناك سروال فضي، وشعر ذهبي على الشرفة: الشمس والنجوم، ودار ذهني معهما. شرعت أقاوم الإحساس، الذي لم يكن يراودني إلا خلال محادثاتي مع آيفي، أن موضوع النقاش الذي كان من المفترض أن يتقدم على طريق آمن من المنطق، قد انحرف من فوق جرف فجأة، على نحوٍ غير مفهوم. أخيراً، سألتها: "هل كان نظامك الغذائي هو الشيء الوحيد الذي تحدث عنه برام؟".

نظرت إليَّ آيفي بتمعنٍ، وقالت: "أوه، لقد ناقشنا التعديل أيضًا، وقال برام إن الأخذ بالتعديل سيكون مخالفًا لتعاليم الأخت بيربيتوا. لم يعرفها قط بالطبع، واضطررت إلى أن أوضح له أنها اعتقدت أن إطلاق البلاشفة النار على كلاب آل رومانوف كان لطفًا منهم. هل كانت كلابًا من فصيلة السبانيل؟ على ما أتذكر أنها سبانيل، على أي حال، كانت الأخت بيربيتوا تقول دائمًا: "أي حياة تلك التي كانوا سيعيشونها؟ لم يكن أحد يريدهم"".

مالت آيفي نحوي، من دون أن ترفع عني عينها ذات الجفن المرتخي والأخرى المتسعة، وواصلت قائلة: "ما رأيك أنت؟ ماذا كنت ستفعل بالكلاب، يا بني؟". لكنها لم تقل "بني"، بل استخدمت كلمة مختلفة، كلمة تعني "بني" بلغة نسيتها. أصابني ذلك بشعورٍ غريبٍ، وأردت أن أمسك بيد آيفي، وأردت التوسل إليها: أرجوك، قولي لي الشيء الوحيد الذي يريد كل طفل سماعه من والديه. أرجوك، قولي "لقد قمت بعملٍ رائعٍ، يا بني".

اضطررت إلى أن أشيح بنظري بعيدًا. كانت هناك ستارة نايلون على النافذة، وبينما استغرقت في تأملها، تحوَّلت ثناياها البيضاء إلى ثلوج متساقطة، تخبطت وسطها كلاب السبانيل الروسية، وقد دُفنوا حتى أعناقهم. وقذف الأطفال البلشفيون الصغار الحجارة على رؤوسهم صائحين: "موتوا، أيها الإمبرياليون الأوغاد!". بعد فترة، قلت للستارة:

"لم نـرِد أنـا وشـانيل سـوى الأفضـل بالنسـبة إليـك، لكـن القـرار قـرارك. إذا اخـترتِ عـدم المـضي قدمًـا في الأمـر، فلـن يذكـره أحـد مـرة أخـرى".

استلقت آيفـي إلى الخلـف، وأغلقـت عينيهـا وقالـت: "كانـت الأخـت بيربيتـوا محقـة تمامًـا، إذا لم تكـن مرغوبًـا، فمـن الأفضـل أن تكـون النهايـة سريعـة. ظهـرت لي الخمسـة البسـتوني هـذا الصبـاح، وهـي دومًـا مـا تجلـب العطايـا في صـورة مقَنَّعـة".

كان مـا حـدث بعـد ذلـك متوقعًـا، إذ أظهـرت آيفـي جانبهـا السـام، الـذي يتصـف بكونـه غـير منطقـي، وقويًـا، ويفتقـر إلى الإنصـاف. وقـد تبعنـي خـارج غرفـة آيفـي، وبقـي في أعقـابي، وهـو هنـا الآن، يحيـط بي ويلدغنـي في "ذا كـوفي سـبوت"، ويخـبرني أننـي قـد فشـلت في الاختبـار.

***

في هـذه الأيـام، صـارت العمليـة يسـيرة تمامًـا: يرسـل المتقـدم طلبًـا إلى الـوزارة، ويجـب أن يكـون مصحوبًـا بإقـرارٍ مـن المـمارس الطبـي المنسـق يفيـد بـأن مقـدم الطلـب يعـاني مرضًـا يتوقّـع أن ينتهـي حياتـه في غضـون ثـلاث سـنوات، وهـذا هـو كل المطلـوب. ثـم يقيِّـم مجلـس طبـي فيـدرالي الطلـب، وإذا كانـت الأوراق سـليمة، تُمنَـح الموافقـة في غضـون أسـبوع. وبمجـرد دفـع رسـوم الخدمـة الباهظـة، تتلقَّـى ملـف بي دي أف عنوانـه "المـضي قدمًـا مـن الناحيـة النفسـية"، إلى جانـب قسـائم إلكترونيـة لـشراء الرايـات والشـمبانيا المخفضـة، بعـد ذلـك، لا يتبقـى سـوى تحديـد التاريـخ.

قبـل التعديـل، كان كل شيء يطـول: تعـيَّن عـلى طبيـبٍ متخصـصٍ أن يشـهد أن المريـض لم يتبـقَّ لـه سـوى سـتة أشـهر، إلى جانـب الحاجـة إلى وجـود شـاهدين، كـما كان لا بـد مـن وجـود ثلاثـة طلبـات في المجمـل، وهلـم جـرًّا، في شـبكة مـن التعقيـدات. وقـد اختـصر التعديـل كل ذلـك، لكـن هـذا لم يكـن كل الفائـدة التـي جلبهـا فحسـب، إذ إن الاقتصـاد بـدأ

ينتعش مع إنفاق المواريث، كما خفَّت حدة نقص المساكن، وأخبرتني شانيل أنه من المقرر افتتاح محرقة الجثث العاشرة في ملبورن العام المقبل.

أرسل إلينا برام الأوراق من دون المزيد من النقاش، وغيَّر موعد درس اليوجا الذي يحضره إلى درس مسائي، كما لم يعُد يتناول الإفطار مع شانيل، وعندما تتصل به، لا يرد. قلت لشانيل: "حسنًا، إنه غاضب منا، سوف يتخطى الأمر، وحتى إذا لم يفعل، فيمكنني التعايش مع هذا، أليس كذلك؟".

قالت شانيل: "إنه ليس غاضبًا منَّا، بل غاضب من نفسه. كان من الممكن أن يرفض التوقيع على الإقرار الطبي، وكان من الممكن أن يذهب إلى رجال الشرطة، ويعترف بالتهرب الضريبي ويخاطر بفقدان كل ما يعمل من أجله هنا، لكنه لم يفعل، والآن ها قد صار يعرف الحقيقة عن نفسه، ولن يتخطى ذلك أبدًا".

كان الإقرار الذي أرسله إلينا برام وثيقة نموذجية مختصرة يمكن تنزيلها من موقع وزارة الصحة بسهولة، وحيث إن التوقيعات الإلكترونية مصرح بها، لذلك لم يكن على برام سوى التوقيع وإرساله إليَّ، فطبعته مع نموذج الطلب الذي ملأته، والمكون من صفحة واحدة. وكل ما كان مطلوبًا بعد ذلك هو أن توقع آيفي النموذج، إلى جانب شخص ما ليكون شاهدًا لها.

لا يمكن للشاهد أن يكون مستفيدًا من وصية المريض، لذلك تطلَّب الأمر تفكيرًا دقيقًا. كانت ثوي، شريكة آيفي القديمة في لعب البريدج، هي الخيار الأول لشانيل. ذكَّرتني أن ثوي ترغب في التخلص من زوجها، مما بدا واعدًا بالنسبة إلينا، لكننا اكتشفنا أن زوج ثوي تُوفي أخيرًا، فصارت ثوي حرة للانتقال إلى تسمانيا. بعد ذلك، اقترحتُ كوستيا، اختصاصي الأقدام، فتساءلت شانيل عمَّا إذا

كان في وسعنا الاعتماد عليه. كان شابًّا، والشباب بشكلٍ عام يؤيدون التعديل، ولكن هناك استثناءات دائمًا. يرتدي كوستيا نظارات بإطارٍ فضي، وله قصة شعر مستديرة الشكل. وقد اشتبهت شانيل في كونه يعتنق آراء قديمة. تطلق عليه آيفي لقب "الفتى الجميل"، أما فانتا فتسميه "الشيطان". كانت تشعر بالغيرة بالطبع: الغيرة من مقصات أظافر كوستيا اللامعة، وشفرات الأمان لإزالة الجلد الزائد، والغيرة من يديه اللتين ترتديان قفازًا من اللاتكس وتحتويان بينهما قدمي آيفي المتورمتين. كانت آيفي تمتلك قرون استشعار تجس بهما الاضطرابات العاطفية، وتستغل ذلك لتسليتها. رأيتها تظهر لفانتا بطاقة لعب زلقة، وادَّعت أنها تظهر دائمًا عندما يحين موعد كوستيا: ولد القلوب، رجل أشقر الشعر، معجب شاب.

لا، لم يكن هناك سوى خيار واقعي واحد. بمرور الوقت، عرفنا الكثير عن فانتا. يخبرها عقلها المضطرب أنها لو لم تكن بعيدة عن قريتها في ذلك اليوم المشؤوم، لساعد مجال القوى السحرية الذي يشع من جسدها البالغ من العمر عشر سنوات على تجنُّب الضربة الجوية. كما تنتابها أفكارٌ تدفعها إلى إيذاء النفس، لذا تذهب لزيارة طبيب نفسي، وتبتلع الحبوب التي يوزعها كالحلوى. ما الجدوى منها؟ فهي تعالج مشكلات العقل، بينما تعاني فانتا اضطراب الروح. ويتضح ذلك من خلال الارتجاف العشوائي، والصداع المفاجئ، والاضطرابات المعوية، والقيء العرضي. وبشكلٍ عامٍّ، شعرنا أننا محقُّون في افتراض أن فانتا ستتعاطف مع أي شخصٍ يرغب في إنهاء حياته بكرامة ويسرٍ. قالت شانيل: "الميزة الأخرى هي أنها لن تفهم ما ستوقِّعه، على الأرجح. على أي حالٍ، يمكننا وضع ورقة فوق بقية الصفحة، كما يفعلون مع الوصايا".

اخترنا عصر يوم أحد بني، بدت مستويات الدخان فيه مقبولة تمامًا. ذهبت آيفي وفانتا للتمشية جيئة وذهابًا في سبومانت كورت،

مرتديتين كمامات N95. أعدَّت شانيل كعكة مخملية حمراء، وبينما كانت تبرد على الرف، شرعت تمشي للخلف بطول الردهة (أخبرتني بأن هذا يطيل عضلات الفخذ).

واجهتُ بداية يومٍ مزعجة، فبعد قيامي من الفراش، أخرجت ساقي من أسفل اللحاف المنقوش برسوم سبايدرمان، ورأيت المنظر. انتشرت البقع البيضاء على قدمي اليمنى بأكملها، وفي الواقع، ظهرت بعض البقع البيضاء على ربلة ساقي أيضًا. وعندما استيقظت شانيل، وقفتُ بجانب فراشها، مشيرًا إلى ساقي. كانت رائعة، إذ مدَّت ذراعيها، وقالت: "على الأقل يمكننا العودة لمشاركة الفراش، لقد اشتقت إليك". بعد ذلك، أكدت لي أنني سأجد التغيير غير مؤلمٍ. أصيب ظهرها وكتفاها الآن، وكادت البقع تغطي فخذيها. استلقيت بجانب شانيل، وفكرت في تلك الفتاة في القطار، والبقعة التي تركتها على ساق سروالي. سألتُ شانيل إذا كانت تتذكر أن أي شخص تقيأ عليها، فقالت: "عليك أن تسترخي، بصراحة، لا أظن أننا يجب أن نقلق كثيرًا، بل على العكس، فأنا أشعر بمزيدٍ من ... حسنًا، أشعر أنني أكثر قوة مع انتشاره".

بدا وجهي عجوزًا ووجنتاي منتفختين طوال اليوم، فتجنبت المرايا التي أصرت على أن تظهر لي صورة خالي المُتوفَّى منذ زمن طويل. جرجرت الحجر الجاثم في صدري نحو النافذة، في انتظار عودة اللتين ذهبتا للتمشية، ووصلني صوت جهاز الاتصال الداخلي لأحد الجيران وسط الهدوء السائد في يوم الأحد. وبينما أنا واقف هناك، وجدت في حلقي غصة ناتجة عن محبتي لسبومانت كورت، بمنازلها المتطابقة التي تدعم مظاهر المساواة، والناس الشبعى الناعسين بالداخل، والسماء الشاسعة الطيبة التي تطل على حيواتنا غير الاستثنائية. عادت ذكرى أمسيات تعبق برائحة الليلك، والجمبري العملاق فوق الشواية، وأبراج الضغط العالي ظاهرة في الأفق كحراسٍ طيبين. كما

احتجَّ منشر الملابس والأبواب الجرّارة بجودتهم وطبيعتهم العملية. لماذا سنرحل؟ لقد أنتج هذا الشارع المستوي غير الجذاب ولدينا الطوال، واستوعب هذا البيت أحزان عائلتنا وأفراحها. أردتُ سبومانت كورت، و"ذا كوفي سبوت"، والأزيز المطمئن المنبعث من الطريق السريع لبقية حياتي.

سارت شانيل إلى الخلف وأتت إلى المطبخ وهي تنادي قائلة إن جافينا أنزلت منشورًا جديدًا على فيس بوك. نعم، بمجرد توقيع عقد "برايم كت"، صارت شانيل وجافينا صديقتين على فيس بوك. رأينا كريجلز يمارس اليوجا، متخذًا وضعية الآلهة في مكانه المفضل، وجافينا تقرأ "الكتاب الصغير للرأسمالية الواعية". عدت إلى المطبخ ورأيت التوأمين في عيد ميلادهما السادس عشر، مرتديتين قميصين قطنيين متطابقين، كُتب عليهما: "مرحبًا بنيك كيف".

انفتح الباب الأمامي، واختفت آيفي في حمامها. بدت فانتا ميالة إلى الوقوف بجانب الباب، منتظرة مثل الحصان، فمددت رأسي إلى الردهة، وقلت: "لدينا كعكة هنا، مخبوزة للتوِّ، لا تقلقي بشأن آيفي، ستتأخر لبعض الوقت".

قالت فانتا: "أعرف هذا"، وقد انزعجت من الإيحاء باحتمال وجود جانب من حياة آيفي لم تطلع عليه. لكن رائحة الكعك اجتذبتها إلى المطبخ، وقدمت لها شانيل قطعة ضخمة. جزَّت فانتا شعرها حديثًا، واستبدلت ثيابها الشبيهة بملابس النوم، فارتدت بدلًا منها ما بدا أشبه بخيمة بلون مياه المرحاض الزرقاء، ولها أزرار من الأمام، وأكمام طويلة فضفاضة. وعندما رفعت نفسها فوق مقعد البار، انفتحت الخيمة من الأسفل كاشفة عن ركبتين كالصخور، تحتهما قدمان حبيستان داخل حذاء من الجلد الطبيعي برقبة مرتفعة. دومًا ما ترتدي فانتا أفضل ما لديها للذهاب إلى الكنيسة في يوم الأحد.

وكان الحضور إلزاميًّا للمسلمين السابقين، ويخضع للتتبُّع عبر أحد التطبيقات. قالت آيفي إن فانتا تشاهد مقاطع يوتيوب على هاتفها المحمول خلال القداس، لكن المطلوب منها هو الطاعة، لا الإيمان. وكانت الكنيسة مستنيرة، حيث يرتدي قسٌّ مبتسم سترة زرقاء داكنة، وقد تخلَّت الكنيسة عن كل ذلك الإصرار القديم على الخطأ والصواب، وحلَّ محله درس إيجابي واحد: كلما ازداد الدخل، اقتربنا من الرب. لكن الجانب السلبي هو أنهم يشجعون فانتا على تحويل مبلغ شهري من حسابها المصرفي إلى حساب القس. وفي المقابل، تحصل على خصم على جميع ألبومات أغاني جاستن بيبر التي يؤديها آخرون، والمتوفرة حصريًّا على موقع الكنيسة على الإنترنت خلال الشهر الأول من إصدارها.

عرضتُ عليها قائلًا: "قهوة مثلجة؟"، ووضعتُ كوبًا طويلًا على الطاولة، وأضفتُ ملعقة رابعة من آيس كريم الفانيليا. رفعت شانيل نفسها على مقعدٍ من دون ظهرٍ بجانب فانتا، واستندت أنا إلى غسالة الصحون بشكلٍ عرضي. وعلى الطرف الآخر من الطاولة، قبع نموذج الطلب داخل ملفٍّ بلاستيكي، مقلوبًا نحو الأسفل. لمست شانيل البلاستيك برفقٍ، وقالت لفانتا: "هناك شيء يجب أن توقع عليه آيفي، مجرد واحد من تلك النماذج الرسمية، لكنها تحتاج إلى شاهدٍ، لذلك تساءلنا عما إذا كنتِ ... ما رأيك في الكعكة؟".

قالت فانتا شيئًا ما، لكنه خرج غير واضحٍ بسبب الآيس كريم. انتظرنا بابتسامات صبورة، وفي النهاية سمعنا: "هل هو تعديل؟".

قلتُ بنبرة هادئة مبتهجة: "إنه هو بالفعل، هل أطلعتك آيفي على الموضوع؟ كان لطفًا بالغًا من برام، أن يقترح اتخاذ هذا المسار. من المهم الأخذ بالمشورة الطبية المتخصصة، أليس كذلك؟".

قالـت فانتـا: "آيفـي أخـبرني بـكل شيء دائمًـا". لعقـت ملعقتهـا، فرفعـت شـفتها العلويـة، وظهـرت أسـنانها بيضـاء ومتسـاوية مثـل أسـنان المشـاهير أو أبنـاء أطبـاء الأسـنان. وبمـا أن فانتـا لم تكـن مـن أيهـما، فـلا بـد أنهـا كانـت أسـنانًا صناعيـة، واصلـت الحديـث: "أنتـم لا تريـد آيفـي، أنـا أعـرف".

قالـت شـانيل: "أنـت مضحكـة للغايـة، يـا فانتـا! مـن أيـن لـك هـذه الفكـرة؟".

قالـت فانتـا: "أنـا أوقـع، لأن آيفـي تريـد، هـي تعـاني ألمًـا شـديدًا هنـا"، ضربـت صدرهـا بقبضتهـا الضخمـة، وتابعـت: "مـا أجمـل أسـتراليا! آيفـي تسـتطيع أخـذ تعديـل. بلـدي، يعـاني النـاس فقـط هـذا الألم، وأوضـاع الحـرب، هـذا الألم يشـبه تحـول عـالم إلى لـون برتقـالي، وغرفـة تـدور".[1]

دخلـت آيفـي المطبـخ وهـي تعـدل سروال بذلتهـا الرياضيـة، قائلـة: "لا جـدوى مـن الأمـر، لا أعـرف حتـى لمـاذا أجشـم نفسي عنـاء المحاولـة، فقد ظهـرت لي بطاقـة اثنـين السباتي هـذا الصباح، مـما يعنـي عقبـات تعـترض النجـاح. مـا الـذي تلتهمينـه هنـاك، يـا فانتـا؟". غاصـت في الأريكـة بغرفـة المعيشـة، ومـال رأسـها إلى الـوراء وغرقـت في النـوم عـلى الفـور تقريبًـا. اعتـادت فانتـا وضـع أمشـاط في شـعر آيفـي، لإبعـاده عـن وجههـا. جعـل النـوم وجههـا ناعـمًا وممتلئًـا، وبـدا كـما يظهـر في الصـورة التـي ترتـدي فيهـا الفسـتان الأزرق، وكـما يبـدو الأمـوات حديثًـا، عـلى حـد قـول النـاس.

تجرَّعـت فانتـا آخـر مـا بقـي مـن قهوتهـا، ورفعـت آيفـي رأسـها فجـأة وهـي تصـدر شـخيرًا، ثـم مسـحت فمهـا بكفِّهـا، وبطـرف عينـي، لمحـت شـانيل تمـد يدهـا نحـو النمـوذج.

***

---

(1) الإشـارة هنـا إلى كلـمات أغنيـة "بـالاد لـوسي جـوردان"، التـي تصـف آلام البطلـة وتدهـور حالتهـا العقليـة، "حتـى يتحـوَّل العـالم إلى اللـون البرتقـالي، وتـدور بهـا الغرفـة".

وقـع تطـور مرعـب في العمـل الأسـبوع المـاضي: في يـوم الخميـس، وصلـت رسالة بريـد إلكـتروني مـن الوزير نفسـه، يبلـغ فيهـا الإدارة بأكملها انكشـاف خـرق أمنـي، وبالتـالي، تـم تعيين فريـق تحقيـق خارجـي لفحـص ملفـات قضايانـا، والتحقـق مـن النتائـج التـي توصلنـا إليهـا عـلى مـدار السـنوات السـبع الماضيـة، وإذا سـاور أي شـخص أدنى شـكٍّ بوجـود نشـاطٍ غـير اعتيـادي داخـل القسـم، فعليـه الإبـلاغ عـن الأمـر بسريـة باسـتخدام رقـم الهاتـف المُقـدم.

كل مـا رأيتـه هـو اسـم بـرام عـلى جـدول البيانـات، كـما رأيـت أصابعي عـلى لوحـة المفاتيـح، واسـمه يتغـيَّر مـن الأصفـر إلى الأبيـض، وبعـد ذلـك: "احـترس، احـترس". مـرَّ ليريـك، ودخلـوا مكتـب روس. خفضـت عينـي، وانتظـرت الاسـتدعاء، وشربـت بعـض المـاء مـن الزجاجـة عـلى مكتبـي.

دار الهمـس باقـي اليـوم، بخصـوص مـن ومـاذا ولمـاذا. لعبـتُ "اضرب مُـلًا" قـدر اسـتطاعتي، وفي الثالثـة، ظهـر روس بجانـب مكتبـي. بـدا عليـه الانفعـال، وقـد ضاقـت عينـاه حتـى صارتـا شـقَّين أزرقـين في وجهـه، وقـال: "لقـد أرسـلت إليـك بعـض الأشـياء، يـا صـاح، يجـب أن أعـود إلى المنـزل، تلـك المربيـة القادمـة مـن جورجيـا جاهلـة للغايـة، إلى درجـة أننـي أفتقـد المولدوفيـة".

أجبتـه: "لا بـد أن ذلـك شـاقٌّ للغايـة، لكـن مـن فضلـك، لا تقلـق بشـأن العمـل، اتـرك لي كل شيء".

لانـت ملامحـه، وقـال: "شـكرًا لـك عـلى ذلـك، إنهـا الفرصـة الأخـيرة التـي سـأتمكَّن مـن الإفـلات فيهـا. هـل تصـدق أن فريـق التحقيـق اللعـين هـذا سـيصل في السـاعة الثامنـة غـدًا؟ ومـن المتوقـع أن أكـون هنـا، ولا علاقـة للأمـر حتـى بقسـم التقييـم، فقـد ضُبـط وغـد مـا مـن الأمـن وهـو يتلقـى رشـوة، فصـار القسـم برمتـه في مـأزق".

هـل سيتوسـط روس لي لـدى صهـره، إذا انكشـف تلاعبـي في إعـادة الترميـز؟ هـل سنُعفى مـن العـودة القسريـة إلى الوطـن؟ اشـتعل الأمـل وخبـا وأنـا أعمـل عـلى ملفاتـه حتـى وقـتٍ متأخـرٍ مـن المسـاء. ذكَّـرت نفـسي أن هنـاك مئـات، بـل آلافًـا مـن القضايـا التـي يعـاد ترميزهـا في قسـم التقييـم كل عـام، إذ إن طبيعـة مهمتنـا تقتـضي التقييـم وإعـادة التصنيـف. سـيعطي التحقيـق الأولويـة لتهديـدات الأمـن القومـي، لكـن هـل سـيهتمون حتـى بالتهـرب الضريبـي؟ كنـت أشـعر بالثقـة في لحظـة، ثـم أعـود لأتصبَّـب عرقًـا في اللحظـة التاليـة. لم يكـن عـلى ليريـك سـوى إدخـال رقـم إلى هاتفهـم، والقـول: "ربمـا لا يكـون للأمـر أهميـة، لكـن هنـاك رجـلًا يسـتخدم كلمـة مـرور روس". اهتـزَّت ركبتـي مـن تلقـاء نفسـها. كانـت البقـع قـد غطَّـت معظـم سـاقي اليمنـى حينهـا، وتطـور فقـدان التصبـغ بسرعـة أكـبر كثـيراً مـما حـدث مـع شـانيل، لكـن الأمـر لم يشـعرني بالقـوة عـلى الإطـلاق، بـل أحسسـتُ بالخـوف فحسـب.

تمتـد أشرطـة عريضـة مصنفـرة عـبر الجـدار الزجاجـي المواجـه لقاعـة الاجتماعـات الرئيسـية، وفي صبـاح يـوم الجمعـة، ظهـرت هنـاك خطـوطٌ أفقيـة لثلاثـة غربـاء اكتسـوا باللـون الرمـادي، ولهـم وجـوه رماديـة. خـرج ليريـك فـور وصـولي، وتلاقـت نظراتنـا، وارتعشـت نظرتهـم. ربمـا كان ذلـك يعنـي شيئًا مـا، أو ربمـا كانـت مجـرد طبيعـة عينيهـم. عـاد لـون الأوبـال هـذا الأسـبوع، فأومـض وجههـم باللونـين الـوردي والأخـضر.

في الخـارج، سرت موجـة حـارة، كان مـن المتوقـع -مـرة أخـرى!- أن تحطـم كل الأرقـام القياسـية. تسـاقط الرمـاد وأوراق الشـجر المتفحمـة، مـما يعنـي أن الحرائـق القديمـة ازدادت اشـتعالًا، واندلعـت حرائـق جديدة في ضواحـي المدينـة. طـوال اليـوم، دار في رأسي شـخصٌ يـصرخ ويدبـدب بقدميـه، مرتديًـا حـذاءً بمسـامير حديديـة. بـدا إغـراء التحجـج بالمـرض والرحيـل في وقـت الغـداء لا يقـاوم، لكنني قاومتـه، لأن الأمـر سـيبدو

مريبًا. كنّا أنا وشانيل سنأخذ إجازة في الأسبوع المقبل، وتساءلتُ عمّا إذا كان عليَّ إلغاء إجازتي.

حينما حلَّت الساعة الخامسة، لم أعُد أستطيع التحمُّل أكثر من ذلك. وعندما غادرت مكتبي، نادى ليريك: "إجازة سعيدة!"، وكررها الآخرون: "إجازة سعيدة، إجازة سعيدة". بدا الأمر كأنه استهزاء. تمكَّنت من الإجابة قائلًا: "شكرًا جزيلًا، لن أنعم بكثيرٍ من الراحة والاسترخاء، على ما أخشى، فلديَّ أشياء عليَّ الاعتناء بها في المنزل، كما تعلمون".

***

"إجازة سعيدة". إنه يوم الاثنين الآن، ولا تزال عبارة "إجازة سعيدة" تتردد في أذني. خلال عطلة نهاية الأسبوع، سألتني شانيل لماذا ظللت أهز رأسي، لكن ذلك لم يجدِ على أي حالٍ، إذ لم أستطع التخلُّص من صوت ليريك. "إجازة سعيدة": بدا لها وقعٌ خبيثٌ. هل كان ليريك يعلمون أن هذا الأسبوع لن يجلب أي إجازة ولا أي سعادة بالنسبة إليَّ؟ هل ستصلني رسالة تأمرني بالعودة إلى القسم في الحال؟ على طاولتي في "ذا كوفي سبوت"، ظللتُ أغلق هاتفي وأفتحه مرة أخرى. قالت شانيل إنه لو كان ليريك يعتزمون الإبلاغ عني، لفعلوا على الفور. لكن ربما كان ليريك يخططون لتركي آخذ إجازتي، قبل الإبلاغ عني يوم الاثنين المقبل، عقب عودتي. لكن من جهة أخرى، كان هناك سبعة طيور عقعق هذا الصباح: سبعة لسرٍّ لا يُباح به البتة. تشجعت وفتحت هاتفي، فبدأ في الأزيز على الفور، وواصل أزيزه بإصرارٍ، حتى أغلقته ثانية.

الجو أكثر برودة بكثيرٍ اليوم، وإذا صحَّت التوقعات الجوية، فسوف تحظى آيفي بجوٍّ مثالي غدًا. لدينا الكثير لننجزه مع كل التجهيزات

المطلوبة، لكن شانيل طردتني من المنزل في التاسعة. قالت إن التمرين سيريحني، لذلك جئت إلى هنا. عند مروري بصالة التمرينات، رأيت إشعارًا على الباب بخصوص "اللعاب"، وتعجبت مفكرًا أن الصالات الرياضية قد تنوعت حقًّا في أنشطتها، قبل أن أدرك أن الكلمة هي "الألعاب". لم يكن الوضع في العمل فقط هو ما يوترني، لكنني اكتشفت هذا الصباح بقعة شاحبة على مرفقي الأيسر. نخفي أنا وشانيل مشكلتنا في الوقت الحالي، لكن ماذا سيحدث إذا امتدَّ الأمر إلى وجهينا وأيدينا؟ ستتصل شانيل بموظفة استقبال تشينج كي تصرَّ على موعدٍ لي عبر برنامج زووم هذا الأسبوع، ولكن ما جدوى ذلك؟ وقع أطباء الأمراض الجلدية والمختبرات حول العالم في حيرة، وقال تشينج: "جميعهم يرجعون إليَّ بنفس النتيجة: إن فقدان التصبغ هو الاختلال الوحيد الذي يمكنهم العثور عليه، وفيما عدا ذلك يشير كل شيء آخر إلى بشرة عادية وصحية".

ستخرج شانيل طوال اليوم: مهمات، وتدليك، ومصفف الشعر، وصالون الأظافر، وعيادة العناية بالبشرة، وستكون محطتها الأخيرة بائع الزهور. لم تكن الزهور لتخطر ببالي، لكن لطف شانيل لا حدود له. عندما تعود إلى المنزل، ستفرغ مزهرياتنا من أزهارها الصناعية، وتملأها بزهور النرجس والورود والزنابق والفاوانيا المبالغ في تقديرها: كل ذلك الإسراف العَطِر للمال الذي تتوق إليه آيفي.

في المنزل، كانت فانتا مسؤولة عن آيفي، ووصلت مبكرًا وهي تحمل الفستان الوردي الذي التمع داخل الغلاف البلاستيكي للتنظيف الجاف، وبدت عينا فانتا بنفس لون الفستان. لا بد أنها أخذت تبكي مرة أخرى. ضُبط قياس الفستان علاوة على تنظيفه، وسيكون مناسبًا تمامًا عندما ترتديه آيفي لمناسبتها السعيدة. بينما كنت في طريقي للخروج، سمعتُ فانتا تؤكد لها: "تبدين رائعة للغاية!".

سيتجمع حشدٌ كبيرٌ غدًا، إذ كانت آيفي تريد حفلًا، وكما قالت شانيل: "لِمَ لا؟"، فليس لدينا ما نخفيه. أعدَّت آيفي قائمة بالمدعوين، واتصلنا بكل من على القائمة، فأعربوا جميعًا عن دعمهم لقرار آيفي وإعجابهم بشجاعتنا. سيأتي أشخاص من مجموعتها القديمة للمشي، بالإضافة إلى العديد من أعضاء مجموعة الرقص لكبار السن. كما ستأتي ثوي في رحلة طيران مبكرة من هوبارت، وستستقل تلك الفتاة من بنك الطعام قطارًا من بالارات، بعد أن استقرت في مخزن هناك عندما دفعها ارتفاع الإيجار في منشأة التخزين في ملبورن إلى الرحيل.

أرادت آيفي إبلاغ ميل بأنها ستأخذ بالتعديل، كي تحضر ميل ودين مناسبتها السعيدة عبر زووم، فاضطررنا إلى أن نوضح لها أن المشاعر القوية يمكن أن تزعزع استقرار ميل، التي انشغلت بمشروعها النهائي المهم، الذي تقوم فكرته على إعادة تخيل كاتدرائية شارتر، وهي تعمل على مدار الساعة طوال أيام الأسبوع على تصميم مبتكر حقًّا لمركز تسوق متعدد الطوابق.

بعد ذلك، لم يبقَ سوى سيدني، وناقشنا أنا وشانيل خياراتنا. في وسعنا إرسال رسالة إليه من خلال أستريد، لكن من المؤكد أن سيدني سيكون ضد التعديل، لأنه يعارض الحكومة من حيث المبدأ، ومن المرجح أن تشاركه جماعته آراءه. وقد يشعرون جميعًا بأنهم مضطرون إلى السفر إلى ملبورن معًا، واغتنام الفرصة لهزِّ العشب. تخيلنا أنا وشانيل مجموعة من الخيام في سبومانت كورت، وقد تنبَّه للموضوع وسائل الإعلام والمعارضون من العاملين في مجال الرعاية الصحية، واللافتات والكاميرات عند كل نافذة. سيجلس سيدني بجانب آيفي، ويحكُّ نفسه وهو يتكلم، وسيضفي بطء حديثه المثير للجنون وزنًا لكلماته، ومن الممكن تمامًا أن تغير آيفي رأيها لإرضائه فحسب.

في النهايـة، قدمنـا نفـس السـبب لعـدم دعـوة سـيدني كـما فعلنـا مـع ميـل: قلنـا لآيفـي إن الأمـر سـيكون مؤلمًـا للغايـة. قالـت شـانيل: "أنـت تعلمـين أننـا جميعًـا نحبـك كثـيرًا، لكـن سـيدني هـو أكثرنـا رهافـة، ويمكـن أن تؤثـر فيـه مناسـبتك السـعيدة بشـدة. وقـد اقـترب للغايـة مـن الحصـول عـلى الدكتـوراه، ولا تريديـن تعريضـه لأي مجازفـة، أليـس كذلـك؟". فكـرت آيفـي في ذلـك، وقالـت: "يمكننـا تأجيـل كل شيء حتـى ينتهـي من دراسـته"، لكنهـا بـدت مـترددة، وحينهـا خطـرت لي فكـرتي الرائعـة.

اقترحــت قائــلًا: "لنصــور كل شيء بكامــيرا الفيديــو، كل دقيقــة، مــن البدايـة حتـى النهايـة، ويمكـن أن يشـاهده الولـدان حينـما يكـون الوقـت مناسـبًا. يمكنـك البـدء بتوجيـه رسـالة إلى كلٍّ منهـما، وسيشـكِّل هذا تـذكارًا خاصًـا للغايـة".

سُرَّت آيفـي باقتراحـي، إذ لاقـى قبـولًا لـدى غريزتهـا المسرحيـة، فأمضت الأسـبوعين الماضيـين في كتابـة رسـائلها الأخـيرة للولديـن وحفظتهـم عـن ظهـر قلـب. كـما حفظـت أيضًـا الخطـاب الـذي سـتلقيه في حفلهـا. جفلـتُ عندمـا قالـت إنهـا سـتلقي خطابًـا. "لا تضيـع البطـل الكامـن في روحـك". لكنـه لم يكـن شـيئًا مـن ذلـك القبيـل، بالطبـع. سـتلقي آيفـي مونولـج الفسـتان الأزرق، وتريـد أن تتـدرب عليـه هـذا المسـاء. ستنشـغل شـانيل بطهـي الوجبـات الخفيفـة التايلانديـة ليـوم غـدٍ، لـذا سـيقع عـلى عاتقـي سـماع آيفـي وهـي تلقـي سـطورها، وسـأضطر إلى تحمُّـل الأمـر برمتـه مرتـين. ستسـتند إلى وسـائدها، ويداهـا مضمومتـان، وتنطلـق في الإلقـاء: "فكـروا فقـط في طفـح تلـك المراحيـض!". بروفـة للتدريـب. عندما سـمعتُ أنهـا ترغـب في ذلـك، أدركـتُ أن الأمـر برمتـه كان مجـرد لعبـة بالنسـبة إلى آيفـي في بعـض الأحيـان، وفي أحيـان أخـرى كان حلـمًا، وأحيانًـا كانـت هـذه هـي... الحيـاة.

لـن يشـاهد الولـدان الفيديـو أبـدًا، بـكل تأكيـدٍ، بـدلًا مـن ذلـك، سـنقدم لهـما أنـا وشـانيل حكايـة لطيفـة، وسـنقول: "توقـف قلـب آيفـي عـن الخفقـان، وماتـت بسـلامٍ في أثنـاء نومهـا، مـن دون معانـاة، وانتهـى الأمـر عـلى نحـوٍ سريـعٍ وهـادئ للغايـة".

وسـتكون هـذه هـي بالحقيقـة. سـتبدأ مناسـبة آيفـي السـعيدة بتجمُّـع الجميـع في الردهـة، وسـيُقدَّم الطعـام والنبيـذ، وسـيحين الوقـت كي تتألـق آيفـي. سـتلقي بسـطورها مـن مكانهـا عـلى الأريكـة، وبعـد ذلـك قـد يشـعر النـاس بالرغبـة في إلقـاء خطابـات عنهـا. قـد تناقـش ثـوي إسـتراتيجيات آيفـي في المزايـدة، كـما أن نيـلا، إحـدى أعضـاء مجموعـة الرقـص، لم تتمكَّـن مـن الحضـور لتضـارب الموعـد مـع مناسـبة سـعيدة أخـرى تعـيَّن عليهـا حضورهـا، لكنهـا أرسـلت رسـالة تريـدني أن أقرأهـا، تقـول فيهـا إن آيفـي تحـب المكاديميـا، والهدايـا الملفوفـة بطبقـاتٍ مـن الـورق الملـون، والمعـادلات التربيعيـة. هـل يمكـن أن يكـون أيٌّ مـن هـذا صحيحًـا؟ لم يكـن لدينـا أدنى فكـرة أن آيفـي تحـب هـذه الأشـياء. ربمـا كانـت نيـلا تتحـدث عـن نفسـها.

عقـب الانتهـاء مـن الخطـب، سـنشرب نخـب آيفـي للمـرة الأخـيرة، وسـيكون بـرام قـد وضـع منومًـا في كأسـها، وسـتبدأ فانتـا في النشـيج، وهـو مـا يتعـارض تمامًـا مـع أصـول اللياقـة. أيـن شـعورها بالبهجـة؟ سـتبكي قائلـة: "الـوداع، سـعدت جـدًّا بمقابلتـك"، وسـتضطر شـانيل إلى دفعهـا إلى المطبـخ. بعـد ذلـك، ستشـعر آيفـي بالنعـاس وسيسـاعدها بـرام للذهـاب إلى غرفتهـا. يمكـن لأي طبيـب، أو حتـى ممرضـة مسـجلة، العمـل كمقـدم خدمـة في المناسـبة السـعيدة، ولكـن آيفـي أصرَّت عـلى بـرام بالطبـع. وعندمـا تنعـس في فراشـها، تحـت أنظـار جـوان يـن، ويسـوع، وبـوذا، وربمـا حتـى قـوس قـزح، سـيعطيها بـرام حقنـة يتوقـف قلبهـا عـلى إثرهـا.

بعـد ذلـك، سـتقدم شـانيل القهـوة والشـوكولاتة. سـأبذل قصارى جهـدي لأتمالـك نفـسي، لكـن قـد أكـون متأثـرًا بشـدة بدرجـة تمنعنـي مـن تقديـم المسـاعدة. وستمسـح فانتـا عينيهـا قائلـة: "مـا أجمـل أسـتراليا!"، ثـم سـيرحل بـرام. كل شيء واضـح حتـى تلـك النقطـة، ثـم تـأتي مرحلـة مـا بعـد آيفـي. وقـد اكتشـفتُ اليـوم أن مـا بعـد آيفـي لا يتعلـق بالوقـوف في الصـف، بـل هـو مجـرد فـراغٍ. حاولـت تخيـل ذلـك، لكننـي فشـلت، مـما جعلنـي أفكـر في احتـمالٍ رهيـبٍ: مـاذا لـو اختفـى مسـتقبلي مـع آيفـي؟ إنهـا ليسـت فكـرة منطقيـة، لكنهـا أصابتنـي بالقلـق الشـديد، إلى درجـة أنني فكـرت حتـى في إرسـال رسـالة إلى بـرام: "مـن فضلـك، أوقـف كل شيء الآن!". بعـد ذلـك، سـآخذ آيفـي، وسـنرحل سريعًـا بالسـيارة، وسترشـدني إلى منـزلٍ بجـوار بحـيرة جبليـة، حيـث سـنعيش نحـن الاثنـان إلى الأبـد.

جلبـت لي دلمـا للتـوِّ بريـوش تـوت كبـير الحجـم، وثالـث كـوب لاتيـه لهـذا الصبـاح. شربـت قهـوتي وأنـا أفكـر: "تشـجع، يـا لايـل!"، واسـتجمعت كل قـواي للتركيـز، وحاولـت التفكـير مـرة أخـرى في مرحلـة مـا بعـد آيفـي، لكـن الأمـر تكـرر ثانيـة: بمجـرد أن حاولـت تخيـل المسـتقبل، انزلـق عقـلي إلى المـاضي.

عـلى سـبيل المثـال، عندمـا اسـتيقظنا البارحـة، قالـت شـانيل: "قـد ترغـب آيفـي في الذهـاب في جولـة بالسـيارة هـذا الصبـاح". انتابنـي الفـزع، إذ كان لا يـزال هنـاك متسـعٌ مـن الوقـت كي تتفـوّه آيفـي بـشيء غريـب: "اللحظـة التـي احتضنتـك فيهـا لأول مـرة". لم أرغـب بـأي حـالٍ مـن الأحـوال أن أصبـح محـاصرًا معهـا داخـل سـيارة. قلـت لشـانيل: "إنهـا فـترة صعبـة للغايـة بالنسـبة إليّ".

"سأكون موجودة هناك".

"لكنه يوم تمرين الملاكمة!".

ضغطت يدي، وقالت:



"يمكنني تفويت يوم واحد".

ساعدت الاستعدادات لمناسبتها السعيدة على بثّ الحيوية في آيفي خلال الأسابيع الأخيرة، لكننا وجدناها مرتمية وفي حالة من الاكتئاب عندما توجهنا إلى الطابق السفلي. بدت شاحبة رمادية البشرة، وفي وسع أي شخص أن يرى تأثُّرها بحالة الجو. هذه ملبورن، وقد بلغت درجة الحرارة ثلاث وخمسين درجة بالخارج، ونثرت الريح في الفناء خلال الليل غبارًا ورديًّا ناعمًا. لكننا جميعًا اضطررنا إلى التكيُّف مع فصول الصيف الجديدة التي صارت عادية الآن، وإلا كيف سيصبح الحال إذا سمحنا لمجرد الطقس بمنعنا من مواصلة الحياة؟

دخلت شانيل غرفة آيفي لمساعدتها على ارتداء ملابسها، ولمحاولة رفع معنوياتها. شاهدتُ على هاتفي إعلاناتٍ لأنظمة الأمن المنزلية، وكان هناك إعلان صار فيه التعليق الصوتي مخيفًا وهادئًا فجأة، وسمعتُ شانيل تقول: "... انقطاع تام للرجاء".

عندما دخلتُ المطبخ، سألتها: "ما الذي كنت تفكرين فيه؟ لماذا أطلقت عليه ذلك؟".

"أطلقت ماذا على ماذا؟".

"التعديل، لقد وصفته بأنه انقطاع للرجاء".

نظرت إليَّ شانيل بتعجبٍ، وقالت: "انقطاع الكهرباء، إنهم يحذرون من أن كل أجهزة التكييف ستتسبَّب في الانهيار التام لشبكة الكهرباء اليوم. كنت أخبر آيفي أننا سنكون أفضل حالًا في السيارة". ثم ناولتني أنبوبًا من الكريم الواقي من الشمس بمعامل حماية 102، وقالت: "لا تنسَ".

ارتدينا أقنعتنا الواقية من الدخان، ووضعنا القطرة المرطبة للأعين، ثم أدخلنا آيفي في السيارة. تولَّت شانيل القيادة، لذا جلستُ في أمان

نسبي في المقعد الخلفي. تظاهرتُ بالنوم، في حال ما إذا رغبت آيفي في التحدث إليّ. بعد بضع دقائق، فكرتُ في شيء، وفتحت عيني، لكن بعد فوات الأوان. فاتتني الفرصة لتوجيه شانيل عبر طريق براندیفينو الملتوي، بعيدًا عن محرقة الجثث. لاحت أمامنا بالفعل الأشجار الكائنة عند المدخل، وأدارت آيفي رأسها إلى النافذة. لا بد أنها مرَّت بهذا المكان مئات المرات في الحافلة. هل نظرت إليه بثباتٍ، أم أشاحت بعينيها بعيدًا؟ بدأ تأثير التكييف يظهر، فرفعت آيفي يدها ورفعت ياقة قميصها، واستدعى ذلك صورة لورنا، وهي ترفع ياقة سترتها. كانت عينا لورنا زرقاوين، لكن عندما خرجت من القسم في ذلك اليوم تحوَّلت عيناها إلى اللون الأسود. أردت الصراخ في آيفي: كان الأخذ بالتعديل قرارك أنت! لماذا لم ترفضي؟ تركنا محرقة الجثث خلفنا، والتفتت آيفي بعيدًا عن النافذة، وبدأت أصرخ داخل قلبي.

بعد فترة، أغمضت عيني مرة أخرى. سرعان ما خلصتُ إلى أنه لو لم تمنع وصية زوج والدتي آيفي من التصرف في منزلها، لباعته قبل مجيئها إلى أستراليا، ولصار كل شيء مختلفًا اليوم. في جنازة زوج والدتي، شرب زوج شقيقتي، الذي لا يحبه أحد، زجاجة من الويسكي، وقال لي: "أعتقد أن العجوز لم يرغب في أن تبيع والدتك المكان، وتسلمك المال". تجاهلته حينها، ذلك الأحمق المخمور، لكنني اكتشفت بريق الحقيقة في كلماته الآن. نظرًا إلى معرفته بطبيعة آيفي، لا بد أن زوج والدتي خشي أن تمنح المنزل لأول لصٍّ يطلب منها ذلك. وعند التفكير في الأمر برمته على هذا النحو، تمكنتُ نفسيًّا من المضي قدمًا، إذ إن كل شيء كان خطأ زوج والدتي.

اتجهت شانيل إلى الساحة المقابلة للماء، والمخصَّصة لانتظار السيارات. لم يكن هناك سوى سيارة واحدة أخرى في موقف السيارات، ولم يكن هناك أي شخص على الإطلاق على الشاطئ أو رصيف الميناء. ظلَّ منظر السماء أشبه بوسادة متسخة، لكن الضوء لم يعُد غائمًا

بنفس القدر. أظهرت الشاشة الموجودة على لوحة القيادة أن الحرارة قد انخفضت تسع درجات، ففتحت شانيل نافذتها بقدرٍ يكفي لتمدَّ يدها، وقالت: "تغيَّرت الريح". جلسنا مرتدين أقنعتنا والتكييف يعمل، وكان الأمر رائعًا وهادئًا حقًّا.

أصدر هاتف شانيل أزيزًا، فقرأت الرسالة، وقالت: "أوه، لقد قدَّم دين لميل هدية تؤكد قوتها وتحتفي بها". صدر أزيز آخر، فقالت شانيل: "انتظر"، ثم ناولتني هاتفها. تأمَّلتُ الصورة: اختار دين هديته بعناية، وانتقى بندقية طويلة وسوداء، تتماشى مع شعر ميل.

مدَّت آيفي يدها لتتناول الهاتف، لكن لحسن الحظ وصلتنا نغمة مألوفة، على نحوٍ خافتٍ في البداية، لكنها ازدادت ارتفاعًا. قالت شانيل، بينما وضعتُ هاتفها في جيبي: "شاحنة الآيس كريم! لن أمانع بعض الآيس كريم، أليس كذلك، يا آيفي؟".

توقفت الشاحنة عند الطرف البعيد من موقف السيارات. ترجَّلتُ من السيارة، لكن الزوجين اللذين كانا في السيارة الأخرى سبقاني إلى الشاحنة. اضطررت إلى الوقوف هناك، ورفع قدمي حتى لا يلتصق نعل حذائي المقاوم للأشعة فوق البنفسجية بالأسفلت، بينما غيَّرا رأيهما بشأن ما سيشتريانه. عندما رحلا أخيرًا، طلبت ثلاثة أقماع من الآيس كريم. لم أكد أصدق أن الشمس سطعت بمجرد وصول طلبي. سمعت شانيل تصيح: "لا!"، والتفتُّ لأرى آيفي تنزل من السيارة. توجهتُ نحوها، ووقفنا هناك دقيقة أو دقيقتين، والآيس كريم يقطر على مفاصل أصابعي، بينما أتأمل الماء. دومًا ما يفاجئني، ذلك السطوع المذهل للبحر.

***

انشغلتُ مؤخرًا بالتفكير في حكاية كانت ترويها آيفي. بعد فترة وجيزة من زواج والديَّ، قرر صديق لهما عالِم أنثروبولوجيا، أن يصنع فيلمًا عن قبيلة تسكن تلًّا نائيًا، ودعا والديَّ في الرحلة لأن والدي كان يفكر في كتابة مسرحية عن الحياة الريفية. كانوا خمسة في الرحلة: آيفي، ووالدي، وصديقهما، واثنين من طلابه أحضرهما معه للمساعدة في الفيلم.

سافروا بالسيارة إلى غابة حيث كانت الأشجار بطول الأبراج، وجذورها المتدلية أكثر سمكًا من أطراف الإنسان. وعندما وصلوا إلى جدولٍ صخري على حافة الغابة، أفرغوا السيارات، وعاد السائقون إلى منازلهم، بينما خيَّم الآخرون هناك خلال الليل، وفي فجر اليوم التالي، وصل الرجال المحليون ومعهم الجياد التي حملوها بالمعدات والطعام.

بدأت الرحلة الطويلة إلى القرية، وكان المشي سهلًا في البداية، على الرغم من الحرارة والحشرات، لكنه بات مرهقًا بدرجة متزايدة عندما أخذ الطريق ينحدر نحو الأعلى. عند أحد المنعطفات، تدلَّت جبال زرقاء أمام السماء، وصعدت الجياد المثقلة برشاقة، كما فعل الرجال الذين يقودونها. بات الهواء منعشًا، ومع حلول المساء صار فائق البرودة.

خيَّموا في الليلة الثانية أيضًا، في كهفٍ ضحلٍ تشكَّل من جرفٍ متدلٍّ. أصيب والدي ببثورٍ، ففقأتها آيفي بإبرة. ثم أشعل الرجال الذين يقودون الجياد نارًا عند مدخل الكهف، وجلس الجميع حولها لتناول الطعام، بينما علا نداء طائر ليلي، بدا كامرأة تنعي أطفالها المفقودين، وقالت آيفي إنه أصابها بقشعريرة.

عندما انطلقوا في اليوم التالي، أحاط بهم ضبابٌ أصفر مؤلف من فراشات صغيرة لمدة دقيقة، ثم اختفى. حلَّ التعب على الجميع،

وصاروا ميّالين للتذمر. لم ينالوا قسطًا كافيًا من النوم، إذ لم يتمكّنوا من الاسترخاء على أرضية الكهف الصخرية. مرَّ اليوم، حتى تلاشت أصوات التذمر، ولم يعد هناك سوى وقع حوافر الخيول.

في وقتٍ متأخرٍ من العصر، وصلوا إلى وادٍ، وهناك، في مساحة خالية على أحد التلال، كانت القرية التي سيقيمون فيها. كان القرويون يعرفون عالِم الأنثروبولوجيا، ويتوقّعون قدوم الزوار. خرج بعض الرجال للقاء المجموعة، ولم يبدوا مثل سكان السهول، إذ كانوا أكثر امتلاء، ووجوههم عريضة، ونمط لباسهم مختلف. تقدم أحدهم وحيّا الجميع تباعًا. كان الزعيم، وابنه على وشك الزواج، وسيدور موضوع الفيلم حول حفل الزفاف، ولم يكن والداي يتحدثان اللغة المحلية، لكنهما انحنيا للجميع لإظهار حسن النية.

تم تسكين الوافدين الجدد في أرجاء القرية، ونزل والدي ووالدتي في منزل الزعيم، حيث خُصِّصت لهما غرفة داخلية بلا نوافذ، بعد طرد ساكنها المعتاد إلى منطقة معيشة الأسرة. التقيا بزوجة الزعيم وولديه: طفل صغير، وصبي يبلغ من العمر تسعة عشر عامًا تقريبًا، وكان هو العريس، ثم قدمت سيدة عجوز للزوار مشروبات دافئة تشبه الشاي، لكنها موحلة.

لم تكد هذه الرسميات تنتهي، حتى تحدَّث الزعيم إلى عالِم الأنثروبولوجيا، مشيرًا إلى الخارج، وقد تُرجم ما قاله لوالديَّ لاحقًا. خططوا لعقد وليمة في ذلك المساء، وفي صباح اليوم التالي، تقرر أن ينطلق العريس مع كل رجال القرية للقاء عروسه، التي تقع قريتها وراء الجبال، على الجانب البعيد من الوادي الضيق. وستنطلق جماعة العروس في نفس وقت خروج العريس ومرافقيه، بحيث تلتقي المجموعتان في منتصف الطريق. بعد ذلك، سيصطحبون العروس

ورفاقها إلى قرية العريس، حيث ستُعقَد المزيد من الولائم، ثم تُجرى مراسم الزواج في اليوم التالي.

لكن وصلتهم أخبار من قرية العروس ظهرًا: على الرغم من كونه موسم الجفاف، فإن السماء على الجانب الآخر من الجبل كانت تهدد بهطول الأمطار. وعندما وصلت آيفي والباقون، تكوَّنت السحب فوق وادي العريس أيضًا. وخلال فترات المطر، لم يكن من الممكن عبور الطريق الموصل بين القريتين، لذا سيتعيَّن تأجيل الزفاف، وقبل تقديم وجبة العشاء، سقطت القطرات الأولى.

هطل المطر طوال يومين، وفي بعض الأحيان كان يخف لمدة ساعة، لكنه لم يتوقف تمامًا، وسرعان ما عاد للانهمار بغزارة مرة أخرى. لم يكن هناك شيء يفعله والداي سوى تناول الطعام والقراءة ولعب الورق، ولم يمانع عالم الأنثروبولوجيا هذا التأخير. فقد استغل الوقت لتصوير مقابلات مع القرويين، وأخذ يتنقل بين منازلهم المنخفضة مع مساعديه كلما سمحت الأمطار.

كانت المرأة العجوز عمة الزعيم، وارتدت في ذراعها المغضن سوارًا مصنوعًا من البذور. بدا عمرها لغزًا، لكن الجميع كانوا يعلمون أنها لم تتزوج قطُّ. وحينما لم تكن منشغلة بالأعمال المنزلية، اعتادت الجلوس بجانب آيفي، متكئة عليها للتحديق إلى أوراق اللعب أو في كتابها. كما اعتادت في كل صباح أن تمشط شعر آيفي وتجدله، وكانت تضحك كثيرًا، وتحب مداعبة وجه آيفي.

في مساء اليوم الثاني، عندما جلسوا لتناول الطعام، توقف المطر، فجأة هكذا، كما لو أن شخصًا ما أغلق صنبورًا، وقال الزعيم إنه إذا سطعت الشمس في اليوم التالي، فإن الطريق بين القريتين سوف يجف بدرجة كافية ليصبح آمنًا. وإذا حدث ذلك، ستُقام الوليمة الأولى

في المسـاء التـالي، ثـم سـتبدأ احتفـالات الزفـاف وينطلقـون في رحلتهـم في اليـوم الـذي يليـه.

سـاد الشـعور بالإثـارة خـلال الوجبـة في تلـك الليلـة، وتحـدث الجميـع في نفـس الوقـت. رُفِعـت الأواني الفارغـة، عندمـا أشـارت السـيدة العجـوز إلى البـاب وتحدثـت. كان عـلى الجميـع، باسـتثناء آيفـي، المغـادرة. يمكنهـم الانتظـار في الخـارج، أو زيـارة منـزل آخـر، إذ لم تكـترث العجـوز بذلـك، فقـد كان لديهـا مـا تقولـه لآيفـي وحدهـا.

كان الجميـع في حالـة مـن البهجـة، وهـي أكـبر امـرأة في القريـة، لـذا فعلـوا كـما طلبـت عـن طيـب خاطـر. وعندمـا أُغلـق البـاب خلـف آخـر شـخص، أشـارت العجـوز إلى آيفـي بالدخـول إلى الغرفـة الداخليـة. بقيتـا هنـاك لمـدة ربـع سـاعة، وطـوال ذلـك الوقـت، ظلَّـت العجـوز تنظـر إلى وجـه آيفـي وتتحـدث إليهـا بجديـة، وفي النهايـة، خلعـت سـوارها المصنـوع مـن البـذور الحمـراء، ودفعتـه فـوق أصابـع آيفـي، ولفَّتـه حـول معصمهـا.

عندمـا سُـمح للآخريـن بالعـودة إلى الداخـل، أعلنـت المـرأة العجـوز أنهـا ظلَّـت تحتفـظ بـسرٍّ مهـمٍّ معظـم حياتهـا، وقـد نقلتـه إلى شـخص آخـر الآن. قـال عـالم الأنثروبولوجيـا: "لكـن آيفـي لا تفهـم مـا قلتِـه لهـا!"، فنظـرت إليـه المـرأة العجـوز بشـفقة وازدراء. قالـت لـه إنـه لم يفهـم مـا يهـم في الموضـوع، وأنهـا تخفَّفـت مـن عـبء الـسر الـذي تحملـه قبـل وفاتهـا، وفعلـت ذلـك بطريقـة تحافـظ عـلى سريتـه.

اسـتيقظت آيفـي في وقـتٍ مبكـرٍ مـن صبـاح اليـوم التـالي، وعـبرت غرفـة المعيشـة، حيـث كان النـاس لا يزالـون نائمـين عـلى الأرض، ثـم فتحـت البـاب صدعًـا وتسـللت إلى الخـارج، فتجمـدت تمامًـا بسـبب مـا رأتـه هنـاك، مـن خـلال الضبـاب الـذي يطفـو في الـوادي. اكتسـت جميـع الأشـجار عـلى سـفوح التـلال باللـون الأبيـض. وفي أثنـاء سـيرها في القريـة لاحقًـا، سـترى آيفـي الأزهـار المتسـاقطة في كل مـكان، كنجـومٍ صغـيرة

عالقـة في الوحـل. لكـن بينـما هـي واقفـة في مدخـل البـاب، لم تـدرك في البدايـة أن المطـر تسـبَّب في تفجُّـر الأشـجار بالزهـور. قالـت آيفـي: "عندمـا رأيـت كل ذلـك اللـون الأبيـض، فكـرت في العرائـس، واعتقـدت أنهـم قتلـوا كل العرائــس وعلقوهــن في الأشــجار".

لمـاذا أتذكـر هـذا؟ حـدث كل هـذا منـذ وقـتٍ طويـلٍ جـدًا، ولم تـروِ آيفـي القصـة منـذ سـنوات.

شكر وتقدير

شكرًا لصندوق الأدب التابع لمجلس أستراليا، وخاصة لينا كاستوميس، وإلى وكالة حقوق الطبع والنشر وقسم اللغة الإنجليزية بجامعة نيو ساوث ويلز، وخاصة آن بروستر، وإلى قسم اللغة الإنجليزية بجامعة سيد ني.

شكرًا جزيلًا لجان بول بيرالدي على مساعدته في البحث، وجان بول وفرانسواز على كرمهما قبل أربعين عامًا. شكرًا أيضًا لأديل فيرجسون، ومادلين كيلي، ومايلز نيري، وإيمون أوفاريل وايت، ومارك ويليامز، وشكرًا لروبرتا ترابي على المساعدة في اللغة الإيطالية وعلى الدعم على مر الزمن.

شكرًا جزيلًا للنساء الحكيمات الثلاث، كلير درايسديل، وجين بالفريمان، وبات ستراشان، وزملائهن الرائعين في دار ألين وأنوين وكاتابولت.

شكرًا لجميع أصدقائي الكتَّاب، على الكتب، والمحادثات، والشعور بوجودنا في شيء مشترك معًا. إلى نيل موخيرجي، ممتنة أيضًا للرسالة الكريمة، وإلى فيونا ماكفارلين، لقراءتها المتعمقة للمخطوطة، ولجميع وجبات الإفطار في "ذا جنرال".

شكرًا للجميع في وكالة لوتينز وروبنشتاين، وشكرًا جزيلًا لسارة لوتينز على الصداقة الصدوق، والتوجيه على مرِّ السنوات، وشكرًا جزيلًا لكريس أندروز، أعز قرائي.

نبذة عن الكاتبة

ميشيل دي كريتسير روائية أسترالية وُلِدت في سريلانكا، وانتقلت إلى أستراليا عندما كانت في الرابعة عشرة من عمرها. تلقَّت تعليمها في ملبورن وباريس، ونشرت أول رواية لها، "زارع الورود"، في عام 1999. ترشَّحت رواياتها وفازت بعديدٍ من الجوائز، حتى نُشرت روايتها، "الكلب المفقود"، عام 2007، التي كانت واحدة من ثلاث عشرة رواية وصلت إلى القائمة الطويلة لجائزة مان بوكر للرواية لعام 2008، كما فازت رواية "وحوش مخيفة" بجائزة راثبون فوليو الأدبية عام 2023.